خصائص الشّباب المعاصر ومرجعيّاته

محمد نجيب بوطالب (*)

مقدمة عامّة :

حينما يطرح موضوع الشباب في سياق مسارات المثاقفة في بدايات الألفية الثالثة وما يصحبها من تغيرات وموجات تطال الأفكار والقيم و الممارسات، فإن المشهد يبدو معقدا وشائكا خصوصا حينما يراد الانطلاق من السؤال المعرفي.

ويزداد التشخيص صعوبة حينما نروم طرح الموضوع بأسلوب واقعي وموضوعي، أي حينما نعمل على تشخيص تحولات المجتمع واستبطان توجهاته فنكون مجبرين على مقاربة المسائل الثقافية والسياسية والفكرية مقاربة معمقة.

فبالنسبة لدراسة قطاع الشباب،وهو فئة سريعة الحركة،نكون بحاجة إلى متابعة ورصد علاقاته بمنظومات الأفكار والقيم السياسية والثقافية والايديولوجية خاصة. كما سنكون مدفوعين إلى متابعة علاقات هذا الشباب بتنوعاته وتفرعاته وانتماءاته بالمؤسسات الاجتماعية وأهمها مؤسسات الدولة والمجتمع المدني وبدرجة ثالثة الأسرة.

وهذا ما يطلق عليه علماء الاجتماع عبارة «**عملية المثاقفة**» فللمثاقفة مسارات عديدة ترتبط بمناهج التنشئة التي تعتمد عليها تلك المؤسسات. فما هو أثر مسار عملية المثاقفة في تشكيل مرجعيات الشباب العربي من خلال المثال التونسي؟

1 ـ الشباب والمشاركة والإدماج في الشأن العام :

1ـ1 مقدمة :

بالاعتماد على مجموعة من الدراسات العلمية التي أنجزت في الجامعة التونسية، أو التي أعدت ضمن أطر مختصة في البحث والدراسة والاستشراف (1) وانطلاقا من معايشة واقع الشباب التونسي بحثا وتأطيرا وتكوينا يتبين لنا أن موضوع إدماج الشباب أصبح في الفترة الأخيرة يمثل أحد أهم مشاغل الدول والمجتمعات والمنظمات المعنية بتحقيق التنمية المتوازنة. وهو توجه ظهر مع بدايات هذا القرن في سياق طرح موضوع الإدماج الاجتماعي وتحقيق المشاركة الاجتماعية لمختلف أفراد المجتمع، وهو تحول هام وملحوظ في سياق طرح قضايا هذا العصر، وقد تنوعت المقاربات لموضوع المشاركة كما تنوعت مجالات الاهتمام بها فهي بين سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

*) جامعي، تونس

وعموما فقد ارتبط طرح الموضوع بالرغبة في تحقيق مشاركة إيجابية لمختلف الفاعلين في المجتمع في الشأن العام إيمانا بأهمية مشاركة الجميع في رفع التحديات القائمة والقادمة.

كما ارتبط طرح الموضوع بمسألة الديمقراطية وما ظهر من تحولات في الوعي وفي الممارسة لدى أفراد المجتمع خلال الفترات الأخيرة، حيث برز دور الفرد بعد تطور حقوقه تطورا نوعيا خلال العقود الأخيرة لتصبح عمليات المطالبة بالحقوق في الثقافة وفي الترفيه وفي التعبير وفي التنظيم جزءا لا يتجزأ عن حقوق الإنسان ومشغلا هاما من مشاغل عمليات التنمية الإنسانية. فقد أصبحت فئات الشباب في أيامنا معنية بالمطالبة بالحق في عدالة التشريعات التي تمكن وتسهل عمليات المشاركة في تصور وفي إدارة الشأن العام في كل ما يتعلق بحياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كما أصبحت استعدادات المجموعات لتقبل إرادة الأفراد فيها وتمكينهم من احتلال مكانة فاعلة من أهم مؤشرات قياس مستوى تطور المجتمعات والدول والمنظمات. لذلك ارتبطت معايير «المشاركة الوطنية» **بمدى قدرة الدول على توفير شروط الحياة الكريمة لمواطنيها وبعدد ونوعية الفرص التي تتاح لهم للتكوين الذاتي وتحقيق الاندماج الاجتماعي. لذلك أصبح الاندماج بما هو مشاركة فاعلة يمثل واجبا يتحمله الفرد والمجتمع والدولة في آن واحد وفي ظل هذه التحولات الجديدة.**

أما المؤسسات والهياكل التي يفترض أن تتم بواسطتها أو بداخلها عمليات المشاركة في الشأنين الخاص والعام فهي تجمع بين العائلة والمؤسسات التربوية كمؤسسات الطفولة والمدارس والمعاهد والجامعات إضافة إلى مؤسسات الشباب وهياكل المجتمع المدني ومؤسسات الاعلام على اختلاف أنواعها أحزابا ومنظمات وجمعيات وغيرها.

ومن خلال استعراض هذه الهياكل يتبين لنا ارتباط **المشاركة بوظائف اساسية هي:**

ـ **التربية والتنشئة** على مجموعة من القيم المجتمعية والحضارية.

ـ **التحسيس والتدريب** على مجموعة من المبادئ التي اختارتها هياكل ومكونات المجتمع لتقودها إلى تحقيق برامجها وتطلعاتها.

غير أن للمشاركة الشبابية وجود في مجالات أخرى قد ترتبط بتلك الهياكل والبنى كالشغل والرياضة والترفيه والممارسات الثقافية والأعمال التطوعية إلى جانب عمليات الانخراط في الأحزاب والنقابات والمشاركة في الهياكل المدنية والمهنية، وكل ذلك مرتبط بمدى حركية المجتمع وأنسجته التشريعية وبمدى تماسك وتفاعل تركيبته الاجتماعية فضلا عن مدى قدرة المجتمع على مد يد المساعدة لفئات الشباب باعتبارها أطرافا سكانية هامة وفاعلة هي على الدوام في حاجة إلى المساعدة والتكوين والإرشاد والتوجيه وخاصة في مجالات تنمية مؤهلاتها البدنية والذهنية ونحت شخصيتها المتوازنة.

1ـ 2 مؤشرات دالّة :

تولي الدولة التونسية الحديثة عناية خاصة بمسألة المشاركة لدى الشباب في الشأن العام ولذلك تعددت الإجراءات لفائدته وتنوعت آليات الحوار معه والإصغاء إلى مشاغله ضمن مقاربة تتميز بالشمولية والتكامل والطموح.

هذه السمات جسدتها عديد البرامج والمخططات الحكومية ودفعت بها إلى الإمام مجموعة التشجيعات والإجراءات التي اتخذت في هذا الحقل بما أدى إلى مكاسب عديدة ومنها ما يتعلق **بالمشاركة أي سلسلة الاستشارات الوطنية التي تخص القطاع وتؤسس لمقاربة تشاركية في تنمية قطاع الشباب** وتفعيل دوره في التنمية.

لكن نتائج الاستشارة الشبابية الثالثة التي أنجزها المرصد الوطني للشباب بتونس أثبتت سنة 2005 أن نسبة انخراط الشباب في المجتمع المدني لا تتجاوز 18 % (6.5 % في الأحزاب السياسية، 5 % في المجالس البلدية، 2 % في النوادي المدنية 3 % في الجمعيات الرياضية، 1.4 % في الجمعيات، 0.8 % في المنظمات الوطنية، 0.6 % في النقابات) وبينت الاستشارة أن 27.7 % فقط يشاركون

في الانتخابات التي تهم الحياة السياسية والاجتماعية، وهي نسبة ضعيفة في حد ذاتها لا تختلف عن نظيراتها في أغلب البلدان الأوروبية إذ أن التقرير الدوري حول الشباب الذي يصدره الاتحاد الأوروبي يؤكد وجود مشكلة عدم الرضا الذي يبديه الشباب تجاه العمل السياسي لاعتقاده أن الأحزاب السياسية فقدت ارتباطها بالواقع المعيش للشباب. لهذا أقر الاتحاد الأوروبي خطة لتطوير مشاركة الشباب في العمل السياسي تحت شعار «**مواطنون شبان نشيطون، والكل متساوون**»، ودعا إلى ضرورة بلورة ذاتية للشباب من خلال وضع ميثاق للشباب يتضمن عديد الإجراءات التي تعبر عن مشاغله وتحقق ذاته وانتظاراته وتبين واجباته، هذا إلى جانب توفير الظروف الملائمة للنشاط وتمكين الشباب من المكانة التي يستحقها كشريك فاعل في الحوار بين الثقافات والأديان وغرس ثقافة حقوق الإنسان (2).

وحسب «دراسة الممارسات الثقافية والتعبيرات المستحدثة لدى الشباب» المنجزة سنة 2004 بإقليم تونس، صرح 17.7 % فقط من المستوجبين بانخراطهم في النسيج الجمعياتي بالرغم مما تكسبه الحياة الجمعياتية للمنخرطين فيها ذكورا وإناثا، من مهارات متنوعة وقدرات مختلفة. وبينت المعطيات المجمعة أن الانخراط **يتقلص مع التقدم في السن**، حيث تم تسجيل أعلى نسبة مشاركة في الحياة الجمعياتية للفئة 15 – 19 سنة.

ويبدو **أن تقدم المراهقين والشباب في السن يقلص من الانخراط في الحياة الجمعياتية ويشجع على الانتماء إلى جماعات الأتراب**، وهو ما يمكن ان يترتب عنه بناء عوالم من قبل المراهقين والشباب تفلت من الرقابة العائلية ومرافقة الكهول. كما يتجلى من خلال بيانات هذه الدراسة أن الفتيان أكثر انخراطا في الجمعيات مما هو الشأن لدى الفتيات. وهو ما يؤكد حضور الرقابة الاجتماعية التي تخضع إليها الإناث التي تحدّ من مشاركتها في الحياة العامة مقارنة بالذكور. وتبرز هذه الدراسة تباينا في المشاركة حسب المناطق المعنية بالعمل الميداني المنجز. وهو ما يؤكد تأثير السياق المحلي والجهوي على درجة المشاركة.

وقد توصلت الدراسة الميدانية الوطنية حول صحة المراهقين المتمدرسين المنجزة سنة 2000 إلى نتائج متقاربة في ما يخص قلة انخراط كهول الغد في الحياة العامة. وبينت أن الانخراط في هياكل المجتمع المدني يشمل الفتيان أكثر من الفتيات وأن عدد المنخرطين ينخفض بشكل ملحوظ مع التقدم في السن (3).

1_3 التحديات في مجال المشاركة عبر وسائل الإعلام :

يعتبر الانفجار الإعلامي الاتصالي أحد أهم مظاهر العولمة، وقد تمت تسميته بالانفجار الفضائي، ويعدّ الشباب في العالم من الفئات الأكثر تفاعلا وتعاملا وإقبالا واستخداما لهذه التكنولوجيات الجديدة فقد أضحت منتجات التكنولوجيا الاتصالية أدوات اساسية ويومية عند الشباب فأصبحت تطبع ممارسته المهنية والثقافية والترفيهية.

وقد تباينت الآراء حول تقييم تأثير الثورة الاتصالية ما بين الايجابي من المدافعين عن الاستثمار العربي في عالم صناعة التلفزيون والصناعات الترفيهية حيث يرى هؤلاء أن هذه القنوات تلبي كثيرا من حاجيات المواطن إلى المعرفة وتتيح تعددية الآراء وتدعم حرية التعبير وتلغي كثيرا من المحاذير وتسهم في الكشف عن الحقائق وتقاوم الفساد . . . وفي المقابل يرى البعض الآخر أن الفضائيات أدّت إلى تدهور مستوى الذوق العام الثقافي ورسخت ظاهرة اللامبالاة وأسهمت في الانهيار الأخلاقي العام وفي تسطيح القضايا الحيوية وتكريس الخلافات والشقاق العربي وقد حدت من التفكير المنطقي والابتكار والتجديد وساهمت في تدني لغة الخطاب والحوار نتيجة انتشار العامية فيها بل وأحيانا السوقية والتي لا تقف عند عنصر اللغة بل تمتد إلى عنصر الصورة. . . (4).

لقد نبه المختصون في مجالات علمي الاجتماع والتربية إلى مخاطر الاستقالة الشبابية من الشأن العام. فبقدر ما أدت التحولات العالمية الحديثة إلى انعكاسات على بنية

شخصية الفرد في مستوى مظاهر الانفتاح وما يوحي به من إتاحة فرص التفاعل، بفضل ما تيسره التقنيات الحديثة من فرص التبادل والتعارف والمشاركة، بقدر ما برزت لدى أوساط عديدة مظاهر الانعزالية والأنانية والفردانية. وقد أكد المختصون في الشأن الشبابي أن هذه الإمكانات المادية والتقنية والمعلوماتية لن تكون ذات فائدة على مشاركة الشباب إن لم ترفد ببرامج ومخططات في التوجيه والتكوين والتربية على المشاركة.

تشير الدراسات العلمية أن وسائل الإعلام تستطيع أن تلعب أدوارا هامة في مسار التربية على المواطنة والتنشئة على المشاركة في الشأن العام و بناء مرجعيات حداثية.

وهي أدوار ووظائف يفترض أن توجه إلى قطاعات واسعة من الشباب الذي أصبح يعيش صعوبات تجسدها مظاهر الحيرة والتردد في أحسن الأحوال ومظاهر الاستقالة والانسحاب والعزوف في أسوأ الأحوال.

1 ـ 4 أهم مجالات المشاركة الشبابية :

يمكن اعتبار أن موضوع مشاركة الشباب من أهم المجالات الحساسة والمؤثرة في وضع السياسات الشبابية وخاصة في وضع الاستراتيجيات والخطط المستقبلية.

فالمشاركة في الشأن العام عملية معقدة لأنها ترتبط بجملة من المعايير الكيفية أكثر من ارتباطها بالقياس الكمي. وهي كذلك مرتبطة بالتنشئة الاجتماعية والثقافة والقيم السائدة في لمجتمع، وكلّ ما يكوّن ملامح شخصية الفرد وتوجهاته.

كما أن المشاركة تتأثّر بعوامل التبدل المستمر والتغيير الدائم في اتخاذ المواقف وفي تشكيل الاتجاهات. لكنها في الآن ذاته تعتبر مؤشرا هاما لقياس عناصر اندماج وتلاؤم الأفراد مع النسيج الاجتماعي الذي يعيشون فيه، ولذلك شغل موضوع المشاركة بال المربين والمخططين والمصلحين والسياسيين لما له من تأثير في إنجاح المخططات التنموية.

لهذه الأسباب حظيت المشاركة الشبابية بعناية خاصة في السياسات والبرامج التونسية المتعلقة بالشباب. فمنذ التغيير وفي إطار المصالحة الوطنية الشاملة وقع التركيز على دور الشباب في التنمية وفي إحداث التغيير عن طريق تشريكه في الشأن العام وفق منظومة متماسكة من المبادرات والإجراءات التي اتخذتها الدولة كالمصالحة مع الهوية واعتماد الحوار والاستشارة مبدءا راسخا ومنهجا سائرا لتكريس الخيار التشاركي الذي هو جزء من الخيار الديمقراطي وقد اتخذ هذا التوجه أشكالا عديدة تتلخص في العناصر التالية :

1-4-1 مشاركة الشباب في الحياة السياسية والمدنية [المثال التونسي] :

تميزت الحياة السياسية والمدنية في تونس خلال العقدين الماضيين بالتطور الملحوظ، وتدل على ذلك مجموعة من البرامج والسياسات التي أفضت إلى إجراءات عملية تمثلت في تطوير التشريعات المرتبطة بمشاركة الشباب في الشأن العام ونشر الثقافة السياسية المدنية لدى الناشئة والعمل على ترسيخ قيم المواطنة الإيجابية لديها. ومن أهم هذه الانجازات التي تحققت للشباب التونسي خلال العقدين الماضيين **التخفيض في الحد الأدنى لسن المقترعين وتمكين الشباب من عديد آليات المشاركة في الشأن العام كتنظيم الاستشارات الشبابية وإنشاء المرصد الوطني** للشباب وبعث الجمعيات **الشبابية وتوسيع فضاءات دور الشباب ودور الثقافة وتطوير وظائفها وإثراء مضامينها.**

ورغم هذه الإصلاحات الهامة والإجراءات الرائدة فإن انخراط الشباب التونسي في الشأن العام، وخاصة في الحياة السياسية والمدنية بقي متواضعا ومحدودا وهي ظاهرة عالمية لا تنفك تشغل بال المختصين في الشأن الشبابي، ومن مظاهرها :

- ضعف انخراط الشباب في الانتخابات بمختلف أنواعها.
- ضعف انخراط الشباب في هياكل المجتمع المدني من أحزاب ونقابات ومنظمات وجمعيات.
- ضعف متابعة الشباب للشأن العام في وسائل الإعلام.

ويبدو أن كثرة المتدخلين عن طريق وسائل الاتصال والإعلام والتربية والترفيه والتثقيف التي اتسمت تدخلاتها بالسرعة والكثافة قد أحدثت اضطرابا في أشكال ومظاهر الانتماء لدى الشباب، وهي ظاهرة عالمية ارتبطت بعصر ثورة الاتصالات الحديثة. كما أدّت تلك الأسباب حسب المختصين في التربية إلى حصول ارتباك وتوتر في عملية المشاركة يجسدها الاندفاع إلى الانخراط الفوضوي أو الاندفاع غير المحسوب في مشاركات غير سوية... الخ.

1-4-2 الشباب والمشاركة في النشاطات الثقافية :

تميزت الحياة الثقافية في تونس خلال العقدين الماضيين بالحركية والكثافة بفضل المجهودات التي بذلت في مجال العناية بالإبداع والمبدعين وبالتنشيط الثقافي ودعم المهرجانات والمطالعة وحماية الكتاب ورعاية الفنون بمختلف مجالاتها ونشرها، فضلا عن تطوير البنية الأساسية للثقافة وتطوير منظومة التشريعات المرتبطة بها. وقد انعكس ذلك على الشباب باعتباره أهم المتفاعلين مع الشأن الثقافي والمستهلكين لمنتوجه.

وبالرغم من تنامي عدد دور الشباب والثقافة وارتفاع عدد منخرطيها نسبيا وتعصير تجهيزاتها وربطها بشبكات اتصالية متطورة فإن عديد التحديات لا تزال تعطل من وتيرة المشاركة في الشأن الثقافي والترفيهي لدى الشباب التونسي.

ويمكن تلخيص أهم العوامل والأسباب في النقاط التالية :

- طغيان الممارسات الثقافية والترفيهية ذات الطابع الاستهلاكي كارتياد المقاهي والإدمان على مشاهدة القنوات الفضائية.
- افتقار عديد المناطق الريفية والداخلية إلى فضاء لممارسة الأنشطة الثقافية والترفيهية.
- ضعف إقبال الشباب على الأنشطة المنظمة في أطر شبابية جمعياتية.
- عزوف الشباب على المطالعة مقابل كثافة المادة التعليمية واستفحال ظاهرة الدروس الخصوصية.

حينما يلعب الإعلام أدوارا متقدمة تجاه تشريك الشباب فإن ذلك سيساعد في النهوض بأحوال الشباب وتحفيزه على المشاركة الإيجابية في تنمية مجتمعه.

ويمكن تلخيص مبررات الربط بين موضوعي الشباب والإعلام في :

- أن الشباب يمثل الثروة البشرية الأقدر على الإنتاج والمشاركة والاستيعاب والتقبل للقيم والأفكار المرتبطة بالتغيير والتحديات والتنمية الشاملة، وهي الفئة الأكثر تعاملا وتأثرا بوسائل الإعلام وكل ما يرتبط بها من وسائل الاتصال الجديدة.
- لكون الشباب يمثلون النسبة الأكبر من التركيبة السكانية في المجتمع بما يجعلنا نتحدث عن مجتمعات شابة. وتقتضي برامج التنمية تحقيق مشاركة فاعلة لهذه الفئات السكانية العريضة ويتطلب ذلك تخطيطا إعلاميا رشيدا يهدف إلى الإعداد الجيد للشباب وتكوينه وتأهيله وحمايته وتحصينه ضد التيارات الهدامة والاتجاهات العدمية والأفكار النكوصية.
- الحاجة المتنامية في أوساط رعاية الشباب والتخطيط لسياساته إلى اعتماد آليات ملائمة لحركة الإعلام وجعل الشباب ضمن أولويات المؤسسات الإعلامية الحكومية منها والخاصة، الأرضية والفضائية العامة والمتخصصة، المتاحة منها والمشفرة.
- ارتفاع درجة تعرض الفئات الشبابية إلى تأثيرات الظواهر المستحدثة مثل الإعلام الاستهلاكي وخاصة ضمن العالم الافتراضي الذي يستغل حيزا كبيرا من حياة الشباب وخاصة عبر عمليات ما يعرف بالتعلم الاجتماعي والغرس الثقافي والتعلم عن بعد.
- الحاجة إلى احترام المؤسسات الإعلامية البائة خصوصيات الشباب المتنوعة وعدم التعامل معه كفئة متجانسة وهو ما يقتضي احترام الخصائص الاجتماعية والديمغرافية والنفسية والسلوكية لكل من الفئات الشبابية.

وحتى يبقى التفاؤل قائما، يمكن القول إن من إيجابيات طرح موضوع المشاركة الشبابية في الشأن العام وخاصة

عبر وسائل الإعلام ما نلاحظه من إجماع لدى مختلف الأطراف دولا ومنظمات، ومجتمعات مدنية، باحثين ومختصين في العلوم الإنسانية، حول أهمية البحث عن آليات جديدة لدفع عمليات مشاركة الشباب في الشأن العام. وخاصة منها ما يتعلق باستغلال فضاءات ومؤسسات الإعلام والاتصال.

وإنه لمن المؤكد أن هذه الآليات الجديدة سوف تعمل على خلق ظروف جديدة لإقامة تمثيلية حقيقة للشباب، وعلى تثمين العمل الشبابي التطوعي فضلا عن توفير مزيد الفرص أمام الشباب للتعبير والالتزام والعمل البناء.

2 ـ مقاربات العمل الثقافي الموجه للشباب:

2ـ 1 مقدمة :

لدراسة مرجعيات الشباب العربي لا بد من التعرض إلى أهم خصائص هذه الممارسات التي أصبحت لا تغيب عن أعين الباحثين والدارسين والمربين والمنشطين ممن يهتمون بالشأن الشبابي. إنها التأثيرات العميقة التي تتسبب فيها **الثورة الاتصالية** المعاصرة المتسمة **بالشمولية والكثافة** هي أيضا، هذه الثورة الاتصالية مست كل **السواكن الثقافية** وخلخلت جل البنى الاجتماعية وكشفت **المنوعات وتجاوزت الحدود والحميميات**. وأخطر ما في هذه التأثيرات الجديدة وما ظهر في مستوى الهوية الحضارية والثقافية لجمهور الشباب العربي الذي **بدا** لدى **البعض إمعيا** ولدى البعض **الآخر زئبقيا هروبيا** أما عند الآخرين فقد بدا **انطوائيا** أحيانا **ومقاوما** أحيانا قليلة أخرى.

2ـ2 آليــات ومقــاربــات العمــل الثقــــافــي المــوجــه إلى الشبــاب :

ثمة عديد الحوامل التي وجب استخراجها منذ البداية لتبيان مجال العمل ونقطة الاتجاه. ثمة **حوامل اتصالية** جديدة أصبحت تؤثر في شكل ومضمون العلاقة التواصلية في التنشيط والعمل من أجل توجيه الممارسة الثقافية لدى الشباب.

إننا نقصد بالحوامل مجموعة المنظومات الاتصالية وأدواتها **كالأنترنات والاعلامية والهاتف الجوال والفضائيات** وهي العناصر المحركة للعلاقات الاقتصادية والموجهة للسلوكيات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية أكثر من غيرها لأنها في اتصال وثيق بمنظومات **الاعلام والتوجيه والتربية والتنشئة**.

أما **الظواهر** التي باتت تلفت نظر الباحثين وتشغل بالهم فهي كل ما استجد وأصبح موضع أسئلة حول المظاهر والانعكاسات: **مثل ضيق المساحات الزمنية للتنشئة ومحدودية تأثير التكوين الرسمي وتوتر العلاقة بين الأجيال وتوتر الحدود بين المنظومات والقيمية وتوسع دوائر المعلومات وظهور الشبكات الجديدة الخفية وتبدل الوظائف والأدوار في المؤسسات وتكسر أساليب المراقبة التقليدية وظهوردوائر علاقات حميمية جديدة فضلا عن سرعة تبدل و تخلخل مرجعيات الشباب وضعف الالتزام لديه.**

2 ـ 3 مرتكـزات المرجعيـات الثقـافيـة الجديـدة لــدى الشبــاب :

أ ـ النماذج : تقدم لنا العلوم الاجتماعية المختصة في الشأن الثقافي والشبابي ثلاثة نماذج أساسية هي :

1 ـ **النموذج المقلد** وينقسم بدوره إلى **نموذج مقلد للماضي**، وهو ما يطلق عليه النموذج المحافظ أو الماضوي و يتصف بالانغلاق حول الذات واعتماد نماذج في التربية وفي التنشئة توغل في النزعة التقليدية التي لا تواكب ما يجري في المحيط من تطوير وتغيير. ونموذج مقلد للآخر، وهو ما يعتمد على تجارب الآخرين ومقارباتهم ويسقطها على واقعه اعجابا بها أو استسهالا لعملية نقلها، وعادة ما يوصف هذا النموذج بأوصاف سلبية كالانسلاخ والانبهار والاستلاب.

2 ـ **النموذج المجدد** وهو نموذج ثقافي يعتمد على النقد والدراسة والانتقاء في بناء البرامج الثقافية الموجهة إلى الشباب، كما يعتمد هذا النموذج على متابعة الواقع ويتعمق في خصائصه ويستحضر خصوصياته فيعمل على استيعابها وإدراجها في مخططاته.

3ـ**النموذج التواصلي** وهو الذي يعطي الأولوية لعوامل

التغيير مع الوعي بأهمية عوامل الثبات والاستمرارية. وهذا النموذج يجد صعوبة في التوفيق بين عناصر الثقافة الأصلية والأهلية والمحلية وبين عناصر الثقافة الوافدة والدخيلة وخاصة حينما يتعرض إلى توظيف التراث في برامج الثقافة الموجهة إلى الفئات الشبابية.

4ـ2 المفاهيم المستخدمة في العمل الثقافي الموجه إلى الشباب :

لدراسة الممارسات الثقافية لدى الشباب وتشخيص مشكلاتها وللعمل على تأطيرها لتستخدم حقول المعرفة الثقافية والتنشيطية في العلوم الاجتماعية مجموعة من المفاهيم والبرادغمات يمكن تلخيصها في :

- مفهوم الشبكات الثقافية
- مفهوم الاندماج الثقافي
- مفهوم التفاعل الثقافي (مقابل المعاصرة)
- مفهوم التواصل الثقافي
- مفهوم المقاومة الثقافية (الممانعة الثقافية)
- مفهوم الاستقلالية الثقافية(مقابل الأصالة)
- مفهوم الحميمية الثقافية
- مفهوم الانتهاكات الثقافية (مقابل مفهوم الغزو)

هذه المفاهيم تحيل إلى عدة تغيرات حصلت في مشهد التنشئة الاجتماعية والثقافية المعاصرة وهي تقوم أساسا على مبدإ التفاعل ومنهج التواصل فضلا عن انتشار النزعة الاستقلالية والمقاومة موزعة بين الشباب بحسب قوة وحضور المؤسسات المرجعية.

5ـ2 التوجّهات المستقبلية في الممارسات الثقافية الشبابية.

أدت التحولات التي شملت بنية المجتمعات المعاصرة إلى تبدل في التوجهات المستقبلية لقضايا الثقافة الشبابية ويمكن تلخيص هذه التوجهات الجديدة في :

- تقلص الحدود الثقافية وبناء حدود جديدة بين المجموعات الثقافية بفعل تغير أبعاد المسافة والمكان.
- اكتشاف أبعاد وإمكانات ثقافية جديدة وأهمها البعد الاقتصادي للثقافة.
- الاتجاه إلى نزعة النمطية الثقافية بسبب تقلص الفوارق بين الثقافات في مجالات وموضوعات الإبداع وطرق التعبير وأساليبه.
- توسع دور الثقافة الافتراضية وانتشار الممارسات الثقافية عن بعد بما يقلص من كلفة النقل والاتصال واستغلال الفضاء والحضور المادي.
- استفحال ظاهرة التدخل الثقافي كواجهة لأشكال أخرى من التدخل السياسي والاقتصادي والإعلامي في شأن المجتمعات غير المهيمنة.
- هيمنة أنماط الصناعة الثقافية من خلال احتكار صناعة النماذج والمثل عبر النجوم والأبطال الناجحين بتوظيف شامل لمنتجات التكنولوجيا وبسبب هيمنة قوى المال والإعلام على حساب منظومات وقوى الإبداع الثقافي والممارسات الثقافية التلقائية.

3 ـ الشباب والإيديولوجيات :

تلعب الايديولوجيا دورا أساسيا في تشكيل مرجعيات الفرد ذلك أن للأفكار والتصورات التي تغدو عقائد توجه بعض الأفراد بشكل يتجاوز الحسابات العقلية إلى طغيان النزعات العاطفية والحميمية. وقد ساد في العقدين الأخيرين اعتقاد لدى عديد المحللين بنهاية الايديولوجيات جعلهم يفسرون ذلك بانتشار ظواهر العزوف عن العمل السياسي والثقافي وابتعاد الشباب عن المشاركة في الشأن العام.

1ـ3 خصائص الشباب اليوم عالميا :

فرضيات العمل والنقاش :

يمكن بناء عدة فرضيات لتحليل وبحث خصائص الشباب المعاصر وتتلخص في أن :

ـ العالم يعرف صعود قيادات شبابية عالمية جديدة

ـ الاضطراب والاهتزاز أصبح خاصية تميز شخصية الشباب.

- أصبح الشباب أمّعيّا سهل الانقياد وراء القيم المغايرة والمختلفة.

- العزوف عن العمل السياسي واللجوء إلى العنف وهو تعبير عن غضب وشعور بالحرمان.

- وجود مجتمع شبابي مواز يعيش على وتيرة الفايس بوك مقابل وجود فئة شبابية نشيطة في جمعيات غير حكومية ولكنها قليلة العدد. ثمة أيضا شباب يعيش التطرف متأثرا بمحيطه الاجتماعي والثقافي فكل فئة من هذه الفئات تتطلب مشاكلها مواجهة مغايرة ومختلفة.

- المرجعيات الشبابية مرتبطة بالقوى الاجتماعية لكن الواقع يفسر بأن مرجعيات التعبئة افتقدت إلى قوى اجتماعية ملائمة.

3ـ2 أسباب تراجع الإيديولوجيات وبالتالي ضعف تأثير المرجعيات عند الشباب :

- هناك قطيعة ملحوظة بين الشباب والإيديولوجيات.

- هناك أزمات في المشاريع المستندة إلى الإيديولوجيات.

- انتشار مرجعيات جديدة : المرجعية الفردية
- المرجعية الجمعية الدينية أو المدنية.

- وجود صعوبات لدى الأحزاب السياسية في تعبئة الشباب واستقطابه.

- تغير أساليب المشاركة.

- تراجع دور الرموز وتقلص أساليب التعبئة.

- بروز دور المجتمع المدني.

- دور العوامل الديمغرافية في عزوف الشباب عن المشاركة وعن تبني الايديولوجيات.

- الحركات الاجتماعية لم تعد شبابية بالضرورة كما كانت في الماضي.

- ظهور مشاكل هيكلية اجتماعية مثل البطالة أدت إلى انسداد الآفاق عند الشباب وقد أدت صعوبة وجود حلول لها إلى تفاقم الشعور بالخيبة والرغبة في عدم المشاركة.

- لم تعد الأفكار تصنع في الجماعات والهياكل السياسية والثقافية بل أصبحت تصنع في مراكز غير اجتماعية ممولة، ويسوّق لهذه القوى بالمال والعلم دون أن يكون لها الفكر والنظريات التي تفسر العالم وتغيره.

- صعود مجتمع الاستهلاك والتسلية.

- تراجع مصداقية النظم السياسية والمنظمات الدولية والإقليمية.

3ـ3 وقائع وخصائص المرجعيات عند الشباب اليوم :

ملاحظات منهجية: الحركات الشبابية في العالم ليست متجانسة، هناك أوساط شبابية لها التزامات عديدة ومتضاربة فالعالم العربي والعالم الإسلامي يختلفان عن الغرب وهذا يؤدي إلى اختلافات منها الاختلاف في الانتماء وفي مفهوم الهوية التي يبنى عليها البعد الايديولوجي.

كما أن الانتماء عند الشباب العربي لا يزال في غالبيته يأخذ بعدا إيديولوجيا ذا طابع سياسي ديني أو ثقافي ديني، وهو شباب في عمومه ما زال متأثرا بفكرة الوطنية. لكن هذه الوطنية لم تعد تحركها محددات سياسية بقدر ما أصبحت تحركها محددات جديدة رياضية أو فنية في غالب الأحيان. وبقدر ما ظهر في عالمنا الجديد من انفتاح فكري واندماج اجتماعي بفضل التحولات التي طرأت على هذا العالم وأدت إليها الثورات السياسية والاجتماعية والاتصالية فقد ظهرت في هذا العالم بؤر كثيرة تدل على الانغلاق والانعزال وقد أصاب ذلك صفوف فئات عديدة من الشباب.

وفي العديد من مناطق العالم تستمر حركات الشباب في التأثر بالقضايا السياسية والوطنية التي تعرفها مجتمعاته، وهي «القضايا العالقة» وأهمها في المنطقة العربية القضية الفلسطينية بسبب استمرار الاحتلال الصهيوني.

ومن المناطق النموذجية العالمية التي لا يزال الشباب فيها متأثرا بانعكاسات مرحلة التمييز العنصري شباب جنوب إفريقيا الذي لا تزال تنهشه ظواهر العنف والتمرد

بفعل ما رسخته تلك المراحل العصبية من الفوارق المجحفة بين مكونات المجتمع الجنوب الإفريقي.

وعموما فالمرجعيات الشبابية تتأثر عادة بما يتاح لهذا الشباب من مواد وأدوات ومراجع ومنشورات ودروس تحمل أفكارا وقيما وتوجهات تغذي هذه الايدولوجيا أو تلك، ولذلك فالمؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية تلعب أدوارا هامة في وتيرة انتشار المرجعيات في صفوف الشباب.

وعموما ما مدى مصداقية القول بنهاية الايدولوجيا وانتهاء الصراع الايديولوجي ؟

لا بد للدارسين أن ينتبهوا قبل وضع أحكام صارمة إلى جوانب هامة في الموضوع.

إن الايدولوجيا لا تموت لأنها فكرة تتنقل عبر الزمان والمكان تحملها المنشورات مثلما تحملها الرؤوس كما أن الايدولوجيا تأخذ لبوسات مختلفة وقد تظهر في سياقات مختلفة والايديولوجيات كالبحار تعرف المد والجزر.

لكن المطلوب هو دراسة أشكال تنشئة وتأطير الشباب في علاقة بأزمة المشاركة، فكيف يتم التعامل مع الشباب؟ وكيف السبيل إلى جعل الشباب يتبنى قيما وطنية ؟ كيف تتم عملية تشريك الشباب في الشأن العام ؟ تلك هي الأسئلة التي تستحق التعميق والإجابة الصريحة والمتأنية حتى يتم رصد المرجعيات وبناء تنشئة متوازنة في مسار مثاقفة الشباب.

الهوامش والإحالات

1) ثمة عديد الدراسات في هذا الشأن مثل أطروحة الدكتور المنجي الزيدي حول الشباب ومؤلفه حول «الدخول إلى الحياة».

*) ودراسة الأساتذة صلاح الدين بن فرج وعماد المليتي ودرة محوظ ورضا بن عمر حول ديناميات الهوية والتخوم الثقافية لدى الشباب ـ أعمال ندوة الحامامات 2007 طبع اليونسيف.

كما أنجز المرصد الوطني للشباب عديد الدراسات مثل : الممارسات الثقافية المستحدثة لدى الشباب (نجيب بوطالب -المنجي الزيدي 2006) و: ظاهرة العنف اللفظي لدى الشباب التونسي (بوطالب الزيدي المبروك) والاستشارات الوطنية للشباب وخاصة (الاستشارة الشبابية الثالثة - تونس 2005)...

2) الهادي عيسى، حسونة الشابي - الشباب والعزوف عن العمل السياسي « ورقة مخطوطة ضمن أعمال ندوة فكرية».

3) سنيم بن عبد الله - «الشباب والمشاركة» ـ ورقة مخطوطة - 2007 ـ.

4) د. منى سعيد الحديدي . مسؤوليات الإعلام العربي تجاه الشباب ضمن أعمال ندوة «الشباب والمستقبل» تونس 2010.

الشّباب بيْن المرجعيّة الحضاريّة والإيديولوجيات

أبو القاسم العليوي (*)

دَرَجَ المتخصّصون في الدّراسات الحضاريّة والسّوسيولوجيّة، والمهتمّون بالفكر السّياسي، خاصّة، على إطلاق مصطلح «المرجعيّة» للدّلالة على الأهمّ الأنفس ممّا تراكم من نتائج التّجارب المتعاقبة، المتوالدة، التي يتبدّى فيها، قويّا، بليغًا، اتّفاق الأجيال المتعاقبة على إعلاء منزلة ما اشتركت في التمسّك به من مجموع القيم، والمبادئ، والتّصوّرات والأنظار التي أضحت عندها جميعًا فوْق أسباب الاختلاف والتّباين المشروعيْن في الأحكام والمواقف.

فالذي يُقصَد، عادة، بهذا اللّفظ المتواتر استعماله، في الفكر المعاصر خاصّة، إنّما يتمثّل، في الأغلب الأعمّ من السّياقات، في ما يشكّل سَدَى التّلاحم والتكامل بيْن الأجيال، وقُوَى المجتمع، وقِوَامَ المؤسّسات والهياكل والدّواليب السّاهرة على تدبير شؤونه، وتنظيم العلاقات بيْن أفراده على النّحو الذي يضمن عُلويّة المصلحة العامّة، بما هي غايتُهم الجماعيّة التي تهون بإزائها المصالح الفرديّة، والفئويّة، وتغيب تأثيرات الفروق النّاجمة عن ضروب الانتماء إمّا إلى جيل، أو إلى جماعة، أو إلى ثقافة، أو إلى حزب، أوْ إلى أيّ قطب آخر من شأنه أن يستهويَ النّفوس، إلى حَدٍّ دفعها إلى الحَمِيّة التي بها بذل قُصَارى الطّاقة انتصارًا له، دونما انتظار لجزاء، في العاجل أو الآجل.

وبهذا الاعتبار، يصحّ عَدُّ «المرجعيّة» القَاعدة القيميّة الصّلبة التي ينهض عليْها بناء شخصيّة الفَرْد، ويقوم توازن الاجتماع، وتستقيم سَيْرُورته، في كَنَف الحرص على التّوفيق البَصير اللازم بيْن الفرديّ والمشترك، والخُصوصيّ والكَوْنيّ، والماديّ والرّوحيّ، والمقدّس والزّمنيّ، والأصل والعصر.

ولئن اتّسع مشروع تعريف هذا المفهوم المركّب، على هذا النّحو الذي هو، بلا ريْب، بعيد عن الكمال، خاضِع للنّقاش، محتاج إلى التّعديل والإضافة، للبعض من مكوّنات مفهوم «الهُويّة»، كما هو الشّأن، مثلا، بالنّسبة إلى الثّوابت العَقديّة والثقافيّة، أو للبعض ممّا يوحي به مفهوم آخر، هو مفهوم «الايديولوجيا» كشدّة الاعتصام بالعقيدة الفكريّة، وبشدّة الحرص على تغليب الاختيار المذهبيّ، فإنّ واجب السّعي إلى التّمييز بيْن هذه المفاهيم المتباينة يقتضي التّنبيه إلى أنّ «المرجعيّة»

*) جامعي، تونس

أوسَع معنًى، وأدْعى إلى الانشغال بردّ الأفعال، وردود الأفعال إلى الأصول المرجعيّة التي تسدّ مَسَدّ المحكّ التي تُعرض عليه اتّجاهات السّلوك، وأنماطه، لاكتناه طبيعتها، والتّمييز بيْن السّويّ منها، وغيْر السّويّ، أيْ بيْن ما تستوجبه شروط التكيّف الاجتماعي، بأبعاده القيميّة، والاجتماعيّة، وبيْن ما يُنَافي المطلوب والمستساغ من قبل المجتمع، حضارةً، وثقافةً، ومنهج حياة.

*

* *

وبيْن بعض المرجعيّات، وكافّة الايديولوجيات صراع محتدم هيْكليّ، وإنْ ظلّ، أحيانًا، في طوْر الكُمُون، أو في حال السّريّة التي تجعله غيْرَ مُعْلَن، خَفِيّ الانعكاسات والعواقب، في الحال والمآل.

ولكن ليْس كمنهج الحوار، وثقافة التفتّح، وروح التّسامح نجاعةً ومضاءً في تخطي مُسبّبات التوتّر والجفاء والعداء بيْن المنتمين إلى مختلف المرجعيّات الفكريّة والحضاريّة، والايديولوجيات السّياسيّة، إذْ بها وحدها تتحقّق فوْقيّة القيم المتعالية عن كلّ صنوف التّغاير والاختلاف في الآراء، والخيارات، والاختيارات، والمواقف، ويكون التّوْق إلى ما هو إنسانيّ سبيل الجميع إلى تغليب ما يجمع على ما يفرّق، وما ينفع على ما يضرّ، وإلى الإسهام في تجسيد المثل العليا المشتركة في الزّمان والمكان، خدمة للإنسانيّة جمعاء، بغضّ النّظر عن كلّ الاعتبارات المتّصلة بالعِرق، أو الدّين، أو القَوْم، أو المذْهب، أو الاصطفاف السّياسيّ، أو بغيْر ذلك من الاعتبارات.

وفي التطوّر السّريع العجيب الذي تشهده وسائل الإعلام، وفنون الدّعاية، وآلياتها، وطرائق التّرويج للأفكار، وأساليب «تسويق» النّظريات والقناعات، سواءٌ أكانت فكريّة لا أثَرَ فيها يُذكَر للمَيْل الايديولوجي، أو إيديولوجيّة خالصة، لا صلة لها البتّة بالفكر الحقّ، ما يجعل التّنافس بيْن المدارس المذهبيّة أوْسع مدًى، وتأثيرات ذلك على العلاقات بيْن أجيال المجتمع الواحد، وشرائحه، وبيْن مجتمع وآخر، أقوى، وأعمق، وأدعى، بالتّابع، إلى التوقّي الواعي، الواجب من نزعات الغزو الايديولوجي، والاستلاب الثّقافي، والمسخ الحضاريّ، و«غسل الأدمغة». فهي نزعات تستهدف سلب الارادات، وتوسيع مجال عائلة إيديولودجيّة معيّنة، وتعزيز إشعاعها في محيطها القريب أوّلا، وفي محيطها البعيد ثانيًا.

ويكون ذلك بادّعاء كلّ إديولوجيا احتكارالحقيقة، والتّشكيك في صدقيّة الإديولوجيات الأخرى التي تُعتَبَر عندها ضدًا مضادًا، تتعيّن مقاومته للإستئثار بالجمهور المقصود.

ولمّا كان الشّباب أمَلَ كلّ مجتمع، وأهمّ قُواه، لحماستهم الجيّاشة، ومثاليّتهم العَارمة، وحاجتهم المشروعة إلى ما ينير سبيلهم إلى الذّات، والعالم، والعصر، والمستقبل، فإنّ مناهج استقطابهم للانتفاع بقدراتهم المتنامية على العَطاء آخذة في التطوّر باستعمال أحدث الابتكارات العلميّة والتكنولوجيّة، وخاصّة منها ما يتعلّق بآليات الاتّصال، كالوسائل الإعلاميّة، وباعتماد أحدث النّتائج التي أفضت إليها الأبحاث المندرجة في نطاق علم نفس المراهق، وعلم النّفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع التربوي، وعلم الاجتماع السّياسي، و منهجيّة تنشيط المجموعات، وغيْرها.

فمرحلة الشّباب تتّسع، كما لا يخفى، للمراهقة بما هي ظاهرة فزيُولوجيّة، ونفسيّة بالغة التّعقيد، أبرز سماتها الحيْرة النّاجمة عن إرادة تأكيد الذّات، وبناء الشّخصيّة، وصقل طرافتها المميّزة. وهي تشمل، زيادة على ما يتّصل بهذه الظّاهرة من أسباب التوتّر الذّاتي، والتأزّم، ورفض السّائد، والثّورة، أحيانًا، على الواقع المعيش، والهُيام بالمنشود الذي قد لا يُدرَك أبدًا، وعيَ مسؤوليات الانخراط الفاعل في الحياة الجماعيّة، بأبعادها الثّقافية والاجتماعيّة والاقتصاديّة، ومقتضيات المشاركة في إدارة الشّأن العام، والتكيّف الخصب داخل المحيط الوطني، بكلّ مستوياته، ومع ما يجري خارجه ممّا له صلة، مباشرة أو غيْر مباشرة، بأحواله، وظروفه، ومخطّطاته، وتطلّعاته الإنمائيّة، والسّياسيّة.

فهي مرحلة التّساؤل الخطير عن معنى الوجود، وآفاق الممكن، وحدوده. كما هي مرحلة البحث المشروع عن سُبُل الطّمأنينة المرجوّة، والإشعاع المبتغى اللّذيْن يكون بهما تفاعل الشّباب مع غيْرهم، والاعتراف لهم من قبل من هم أكبر سنّا بحقّهم في الاهتمام براهن مجتمعهم، وبما يصبو إلى تحقيقه من غايات في المستقبل القريب، والمستقبل البعيد.

وإلى الأهمّية الرّاجعة إلى فتوّة الشّباب، وهي نوعيّة بالأساس، تنضاف، في البلاد النّامية خاصّة، أهمّية أخرى، كمّية، تتبدّى في ارتفاع نسبتهم في الهَرَم السّكاني، ممّا يجعل الانشغال بتأطيرهم من أوْكد أولويّات الأحزاب، والمنظّمات، وسائر هياكل المجتمع المدنيّ، كالجمعيات، والنّوادي، وغيْرها، بغيّة استمالة أوْفر عدد منهم إلى صفوفها، لتكون- في عهد التعدّدية التي أضحت من أبرز مظاهر الحداثة السّياسيّة- أعمق تأثيرًا في رَسم خطط التحوّلات الاجتماعيّة المتوالية، والحاصلة بالتّنميّة الثّقافيّة والاقتصاديّة المسايرة، في أهدافها، ومناهجها لتغيّر المعطيات الموضوعيّة، وتبدّل الظّروف، وتعاظم الطّموحات، والتّحدّيات.

*

* *

وتحليل التّجارب السّياسيّة المختلفة، من حيْث مرجعيّاتها، ومضامينها وأهدافها الايديولوجيّة، يدلّ، بوضوح، رغم تباعد بعضها في الزّمان والمكان، على أنّ تحصين الشّباب من عوامل الانبتات، ودواعي الانبهار بالنّماذج الدّخيلة المغرية في ظاهرها، وأسباب الانسياق وراء ضروب «الموضة»، في السّلوك الفكريّ والاجتماعيّ، وفي التوجّه السّياسيّ، شَرْطٌ لازم، بل أكيد، لضمان التقدّم في كَنَف الثبات والتّوازن، أي لتحقيق الرقيّ الحضاري الذي يبتغيه كُلّ مجتمع، على أساس من الحرص الواجب على التمسّك بثوابته الحضاريّة الممثّلة لمرجعيّته التي تصمد أمام تغيّر الايديولجويات، وتبدّل المناهج المعتمدة في الفعل السّياسي، بتبدّل الظّروف، أو المقاصد، أو الإمكانات.

فالانتقال من مرتبة في التقدّم إلى مرتبة أعلى منها لا يكون بغيْر وعي الحاجة إلى تلك المرجعيّة التي لا توازن في الحياة الفردية والحياة الجماعيّة إلاّ بها.

وبالارتكان إلى هذه المرجعيّة تتمّ قراءة الواقع، أي تحليل خصوصياته، بما يتيح تخطّيه نحو الأفضل المنشود، في كنف الاعتصام بأركان الذّات الحضاريّة، وهي مكوّنات الهُويّة، ومنظومة القيم العليا، الخالدة، المتّصلة بها، ووفق الاعتدال الذي يقي من مغبّات الميل المقصود أو غير المقصود إلى تغليب الجانب الرّوحي على الجانب المادّي، أو العكس، أو إلى الانشغال عن قضايا الحاضر والمصير بصور الماضي، وملابساته، وما صيغ فيه من أحكام وفتاوى أضحى بعضُها غير ملائم للرّاهن، ولمستلزمات الانخراط في مسيرة الحداثة غير المنقطعة عن جذور الذّات.

ومن صميم الرّسالة التربويّة التي تضطلع بها مؤسّسات التّنشئة والتّكوين والإحاطة، من الأسرة، إلى هياكل التّعليم المدرسي، وبُنَى المجتمع المدنيّ، وأجهزته، كوسائل الإعلام والتّثقيف، إلى التّنظيمات السّياسيّة المتمثّلة في الأحزاب المعترف بها قانونًا، صوْن فئة الشّباب، ذكورًا وإناثًا، متعلّمين، وغيْر متعلّمين، في الأوساط الحضريّة والريفيّة، على حدّ سواء، وفي المهاجر، من نزعات التطرّف المقيت الخطير، بكلّ علله وألوانه. يكون ذلك، بالطّبع، بالتّربية القويمة، في أوْسع معانيها.

وأساس هذه التربيّة الأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة إنّما يكمن في القيم المنحدرة من مرجعيّتهم التي تجمعهم بالأجيال السّابقة، وتصلهم بالأجيال اللاّحقة، في العمل المتوالي الأطوار، الدّائب، دونما انقطاع، والهادف إلى ردّ تطلّعات المجتمع، وأشواقه، إلى واقع جديد أمثل، يستعيض به واقعه الماثل.

فلئن كانت الايديولوجيات المندرجة في أقصى اليمين، أو في أقصى اليسار، وهذه الأخيرة هي اليوم

أقلّ عددًا، وأضعف تأثيرًا، منذ سقوط جدار برلين، نُظمَ تفكير مغلق على ذاته، مُكْتَفٍ بها، لا يحتمل الإضافة، ويضيق بالنّقد، ويروم التّغرير بالشّباب، بإيهامهم بامتلاك الحقائق واحتكار الحلول، وتلهيّتهم بالشّعارات التي لا طائل من ورائها، ولا نفع منها ؛ فإنّ المرجعيّة الحضاريّة التي تمثّل ثوابت الهُويّة ركنَها الأمتن، هي التي تحميهم من الأهواء التي تعمي البَصَر والبصيرة معًا، وتحبسهم في أفلاك الغلواء الجامحة، والضّلال البعيد.

والإيديولوجيات شتّى، متغيّرة، متلاطمة كالأمواج العاتية، ولكنّ المرجعيّة الحضاريّة واحدة، ثابتة، بالنّسبة إلى شباب كلّ بَلد. ونجاحُ هؤلاء في اكتناه مقاصد كلّ إيدولوجيا مرتهنٌ بمدى قدرتهم على التّحليل الصّائب، والتّعليل السّديد، والنّقد الموْضيّ المعمّق. وهذه القدرة تُنمّى بالتّربية الرّشيدة، والتخريج القويم، وتُزكّى بالتّوعيّة الصحيحة التي تتكامل فيها أدوار كلّ الهياكل والمؤسّسات المعنيّة، بصورة أو بأخرى، برعاية الشّباب، وتثبيت القيم.

فبتجذير الشّباب في مرجعيّتهم الحضارية والمدنيّة، يستقيم تحصينهم بإزاء النّزعات الإيديولوجيّة التي قد تتقاذفهم من أقصى طرف في اليمين إلى أقصى طرف في اليسار، فإذا هم بمناى عن الوسط العدل الذي يكون به القَوام في الأفعال، والأحكام، ويتأكد مضاء الفكر النّقدي في تقييم الرّؤى، ومعالجة النّوازل، واستنباط أصحّ الحلول التي تتطلّبها قضايا الفرد والمجتمع.

والحرصُ على إنماء الفكر النّقديّ الذي به تقصّي الحقيقة، باعتبار مقاييس الموضوعيّة، ومعايير النّسبيّة، لا يخرج، في المراس السّياسيّ الحديث، عن دوْر الأحزاب التي من وظائفها صقلُ الرّوح المدنيّة في المنتمين إلى قواعدها، وتأسيس خططها المتعلقة بالتّكوين والتّعبئة على قدْر لازم من الوعي السّياسي الذي يُنمّى، باستمرار، بالتكوين المستمرّ، والإعلام المنتظم.

وصحافة الأحزاب، ومراكز البحوث التّابعة لها، وسائر هياكلها المعنيّة بالتّأطير، مسؤولة، أكثر من أيّ وقت مضى، في هذا العصر الذي يشهد مظاهر متوالدة من الانفجار الإعلاميّ غيْر المسبوق، عَلَى صوْن الشّباب من المنخرطين فيها من أخطار الرُّؤى والتيّارات الإيديولوجيّة، التي تزرع بذور الكراهية، والعنصريّة، وتدعو إلى التعصّب و التحجّر، ورفض الآخر المغاير، والتي أتاحت لها وسائل الاتّصال الجديدة، وبخاصّة منها الفضائيات، والأنترنت، سُرعة الرّواج، على مدى وَاسع حقّا.

وليْس أصلح، ولا أجدى من الخطاب السّياسي الرّشيد المرشِّد الذي يخاطب العَقل، ويصدر عن المرجعيّة القيميّة، لدحض الشّبُهات والأباطيل التي تعمد بعض الايديولوجيات المتطرّفة إلى نشرها في صفوف الشّباب تلبيسًا، وتغريرًا، وتلهيّة عن واجبات المشاركة المسؤولة في دفع مسيرة المجتمع نحو المزيد من المناعة، والسّؤدد، والرّفاه.

*

* *

واقتدار التّنظيمات السّياسيّة على الإسهام النّاجع في تجذير الأجيال الطّالعة في مرجعيّتها الحضارية مرتهنٌ، بلا ريب، بمدى نجاحها في صياغة خطاب العقلانيّة، والواقعيّة المرتكز إلى القيم الرّوحية، والحضارية، والمدنيّة، بما هي نُسغُ التّجارب المتوالية، ومنبعُ عبقرية المشاركين في خوضها ضماناً للقَوام بين القُدْسيّ والزّمنيّ، وبيْن الهويّة والحداثة.

وفلسفة التّغيير التي أراد لها سيادة الرئيس زين العابدين بن علي أن تقوم على هذه المرجعيّة الخالدة تمثّل خيْر درع واقية من الزّيْغ عن نهج الاعتدال، وعن موقف التوفيق البصير بيْن الثّابت والمتحوّل.

وبهذه الفلسفة النيّرة التي يتكامل فيها البعدان الرّوحي والمادّي كأحسن ما يكون التّكامل، تعزّزت مرجعيّتنا الحضاريّة، وزاد ألقُها، وأضحت مَهْوى أفئدة شبابنا الذّين لا يساوي توْقهم إلى التفتّح والرّقيّ غيْرُ اعتزازهم بشخصيّتهم الحضاريّة، ووفائهم لأصولها، وولائهم لوطنهم الذي ينزّلون حبّه منزلة الواجب المستطاب، والحقّ المرعيّ الذي لا تفريط فيه، ولا بديل عنه.

اللّغــة وهـويّــة الشّبــاب
في ميزان العلوم الاجتماعيّة

محمود الذوادي (*)

أهميـة دراسـة هـويّـة الشّبـاب :

يمثل الشباب جزءًا من المجتمع. ومن ثم، فالبحث في فئة الشباب المتراوحة أعمارها بين 15 و29 سنة يحتاج إلى معرفة معالم المجتمع الذي تنتمي إليه الشريحة الشبابية. وعلى هذا الأساس تأتي مشروعية تحليل ظاهرة هوية الشباب بمنظور العلوم الاجتماعية. وبالتحديد، فموضوع مقالنا هو الهوية الجماعية للشباب بالمجتمع التونسي، وهوما لاتكاد تطرحه الكتابات الصحفية وتحليلات أهل الرأي في العلوم الاجتماعية بالمجتمع التونسي (الزيدي 2005 وJeune Afrique (2010, L'Expression 2008.

ولهذا الصمت أسباب متعددة أدت/تؤدي إلى الإهمال الكامل أوإلى تهميش الحديث عن هوية الشباب التونسي في تونس المستقلة. إن أهمية دراسة وفهم مسألة هوية الشباب التونسي تسحب البساط من تحت أقدام من يعطون لذلك الصمت مشروعيته الظرفية المصلحية. إذ إن إلقاء الضوء على هوية الشباب التونسي هو **استشراف استراتيجي** لمستقبل الشعب التونسي. فالتفكير والتخطيط لمستقبل المجتمعات هما علامتان بارزتان للشعوب المتقدمة في عصر العولمة.

محـدّدات الهـويّــة الجمـاعية :

تطرقنا في أحد كتبنا إلى محددات الهويات الجماعية في المجتمعات البشرية، فوجدنا أن هناك خمسة عوامل رئيسية قادرة على تحديد معالم الهوية الجماعية للمجموعات والمجتمعات البشرية. فهذه المحددات هي العرق واللغة والديـن والأرض والـدولـة [الذوادي 2006 أ: 21]. ويعتبر عـالم الاجتمـاع بيتـر كيفستـو Peter Kivisto (Kivisto 2002 :14) أن **اللغة والدين** هما أهم المحددات الخمسة في تشكيل الهوية الجماعية. وهذا ليس بالأمرالغريب في منظورنا للرموزالثقافية الذي يرى أن الجنس البشري هو في المقام الأول جنس رموزي ثقافي ينفرد عن سواه **بالرموز الثقافية** التالية: اللغة المنطوقة والمكتوبة، الفكر، الدين، المعرفة/العلم،

*) جامعي، تونس

الأساطير، القيم والمعايير الثقافية. وبعبارة أخرى، فالإنسان عندنا هو كائن رموزي ثقافي بالطبع قبل أن يكون اجتماعيا بالطبع [الذوادي 2006ب]. ونظرا لأهمية عاملي اللغة والدين في تحديد الهوية الجماعية لبني البشر، فإننا نقتصرفي هذه المقالة على دراسة أثرعامل اللغة في تحديد معالم الهوية الجماعية للشباب التونسي اليوم. وقبل أن نسبرآثارعامل اللغة على رسم هوية المجموعات والمجتمعات البشرية، دعنا نتعرف نظريا على مركزية اللغة في منظومة الرموزالثقافية/ الثقافة لدى المجتمعات والشعوب والأمم على مرالعصور.

اللغة أمّ الرموز الثقافية جميعا :

فعند التساؤل الايبستيمولوجي عن أهم عنصر في منظومة الرموز الثقافيةالذي يؤدي إلى ميلاد هذه المنظومة المميزة للجنس البشري، فإن اللغة البشرية المكتوبة والمنطوقة تكون هي وحدها المؤهلة لبروز منظومة الرموز الثقافية. فلا يمكن، مثلا، تخيل وجود بقية عناصرالرموز الثقافية كالدين والعلم والفكر بدون حضور اللغة البشرية المنطوقة على الأقل. ومنه، جاءت مشروعية اعتبارنا أن اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا. ونظرا لمركزية اللغة المنطوقة والمكتوبة في نشأة منظومة الرموز الثقافية، فإن وصف الإنسان بأنه حيوان ناطق وصف مشروع جدا لأن أكثر ما يميز الجنس البشري عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموزالثقافية هي اللغة المنطوقة والمكتوبة. وهكذا يتجلى أن الاهتمام في هذه المقالة بدراسة المسألة اللغوية في تحديد هوية الشباب التونسي ليس بالترف الفكري. فمن جهة، فاللغة كما رأينا هي محدد بالغ الأهمية في هندسة هوية الناس. ومن جهة ثانية، فاللغة هي العنصر المركزي الأم الذي يؤدي إلى ميلاد وتطوروتضج ثقافاتهم المتنوعة. ولنضرب الآن مثلا ميدانيا من المجتمع الكندي على أهمية اللغات في تحديد الهويات الجماعية.

الازدواجية اللّغوية ومشكل الهوية الجماعية الكندية :

ترجع التحاليل للعلاقات المتوترة والصاخبة أحيانا بين مقاطعة كيباك، من ناحية، والمقاطعات الكندية الأخرى والحكومة المركزية (الفيدرالية) من ناحية أخرى، إلى الاختلافات اللغوية الثقافية بين الطرفين: أي الكنديين المتحدثين بالانكليزية والكنديين الناطقين بالفرنسية. نقتصر هنا على ملاحظات عالمي الاجتماع الكنديين المشهورين وبعض الكتابات الأخرى التي تسلط الضوء على قضية التعايش المتأزم بين كيباك وكندا بسبب الإزدواجية اللغوية [الإنكليزية والفرنسية]. يرى جون بورتر John Porter عالم الاجتماع الكندي الانكليزي بأن كندا هي بلد منقسم إلى مجموعتين بشريتين كبيرتين تتحدثان لغتين وتمارسان تقاليد وعادات مختلفة الأمر الذي يجعلهما يحافظان على درجة عالية من الاقصاء لبعضهما البعض. ومن جهة أخرى، تتحدث وسائل الاعلام الكندية على ما يسمّى «بظاهرة العزلتين Les Deux Solitudes» بين الكنديين الناطقين بالفرنسية والكنديين المتحدثين بالانكليزية بمدينة منتريال على الخصوص. فسكان هذه المدينة يقرأون صحفا ومجلات مختلفة، كما أنهم لا يستمعون إلى نفس المحطات الإذاعية ولا يشاهدون نفس القنوات التلفزيونية، ويبدو أنه حتى رجال الأعمال من الطرفين لا يذهبون إلى نفس المطاعم. وهذا يعني أن للمجموعتين أقطاب انتماء ورؤى مختلفة.

ولا تقتصر ظاهرة العزلتين على مدينة منتريال فحسب، بل يمكن ملاحظتها عبر المجتمع الكندي بأكمله وعلى مستويات متعددة. فعلى سبيل المثال، يصف عالم الاجتماع الكيباكي المعروف جي روشاي Guy Rocher ملامح تلك الظاهرة في خطابه الذي ألقاه في 27 ماي 1990 أمام زملائه بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين للجمعية الكندية لعلم الاجتماع وعلم الانثربولوجيا فيقول: إنّ مؤتمرات الجمعية الكندية لعلمي الاجتماع والانثروبولوجيا تشير إلى الحضور الخفيّ لعلماء الاجتماع الكنديين الفرنسيين، وخاصة

المنحدرين من مقاطعة كيباك. وحتى نكون أكثر دقة فهي تشير إلى غيابهم الكبير. إن قراءة المرء لبرامج المؤتمر تجعله يستنتج بأن علم الاجتماع الكيباكي يمر بفترة تدهور منذ 1965 بينما هو يتمتع في الحقيقة بعطاء فكري زاخر. وفي الواقع يمثّل الحضور القليل لعلماء الاجتماع الكيباكيين الناطقين بالفرنسية شرخا عميقا. **فالهوة بين علماء الاجتماع الكنديين المتحدثين بالفرنسية، خاصة الكيباكيين منهم، هي في ازدياد**. لقد وقع بناء جدار من الصمت بيننا يبدو وكأنه أقوى من جدار برلين وأطول عمرا منه. لا يوجد انفصال بيننا ولكن يوجد عوضا عن ذلك افتراق وابتعاد عن بعضنا البعض دون استفتاء. فحسب تشخيص هذين العالمين الكنديين، **فإن اللغة تحدد معالم الهوية الجماعية** مما يسمح بالقول بأنه توجد هويتان جماعيتان بالمجتمع الكندي الكبير: هوية إنكليزية وهوية فرنسية. وينطبق هذا الوضع أيضا على المجتمع البلجيكي المهدد اليوم بالتصدع وربما حصول الانفصال بين البولونيين الناطقين بالفرنسية والفلمنيين المتحدثين باللغة الفلمنية.

العلاقة بين اللّغة العربية والشّباب التونسي:

يعلن دستور الجمهورية التونسية في أول فصوله بأن «تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة، الإسلام دينها والعربية لغتها والجمهورية نظامها». فواضح مما ورد في هذا البند من الدستور التونسي أن القيادة السياسية التونسية الجديدة بعد الإستقلال تقر أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية أو الوطنية للمجتمع التونسي المستقل. أي إنها لغة الهوية الجماعية للشعب التونسي وبالتالي لهوية الشباب التونسي. وحتى تكون اللغة العربية فعلا هي لغة الهوية الجماعية لشباب تونس، لابد من توفربعض المعطيات والقرائن التي تثبت ذلك كما هوالوضع في **البلدان المتقدمة**. تفيد الملاحظات الميدانية اليوم في المجتمعات المتقدمة بأن لغاتها الرسمية/الوطنية تتمتع بين **شبابها** بالمواصفات الرئيسية التالية:

1 - الإستعمال الكامل لها على المستويين الشفوي والكتابي.

2 - الإحترام لها والاعتزاز بها والغيرة عليها والتحمس للدفاع عنها.

3 - معارضة استعمال لغة أجنبية بين شباب تلك المجتمعات.

4 - شعور عفوي قوي لدى الشباب بالأولوية الكبرى التي يجب أن تنفرد بها اللغة الوطنية في الاستعمال في مجتمعاتهم.

5 - إحساس قوي ومراقبة واسعة لديهم لتحاشي إستعمال الكلمات الأجنبية، من ناحية، وسياسات وطنية متواصلة من طرف أصحاب السلطة لترجمة المصطلحات والكلمات الأجنبية الجديدة إلى اللغة الوطنية، من ناحية ثانية.

6 - تمثل اللغة الوطنية العنصر الأبرز لتحديد هويات الشباب في المجتمعات المتقدمة.

تشخيص علاقة الشباب التونسي باللّغة العربية:

إذا تبنينا تلك المؤشرات الستة لقياس موقف الشباب التونسي اليوم إزاء اللغة العربية (لغته الوطنية) لوجدنا أن **موقفه ضعيف** على كل واحد من هذه المؤشرات:

1 - فعلى المستوى **الشفوي**، يمزج الشباب التونسي كثيرا حديثه بكلمات وجمل وعبارات فرنسية حتى أنه يصح وصف **لهجته التونسية** بأنها لا تكاد تكون سوى مزج للعربية بالفرنسية أي **الفرنكوأراب** le franco-arabe في أغلب الأحيان. وربما يجوز القول بأن **أغلبية الشباب التونسي** اليوم تستعمل كلمة فرنسية على الأقل في كل عشر كلمات (1/ 10) من حديثها بالعامية التونسية مع المواطنين التونسيين. فالاستعمال المكثف للفرنسية في اللهجة التونسية (الفرنكو أراب) هو سيد الموقف في حديث الأكثرية الساحقة لشباب تونس في مطلع

القرن الحادي والعشرين. وبتعبير العلوم الاجتماعية، **فالفرونكوأراب** كسلوك لغوي شائع تمثل **النمط اللغوي الاجتماعي** السائد بين الشباب. أي أن حديث الشاب التونسي مع زملائه بلهجة تونسية عربية خالية تماما من أي كلمة فرنسية ينظر إليه **اللاشعوريا** من طرفهم على أنه ضرب من **السلوك اللغوي المنحرف** الذي طالما يقابل بالتعجب والحيرة وحتى التهكم والسخرية.

أما استعمال اللغة العربية على مستوى **الكتابة** بين فئة الشباب فهو لايزال **محدودا** في الأمور الكبيرة والصغيرة على حد سواء. فمعظم الشباب التونسي يكتبون، مثلا، صكوكهم المصرفية باللغة الفرنسية ويقومون أيضا بكتابة إمضاءاتهم بلغة موليار.

2 - تشير اليوم الإستبيانات questionnaires والملاحظات الميدانية المتكررة لسلوكات الشباب التونسي المتعلم بأن **أغلبيتهم الساحقة** لا تكاد تبدي بعفوية وارتياح حماسا واعتزازا باللغة العربية باعتبارها لغتهم الوطنية. ويقترن فقدان الحماس والاعتزاز باللغة العربية عندهم بغياب الموقف القوي المدافع بعفوية والغيور في السر والعلانية على اللغة العربية بينهم و في المجتمع التونسي العريض. وبعبارة أخرى، فلا يكاد يوجد عند الشباب التونسي أكثر من **شعور** فاتر إزاء اللغة العربية التي تعتبر رسميا لغته الوطنية وما يتبع ذلك من أولوية الاحترام والولاء لها قبل أيّ لغة أخرى.

وبالنسبة لعالم الاجتماع الدارس لعلاقة الشباب التونسي باللغة العربية، فإن الملاحظات الميدانية تفيد أن أجيال هؤلاء الشباب المزدوجي اللغة والثقافة أو الأكثر تفرنسا في فترتي الاستعمار والاستقلال هي عموما **أجيال** ضعيفة في موقف الاعتزاز والحماس والشعور بالغيرة للدفاع بعفوية وقوة عن اللغة العربية. وفي المقابل تغلب على موقفهم العام من لغتهم الوطنية/العربية حالة من **اللامبالاة** أو حتى العداوة السافرة عند البعض من ذوي التكوين التعليمي الأكثر تفرنسا على الخصوص.

3 - **لا يعارض** وبالتالي لا يحظر الشباب المتعلمون التونسيون اليوم على أنفسهم استعمال اللغة الفرنسية بينهم في الشؤون الصغيرة والكبيرة التي يقومون بها في مجتمعهم، بل نجد الكثير منهم يرغبون ويفتخرون بذلك.

4 - لا يلاحظ الباحث الاجتماعي اليوم لدى أغلبية هؤلاء الشباب موقفا قويا ومتحمسا ينادي ويعمل فعلا على إعطاء اللغة العربية الأولوية الكبرى في الاستعمال في كل قطاعات المجتمع التونسي بما فيها القطاعات العصرية.

5 - أما هاجس مراقبة النفس لتجنب استعمال الكلمات الأجنبية فهو **أمر مفقود** عند الشباب التونسي. ولعل ازدياد إنتشار ظاهرة الفرونكوأراب بينهم اليوم هو دليل على ضعف وعيهم بأهمية اللغة العربية كلغة وطنية لمجتمعهم. ومن ثم، جاء فقدان أو ضعف الإلتزام لديهم **بتضييق الخناق** على اللجوء إلى إستعمال كلمات وعبارات فرنسية كثيرة في العامية التونسية واللغة العربية الفصحى على حد سواء، كما رأينا سابقا.

6 - إذا كان الشباب الألماني والايطالي والفرنسي والأسباني، مثلا، يعرّف بتلقائية هويتهم في المقام الأول بلغاتهم الوطنية، فإن **الإزدواجية اللغوية والثقافية** للشباب التونسي المتعلم لا تكاد تسمح لهم بربط **هويتهم** بوضوح وبسهولة باللغة العربية : أي الإنتماء الواضح والقوي إلى الهوية العربية.

دور النظام التّربوي التونسي في حال اللّغة العربية :

لابد للباحث الاجتماعي اللغوي أن يطرح عدة فرضيات لفهم وتفسير هذا **الموقف الفاتر** الذي يتصف به الشباب التونسي المتعلم إزاء اللغة العربية : لغته الوطنية. إن الفرضية الأولى التي ترشح نفسها بقوة هنا هي : ما هو دور المدارس والمعاهد والجامعات التونسية في غرس حب اللغة العربية والإعتزاز بها أو فقدانهما لدى الشباب ؟ فالملاحظات الميدانية المتكررة تشير إلى أن

الشباب التونسي المتعلم يولي، بطريقة شبه اللاشعورية، مكانة أعلى للفرنسية والإنكليزية على حساب لغته العربية. فهل يساهم فعلا النظام التربوي التونسي في بث هذا الموقف المتقاعس الشائع إزاء اللغة العربية لدى التونسيين المتعلمين من الشباب؟

الفرضية الثانية، تشير الملاحظات أن إطار التعليم التونسي (المعلمين وأساتذة التعليم الأساسي والثانوي والجامعي) المزدوج اللغة في كل مراحل التعليم يتصف **بضعف التحمس بعفوية للغة الوطنية : اللغة العربية**. وينتشر هذا الموقف حتى لدى أطر التعليم التونسية ذوي الازدواجية المتزنة مثل خريجي المدرسة الثانوية الصادقية (الصادقيين) لفترة ما قبل الإستقلال وأغلبية خريجي التعليم التونسي لما بعد الإستقلال. فيغلب على معظم هؤلاء **تحيز لصالح اللغة الفرنسية وثقافتها** على حساب اللغة العربية وثقافتها. هل يعود ذلك الموقف بين المتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية إلى الإزدواجية اللغوية الثقافية المتأثرة بالعامل الاستعماري، أو بايديولوجيا القيادات السياسية والمتعلمين التونسيين لما بعد الإستقلال أم هما معا ؟.

الفرضية الثالثة، هل مجرد الإزدواجية اللغوية الثقافية تؤدي في حد ذاتها إلى تحقير وتهميش اللغة الوطنية في كل المجتمعات البشرية ؟ كلا. إذ تؤكد ذلك الأمثلة المتعددة من المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة في كل من ألمانيا والسويد وإسبانيا وماليزيا وحتى كيباك. أي أن المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة في هذه المجتمعات يعتزون بطريقة تلقائية بلغتهم الوطنية ويدافعون عنها ويستعملونها في المقام الأول في مجتمعاتهم ويعرفون هويتهم بواسطة لغتهم الوطنية. وبعبارة أخرى، فعلاقة هذه المجتمعات ومتعلميها بلغاتهم الوطنية هي علاقة عضوية وطبيعية وسليمة بين الشباب وبين الكهول على حد سواء.

ومما سبق يمكن القول اليوم بأن علاقة الشباب التونسي المتعلم المزدوج اللغة والثقافة بلغته الوطنية **ليست بالعلاقة العضوية الطبيعية السليمة**. فهو فاقد لوازع الإعتزاز بها بحيث طالما يهمش استعمالها في شؤون حياته حتى في البسيط منها، وهو نادرا أن يعرف بها هويته. ولاريب أن هذا عامل قوي وحاسم في **إرباك هوية الأفراد والمجتمعات** كما تشهد بذلك بحوث العلوم الاجتماعية الحديثة. فهذه الوضع المرتبك مع اللغة العربية يرشح بقوة ظهور **حالة من الإغتراب** aliénation لدى الشباب التونسي إزاء لغته وثقافته الوطنيتين (Ruf, 1974 79-233). يتجلى مما سبق أن علاقة الشباب التونسي باللغة العربية **ليست بالعلاقة الوطنية** التي يعبرمن خلالها الشباب على المكانة الأولى التي تحتلها اللغة العربية في قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم، كما يفعل الشباب في المجتمعات المتقدمة نحولغاتهم الوطنية مثل ما هوالأمرفي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وكيباك.

الازدوجية اللّغوية الأمّارة لدى الشباب:

مما لاشك فيه أن **الإزدواجية اللغوية الأمّارة** هي مفهوم جديد مثله مثل مفاهيمنا السابقة : التخلف الآخر، التعريب النفسي، الفرونكوأراب الأنثوية، الرموز الثقافية، الشخصية التونسية المستنفرة. فالعلوم الاجتماعية في المجتمعات العربية لايمكن لها أن تتقدم حقا دون الظفر بكسب رهان ابتكار مفاهيم وأطروحات ونظريات جديدة مستلة من واقع تلك المجتمعات، وبالتالي فهي صالحة أكثرمن غيرها المستورد لفهم وتفسير ما يوجد في هذه المجتمعات من ظواهر و ما يجري فيها من أحداث.

نستعمل هنا كلمة **الأمارة** بالمعنى الذي ورد في وصف القرآن الكريم للنفس البشرية. فيفيد المصطلح القرآني للنفس الأمّارة أنها تلك النفس التي **تجنح إلى فعل السوء**. ومن المؤكد أن الأغلبية الساحقة من الشباب المتعلمين سوف يتعجبون من وصف الإزدواجية اللغوية بأنها أمارة بالسوء بالنسبة إلى اللغة العربية، كما نستعملها في هذه المقالة. ولابد أن يغضب فعلا الكثيرمن هؤلاء الشباب على إطلاقنا مثل تلك الصفة على الإزدواجية اللغوية. وليس بالصعب على عالم النفس الاجتماعي تفسيرمثل ردالفعل

هذا من طرفهم جميعا. فعالم النفس الاجتماعي يرى أن الناس يتعلمون معظم الأشياء بعد ولاداتهم في محيطهم الاجتماعي الصغيروالكبير. ومن الواضح أن اللغة هي من أولى الأشياء التي يتعلمها الأفراد في الأسرة والمجتمع. فالشباب التونسي تعلموا في عهد الإستقلال في أسرهم و مدارسهم وجامعاتهم و مجتمعهم بأن **تعلم اللغة الفرنسية/ الأجنبية مكسب كله خير**. يعتبر هذا المكسب الخيرعندهم مسلمة من المسلمات غيرقابلة للتساؤل والتشكيك. وبعبارة أخرى، فهم لايكادون يتصورون أي إساءة يمكن أن تأتي من الإزدواجية اللغوية. ولكن ينبهنا علما النفس والاجتماع بأن الشباب ومجتمعاتهم ليسوا قادرين فقط على تبني **الأشياء الخاطئة** والعيش عليها وإنما الأكثرمن ذلك أنهم مستعدون أيضا للدفاع عليها والمقاومة من أجلها بكل حماس.

الشباب التونسي والازدواجيتان اللغويتان:

يعني مصطلح الازدواجية اللغوية معرفة الشخص أوالمجتمع للغتين: اللغة الأم/الوطنية ولغة ثانية. ومعروف في الظروف العادية أن يكون للغة الأم/ **الوطنية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات مواطني المجتمع**. فهذا الصنف من الازدواجية اللغوية يجعل الناس ومجتمعهم يغارون على لغتهم ويتحمسون للدفاع عن لغتهم فيلوم بعضهم البعض على عدم احترام البعض منهم للغة البلاد. نسمي هذا النوع **بالإزدواجية اللغوية اللوامة**. فهذه الأخيرة تحرص كل الحرص وبحماس كبيرعلى المحافظة على مناعة اللغة الأم/الوطنية وتطورها ونموهامتخذة من أجل ذلك كل السبل الضرورية من توعية مجتمعية باللغة الوطنية كرمز وطني مقدس مثل علم البلاد ومن المطالبة بتبني سياسات لغوية تصون اللغة الأم/الوطنية من انحدار مكانتها نفسيا واجتماعيا إلى المرتبة الثانية أو الثالثة بين أهلها وذويها.

وفي المقابل، هناك صنف آخرمن الازدواجية اللغوية يذهب في **الاتجاه المعاكس** لما رأيناه في الازدواجية اللغوية اللوامة. نطلق على هذا الصنف الثاني من الازدواجية اللغوية مصطلح **الإزدواجية اللغوية الأمّارة**. إنها تلك الإزدواجية اللغوية التي لاتكون فيهاللغة الأم/الوطنية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات الشباب التونسي المزدوج اللغة. فهذا الأخير، كما رأينا أعلاه، لاتحتل عنده اللغة العربية/الوطنية المرتبة الأولى، على المستويات العاطفية والنفسية و الذهنية والفكرية وعلى مستوى الممارسة والإستعمال. فالملاحظة الميدانية لمعظم فئات هذا الشباب تجدهم غيرمتحمسين كثيرا للذود عن لغتهم الأم/ الوطنية وغيرمبالين إزاء عدم استعمالها في شؤونهم الشخصية وفي ما بينهم في أسرهم واجتماعاتهم ومؤسساتهم بحيث تصبح عندهم في حالات عديدة لغة ثانية أوثالثة. أفلا يكتب معظم هؤلاء صكوكهم المصرفية/ شيكاتهم باللغة الفرنسية بدلا عن اللغة العربية؟ أفلاتكاد الشابات التونسيات على الخصوص يستعملن إلا اللغة الفرنسية في حديثهن عن الألوان ومقاييس الملابس وغيرها؟ يوضح هذان المثالان أن معرفة الفرنسية قليلا أوكثيرا يجعل الفتاة والفتى التونسيين شبه متآمرين ضد استعمال لغتهما الوطنية/ العربية وذلك لعدم إعطائها أولوية الإستعمال بينهما في المجتمع التونسي، كما يفعل الشباب والشابات في المجتمعات المتقدمة، مثلا.

ضعف التعريب النفسي لدى الشباب :

إن الباحث في المسألة اللغوية في المجتمع التونسي الحديث يجد فيه حالة ما نسميه ضعف التعريب النفسي لدى أغلبية فئات الشباب. ويعني مصطلح ضعف التعريب النفسي عندنا التالي: لاتحتل اللغة العربية (اللغة الوطنية) نفسيا وعفويا المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات معظم الشابات والشبان التونسيين المتعلمين على الخصوص. فمن منظور علم النفس الاجتما عي يمكن القول بأنه يوجد اليوم موقف نفسي جماعي عام لد ى جل هؤلاء **لا يسمح لهم بتطبيع علاقتهم مع اللغة العربية**، لغة البلاد الرسمية. ويعني التطبيع هنا أن تصبح العلاقة بينهم

وبين اللغة العربية من نوع العلاقة العضوية التي تربط عادة بين المجتمعات ولغاتها الوطنية والمتمثلة في استعمال اللغة الوطنية في كل قطاعات المجتمع، من ناحية، والشعور نفسيا بالاعتزاز الكامل باستعمال اللغة الوطنية والدفاع عنها في دوائر العلاقات الخاصة وفي المجالات العامة من ناحية ثانية. بذلك تتعزز إمكانية اختفاء ظاهرة الإزدواجية اللغوية الأمارة الطاغية ليقوى حظ ظهور الازدواجية اللغوية اللوامة لتحل محلها. بذلك فقط يزول شبح استمرار الإستعمار اللغوي الثقافي وكسب رهان **الإستقلال الثاني** على الساحة المجتمعية بين الشباب التونسي.

رفع التحدّي ضد العجز عن التحرّر الحقيقي:

إن المفاهيم الواردة في طرح هذه المقالة تصف وضعا غير طبيعي للغة العربية/الوطنية لدى الشابات والشبان التونسيين. فهناك غياب كبير للإزدواجية اللغوية اللوامة بين معظم فئات الشباب **إناثا** وذكورا. وفي المقابل ثمة **حضور قوي للإزدواجية** اللغوية الأمارة المرتبطة شديد الارتباط بضعف التعريب النفسي عند أغلبيتهم. وبالتالي فالمجتمع التونسي يشكو من مشكلة حقيقية تتمثل في علاقة شبابه بلغته الوطنية. وكيف لايمثل هذا الوضع مشكلة خطيرة والحال أن اللغة الوطنية هي العمود الفقري لوجود المجتمعات والمحافظة على هويتها؟ فطغيان سلطان الإزدواجية اللغوية الأمارة بين الأفراد والمجموعات الشبابية التونسية بعد أكثر من نصف قرن من الإستقلال لا يبشر بالفوز الحقيقي بالإستقلال التام للمجتمع التونسي. إذ لايجوز موضوعيا الحديث عن كسب رهان الإستقلال الكامل بينما يستمر فيه الإستعمار اللغوي والثقافي على قدم وساق بين الشباب والكهول. إنه **استعمار خبيث وفيروسي** يمثل في نهاية المطاف صنارة استلاب وخدش لروح وهوية الشعب التونسي لدى الشباب والأكبر سنا. فهل تنجح القيادات السياسية والنخب الثقافية وكل الطبقات الاجتماعية في المجتمع التونسي في **عملية التلقيح** ضد فيروس الإزدواجية اللغوية الأمارة وبالتالي ضد وباء الاستعمار اللغوي الثقافي المتفشي بين شبابه في عهد الإستقلال ؟ ذلك هوالسؤال كما قال شكسبير.

العلاقة الحميمية بين اللغة والهوية :

تفيد بحوث العلوم الاجتماعية والإنسانية أن العلاقة غير السليمة بين الناس ولغتهم تؤثر على هوياتهم وانتماءاتهم الثقافية والحضارية. إذ اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب مع الآخرين فقط بل لها انعكاسات واسعة على هوية الأفراد والجماعات والمجتمعات. ومن ثم، فمن الخطإ الاعتقاد أن آثار الازدواجية اللغوية كلها خير للشباب التونسي وغيره من المواطنين. فالمعطيات الواقعية الميدانية لا تساند ذلك عندما تكون اللغة الأجنبية صاحبة المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات المزدوجي اللغة. ففي هاته الحالة يولد موقف نظرة التحقير للغة الوطنية، من جهة، وتصاب هويات الشعوب بالتصدع والارتباك والتذبذب، من جهة ثانية. و مما لا شك فيه أن القيادة البورقيبية ذات الإزدواجية الأمارة أثرت كثيرا في ميلاد وتصلب علاقة غير طبيعية بين المجتمع التونسي واللغة العربية. وربما يصدق قول Didrot على سياسات القيادة البورقيبية إزاء اللغة العربية «Quand on suit une mauvaise route ,plus on marche, plus on s'egare.» "عندما نبدأ سيرنا في طريق خاطئ فكلما نتقدم في المشي كلما نتيه أكثر".

موقف الشباب التونسي نتيجة لمجتمعه:

وحتى نسمي الأشياء بأسمائها فإن ضعف التعريب النفسي لدى الشباب التونسي هوحصيلة لموقف المجتمع التونسي بعد الإستقلال. ومن هنا تأتي مشروعية **القرار الرئاسي** لعام 1999 الهادف **إلى إنهاء المشكلة اللغوية** بالإدارات التونسية وذلك بجعل اللغة العربية هي لغة الإدارات الحكومية التونسية. فجاء القرار اعترافا بأن هناك مشكلة لغوية طال أمدها منذ الاستقلال. فلا بد إذن من أخذ القرار دون تأخير حتى تكسب تونس **سيادتها اللغوية**.

فما الذي أدى إلى حالة اختلال العلاقة الطبيعية

بين اللغة العربية والمجتمع التونسي وشبابه؟ هناك ثلاثة عوامل رئيسية وراء هذا الوضع:

1 ـ أدخل الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية لغته في الإدارات والمدارس التونسية وفي المجتمع التونسي المغلوب.

2 ـ لم تكن القيادة البورقيبية متحمسة لصالح التحرر (الاستقلال) اللغوي الثقافي بسبب ازدوجيتها اللغوية المتحيزة للفرنسية التي جعلها تعتبر المحافظة على **الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي أمرا مرغوبا فيه.** يذكرنا هذا بمقولة فيفري 2005 لبعض أعضاء الجمعية الفرنسية المنادين بالدور الايجابي للإستعمار. le rôle positif du colonialisme

3 - يتلقى معظم التونسيين تعليما مزدوج اللغة والثقافة (عربية- فرنسية) بعد الاستقلال. وتحظى اللغة الفرنسية وثقافتها بمكانة اجتماعية وهيبة معنوية أكثر من اللغة العربية وثقافتها عند أغلبية فئات الشباب التونسي. يرجع ذلك إلى أن أجيال الكهول التونسيين المزدوجي اللغة والثقافة يواصلون بث صورة أكثر إيجابية للفرنسية عبر الأجيال الصاعدة/ الشباب منه للغة العربية. وقد أدى/ يؤدي إلى **الازدواجية الأمارة** المشار إليها والتي لاتمد الشباب التونسي **بمناعة** لغوية ثقافية وطنية قوية تحفظ تماسك المعالم العربية والاسلامية في الهوية التونسية من التصدع والاغتراب. إن العاملين الثاني والثالث هما أهم من العامل الأول في تفسير موقف ضعف التعريب النفسي عند معظم الشباب التونسي اليوم. وتؤكد البحوث أن **اللغة هي أبرز معلم لهويات الشعوب وشبابها.** فمن يستبدل لغته بلغة غيره يضع قطعا هويته في حالة ارتباك واضطراب وترشح قوي لضياع الهوية نفسها.

إطار فكري تنظيري للبحث:

وبخصوص إقامة بناء فكري نظري، فتتفق خطوات مسيرة هذه الدراسة مع روح ومنهجية البحوث العلمية الحديثة في علوم الإنسان والمجتمع. فعلى سبيل المثال، يرى علم الاجتماع **وجود علاقة وثيقة** بين ميلاد المفاهيم عند الباحث الاجتماعي، من ناحية، وإمكانية وصوله إلى إنشاء نظرية حول الظواهر المدروسة، من ناحية ثانية. تعرّف كلمة المفهوم في علم الاجتماع بأنها عبارة عن مصطلح يشير إما لوجود علاقات بين الأشياء أو هي تصف خاصيات لها. ومن ثم، **فالمفاهيم** ليست بالأقوال التفسيرية حول الأشياء، وبالتالي فهي ليست بالأقوال الصادقة أو الكاذبة حولها بل تتمثل وظيفة المفاهيم في تقديم **مجموعة مفردات لغوية لنظرية ما وتحديد موضوعها.** وعند العثور على وجود نسق في العلاقات بين المفاهيم، فإن ذلك **يبشر بظهور معالم نظرية جديدة.** وهكذا تتجلى أهمية ابتكار المفاهيم والنظريات في تطور وتقدم مسيرة العلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها من العلوم. يُرجع الأستاذ فريد العطاس تخلّف العلوم الاجتماعية والإنسانية في آسيا وفي العالم الثالث بصفة عامة إلى ما يسميه **بالتبعية الأكاديمية والفكرية** للعلوم الاجتماعية الغربية التي يتبناها العلماء والباحثون في المجتمعات النامية [Alatas: 2006].

من الواضح أن بحثنا في الشباب التونسي يقدم بعض المفاهيم المبتكرة في دراسة المسألة اللغوية وعلاقتها بنحت هويته. فالتعريب النفسي والإزدواجية اللغوية الأمارة والازدواجية اللغوية اللوامة هي بعض مفاهيمنا الجديدة في العلوم الإنسانية والاجتماعية العربية والغربية على حد سواء. وكما أشرنا سابقا، فمنظورعلم الاجتماع يرى إمكانية وجود **علاقة وثيقة** بين ميلاد المفاهيم وإنشاء النظريات. فحسب تعريف النظرية المشارإليه أعلاه، فإن النظرية الاجتماعية هي إطارفكري يساعد على تفسير ظاهرة أو أكثرفي المجتمع. ومن ثم، فهل يمكن الظفر **بنظرية** ذات علاقة وثيقة بالمفاهيم الرئيسية الجديدة في هذا البحث وقادرة في نفس الوقت على تفسيروضع اللغة العربية المتردي بين فئات الشباب التونسي ؟ فالطريق إلى إنشاء نظرية من هذه المفاهيم تنطلق من البحث عن **نوعية العلاقة** التي يمكن أن توجد بين **التعريب النفسي** وكل من

مفهومي الإزدواجية اللغوية **الأمارة** والإزدواجية اللغوية **اللوامة**. وللتعرف على طبيعة تلك العلاقة دعنا نحدد نوعين من التعريب النفسي :

1 ـ **التعريب النفسي العادي** والمتمثل في وجود علاقة حميمية قوية في المجتمع التونسي بين الشباب والمواطنين واللغة العربية/ الوطنية. وهذه هي العلاقة الطبيعية بين الشعوب ولغاتها الوطنية.

2 ـ **التعريب النفسي الضعيف** الذي يوجد بسبب ضعف أوفقدان العلاقة الحميمية القوية بين التونسيين وشبابهم ولغتهم الوطنية. ويرجع ضعف التعريب النفسي خاصة في المجتمع التونسي وشبابه إلى أكثرمن سبب:

أ ـ تعلم لغة أجنبية/ الفرنسية وإتقانها أفضل من اللغة الوطنية/ العربية.

ب ـ تمثل اللغة الأجنبية / الفرنسية لغة المستعمر أثناء الإستعمار وفي عهد الإستقلال.

ت ـ تمتع اللغة الأجنبية/ الفرنسية بسمعة ومكانة إجتماعية أفضل من اللغة الوطنية/ العربية. فحضور **اللغة/ اللغات الأجنبية** مع اللغة العربية بتلك الصفات الثلاث يفترض أن يكون **عامل** تشويش وإرباك لعلاقة الشباب التونسي باللغة العربية/ الوطنية (1).

وكنتيجة لذلك، يلاحظ أن أسباب التعريب النفسي الضعيف [أ، ب، ت] **تقترن** بوجود الإزدواجية اللغوية **الأمارة** (2). **أي** أنه كلما كان التعريب النفسي ضعيفا وهشا لدىالشباب كلما كان جنوحهم إلى الازدواجية اللغوية **الأمارة** قويا وجذابا. والعكس صحيح : كلما كان التعريب النفسي قويا لدى أفراد الفئات الشبابية [كما هوالحال عند المتعلمين والمثقفين **الزيتونين** في تونس] كلما كانت الإزدواجية اللغوية **اللوامة** قوية الحضور وسائدة لدى الأغلبية الساحقة فيها. وبعبارة أخرى، فهاتان الإزدواجيتان اللغويتان هما نتيجتان **لقوة** أو **ضعف** التعريب النفسي لدى الشباب والجماعات والطبقات الاجتماعية والمؤسسات في المجتمع التونسي. فالفرضية المطروحة هنا ترى أن العلاقة بين التعريب النفسي والازدواجيتين اللغويتين هي من نوع **العلاقة السببية**. أي أن ضعف أو قوة التعريب النفسي هو المحدد وبالتالي **المفسر** لطبيعة الإزدواجية اللغوية السائدة في المجتمع التونسي. وبالتأكيد توجد كذلك علاقة سببية متينة بين ضعف التعريب النفسي واستمراركتابة الشيكات والإمضاءات ورسائل الهواتف الجوالة باللغة الفرنسية من طرف أغلبية التونسيين وفي طليعتهم الشباب. والقائمة طويلة للسلوكات اللغوية **المهينة** للغة العربية التي يؤثر فيها بقوة **عامل ضعف التعريب النفسي** لدى هؤلاء الشباب. إذن، فهناك مشروعية صلبة لتبنّي فكرة التعريب النفسي **كإطارفكري/ نظرية** لتفسيرالعديد من الظواهراللغوية التي يعرفها المجتمع التونسي اليوم ضد أو لصالح لغة الضاد. ويجوزتلخيص مقولة نظرية التعريب النفسي في هذا البحث بشيء من التصرف في بيت أحمد شوقي:

صلاح أمرلغتنا لدى الشباب للتعريب النفسي مرجعه

فياليته يقوم به تردي وضع لغتنا فتستقم

المصادر والمراجع

باللغة العربية

الذوادي، محمود : الوجه الآخرللمجتمع التونسي الحديث، تونس، تبر الزمان، 2006 أ.

ـ الذوادي، محمود: الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظورالعلوم الاجتماعية، بيروت، دارالكتاب الجديد المحدودة، 2006ب.

ـ الزيدي، المنجي: الدخول إلى الحياة، تونس، تبرالزمان، 2005

باللغات الأجنبية:

- Abdelmoula, M., Les jeunes sont la solution, L'Expression, No.30, 9-15 mai 2008, pp.13-15.

- Alatas, S.F.,Alternatives Discourses in Asian Social Science : Responses to Eurocentrism, New Delhi, Sage Publications, 2006, pp.226.

- Kivisto, P., Multiculturalism in A Global Society, Oxford, Blackwell Publishing, 2002, p.14.

- Ruf.W.K, « Dépendance et aliénation culturelle » in Indépendance et Interdépendance au Maghreb, Paris, CNRS, 1974.

- Slimani, L., Ce que jeunesse veut, Jeune Afrique, No.2567, 21-27 mai 2010, pp.62-75.



الهوامش والإحالات

1) ميدانيا يلاحظ هذا التشويش والإرباك للعلاقة الحميمية/ التعريب النفسي مع اللغة العربية/ الوطنية لدى ثلاثة أصناف من المتعلمين التونسيين المزدوجي اللغة [عربية فرنسية] في عهدي الإستعماروالإستقلال، ويتمثل هؤلاء في الفترة الإستعمارية في : أ ـ الصادقيين الذين يعرفون اللغتين بشيء من التساوي ت) خريجي المدارس الفرنسية الذين لايكادون يعرفون اللغة العربية. ب ـ خريجي المدارس التونسية العامة بعد الاستقلال والذين يتصف مستوى معرفتهم للفرنسية بالضعف. تصلح العوامل أ، ب، ت في المتن لتفسيرفقدان التعريب النفسي لدى الأصناف الثلاثة رغم اختلاف تكوينهم اللغوي المزدوج.

حضور المسألة الشّبابيّة في العلوم الاجتماعيّة المعاصرة

منذر بالضيافي (*)

أهملت العلوم الإنسانية والاجتماعية المعاصرة المسألة الشبابية، فهذه الفئة العمرية برغم المكانة التي تحتلها في الهرم السكاني العالمي، وخاصة في الدول النامية، وكذلك موقعها في التنمية بوصفها الشريحة الأكثر نشاطا وحيوية، فإنها مع ذلك لم تجد حظها من البحث والدرس، من قبل المشتغلين في حقل علم الاجتماع. وقد ارتبطت في الغالب الدراسات والبحوث السوسيولوجية التي أنجزت حول الشباب، بحوادث وانتفاضات وحركات احتجاجية، كادت تؤدي إلى تفكيك النسق الاجتماعي والبناء السياسي القائم، وكان للشباب فيها الحضور القوي بل والمؤثر. ولعل أهمها وأكثرها دلالة الانتفاضة الطلابية والشبابية بفرنسا سنة 1968، والتي كان لها وقع خاص على طرق تفكير، ونمط عيش كافة الشباب العالمي، وتحولت إلى ظاهرة تشبه تأثير / كرة الثلج/ كما يقال. «إن سنة 1968 وضعت حدا فاصلا في تاريخ السياسات الديمقراطية: فسنوات التوفيق الهادئة، والتكامل، والترويض وصلت أخيرا إلى نهايتها، وظهرت موجات جديدة من التعبئة والتعبئة المضادة أخلّت بتوازن عدد من الديمقراطيات الغربية، وظهر جيل جديد تحدى ما دعا إليه أفراد الجيل الأول وأساليبهم.. إذ أن الانفجار العنيف للقوى الجديدة لم يتحدّ نماذج ونظريات الخمسينات وأوائل الستينات فحسب، وإنما فرض أيضا إعادة تقييم أساليب جمع البيانات واستراتيجيات تحليلها» (1). ومثلت انتفاضة أو ثورة الضواحي - وإن بدرجة أقل من انتفاضة 1968- التي عرفتها باريس (فرنسا) سنة 2006، والتي كانت القيادة فيها للشباب، الذي يعاني من ويلات التهميش والإقصاء الاجتماعي والثقافي، ومن الحق في المشاركة السياسية وبالتالي في صنع القرار. محور اهتمام كبير من قبل الاجتماعيين.

كما أن هذه الفئة كانت خلال العشريتين الأخيرتين، موضوعا وهدفا «للتجنيد» من قبل الحركات التي تتبنى العنف والتطرف سواء اليمينية في المجتمعات الغربية، أو التي تتستر بالدين في المجتمعات العربية والإسلامية. وهذا ما يفسر تنامي البحث في الوظائف التاريخية، والمجتمعية sociétale، والثقافية والإيديولوجية لفئة الشباب في السنوات الأخيرة، وتحديدا في العالم الغربي، وتحرك «محتشم» من قبل النخب ومراكز البحث في العالم العربي والإسلامي. ولكن في المقابل، نجد أن الخطاب حول الشباب يحتل مكانة بارزة في الحوار السياسي، ولدي قطاعات واسعة في الرأي العام وفي

*) باحث، تونس

وسائل الإعلام، وهنا تجدر الإشارة إلى أن موضوع الشباب، ظل ضمن دائرة المسكوت عنه في نشاطات فعاليات المجتمع المدني العربي، التي آثرت التعاطي معه -أي الشباب- كورقة للضغط والصراع السياسي، ولم تفكر في إيجاد الحلول الحقيقية لمشاغله واهتماماته، من خلال الاستناد إلى نتائج البحوث الأكاديمية.

في هذه الورقة، التي لا تتجاوز كونها محاولة للفهم، نكشف من خلالها عن طبيعة تعاطي المقاربة السوسيولوجية والتاريخية -بدرجة أقل- مع الشباب. فمع بروز **سوسيولوجيا الشباب التي تعد اليوم فرعا قائما بذاته ضمن الحقل المعرفي لعلم الاجتماع**، الذي طور ووسع من إطاره النظري والمنهجي ليشمل عدة مجالات جديدة، منها الفن والثقافة والاتصال والتربية... (2). ولم يعد يقتصر على مشاغل الرواد والمؤسسين. وبرز هذا التيار الذي يدعو صراحة إلى هيمنة علم الاجتماع على بقية الحقول المعرفية بالخصوص مع عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو Pierre Bourdieu الذي عرف بانحيازه بل وتنظيره لما أصبح يعرف بـ «امبريالية علم الاجتماع»، انطلاقا من مقاربة نقدية للظواهر الاجتماعية، تروم تعرية الواقع القائم على توظيف التنظيمات والمؤسسات -مثل المدرسة- من أجل إعادة إنتاج الموجود، وتأبيد هيمنة المهيمن. ومع بورديو تحولت السوسيولوجيا إلى «علم مزعج» (3).

تستند المقاربة السوسيولوجية إلى الارث المعرفي الاجتماعي، وهو مجموعة المفاهيم والبراديغمات paradigmes المكونة للإطار النظري، إضافة إلى الاختيارات المنهجية، والتي تختلف باختلاف المدارس النظرية، وبطبيعة الموضوع المشتغل عليه. **فكيف تعاطى علماء الاجتماع مع الشباب؟**

من خلال تتبع مسارات بروز وتطور **سوسيولوجيا الشباب**، نجد أن هذا الفرع من علم الاجتماع كانت بداياته أو انطلاقته من ألمانيا، ثم الولايات المتحدة الأمريكية. وتضاعف الاهتمام به أكثر في أوروبا وبالتحديد ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية (1945). بعدها تطور الحقل المعرفي والمنهجي لسوسيولوجيا الشباب ليشمل مجالات أخرى في علاقة بهذه الفئة ومنها التربية، القانون، والمجموعات...

تجمع مختلف البحوث الاجتماعية، وأساسا علم الاجتماع على أنه لا يوجد تعريف واحد ومحدد للشباب، بل هناك تعريفات متعددة، لكل واحد منها شرعيته الخاصة به. وهو ما يفترض وجوب التسلح بالشجاعة المنهجية على حد تعبير إميل دوركايم، كما يجب أن يكون الباحث مدركا لأهمية المساهمة في تقديم تعريف ينسجم وموضوع بحثه. فالجرأة المنهجية شرط وجودي لإنتاج سوسيولوجيا نوعية تهفو إلى تحليل وفهم الظواهر الاجتماعية، وهي المحفز لتشييد **سوسيولوجيا الشباب، كفرع تخصصي يمكن أن يساهم في تقديم إجابات محتملة عن أسئلة وقضايا الشباب** كفئة عمريه اجتماعية، تحتل مكانة بارزة في النسيج المجتمعي، سواء بالنظر إلى حضورها الكمي أو لطبيعة وخصوصية مشكلاتها.

رغم أن دلالات كلمة شباب تبدو بديهية وبسيطة، إلاّ أن ضبطها وتحديد مفهومها هو أمر صعب في العلوم الاجتماعية (4)، وكل محاولات التحديد هي إجرائية ولغايات منهجية. فعلم النفس يحدّد فترة الشباب وفق التطور البسيكولوجي للفرد في ارتباط بنموّه الفزيولوجي ويركّز على مرحلة المراهقة، وعلوم التربية تركّز على مراحل التنشئة، وعلم الاجتماع يعتمد على مقاييس الاندماج الاجتماعي، والعلوم الطبية تركّز على النمو العضلي والفيزيولوجي، والقانون يختلف في تحديد المقاييس من بلد إلى آخر. واستنادا إلى التعريفات، يمكن دراسة الشباب باعتباره:

- مجموعة ذات خاصيات بيولوجية وبسيكولوجية، تعبر عن فترة عمرية معينة، بين الطفولة والكهولة.
- مجموعة أفراد تكون هذه الطبقة العمرية وتتمثل هذه الخاصيات.
- مجموعة من الإجراءات والتشريعات القانونية التي تطبق بالخصوص على هذه الفئة من الأفراد.
- مجموعة من القيم والمبادئ، ومن السلوكيات ومن أشكال وأنماط العيش التي تتطور في إطار أو ضمن هذه الطبقة، خاصة في المجموعات التلقائية والمهمشة.

- مجموعة من التمثلات العقلية، ومن الصور والخطابات التي تهم هذه الفئة من المجتمع، تمثلات تتناقلها وتروج لها وسائل الإعلام، وتعد قاسما مشتركا بين أفراد هذه الفئة.

كل هذه العناصر تتفاوت باختلاف الفضاء الاجتماعي والإطار الزمني/التاريخي. وتكون المتغيرات في الفضاء محل دراسة من قبل الانتوغرافيين وعلماء الاجتماع، في حين ينكب المؤرخون على العناية بكل ما هو تحقيب تاريخي. هذا مع وجود تقاطع بين المبحثين، يبرز في رجوع الاجتماعيين إلى التاريخ لفهم تحولات العديد من الظواهر. إن ارتباط النظم الاجتماعية في المجتمع العربي بالتاريخ يفرض على الباحث وجوب الاهتمام بالجانب التاريخي.

ومهما يكن من أمر التعريفات والتحديدات ما يعنينا في موضوعنا هذا هو التأكيد على نقطة التغير والتحوّل لدى هذه الفئة، ثم التركيز على أن فترة الشباب في كل المجتمعات وفي إطار أغلب المقاربات هي فترة مرتبطة بالتنشئة والإعداد والتكوين. هي فترة تدريب واستيعاب للحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ومحاولة التأقلم معها قصد تحقيق الاندماج الاجتماعي. ومن هنا فإن هذا النسق Processus الذي ينظم مرحلة الشباب متّصل (بما أنه نسق تنشئة وتكوين) بالبنية الثقافية للمجتمع وهي الإطار الأشمل الذي يحتوي على ما نسميه منظومة القيم. والتأكيد على اختلاف النظرة إلى الشباب من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى مجتمع آخر. **وأن مفهوم الشباب ديناميكي ومتحوّل، وليس ثابتا وصالحا لكل زمان ومكان** (5).

ما يميز المقاربة الاجتماعية، عن غيرها كونها تهتم بمختلف العوامل المكونة للحقيقة الجماعية للشباب. وبهذا فإن «الشباب، حقيقة جماعية»، ففي كل مجتمع، هناك مجموعة من الأفراد، أيا كان حجمها وعددها، تمر بهذه الفترة أو المرحلة من النمو، وتمثل «كتلة» أو مجموعة واضحة من المجموع العام للسكان، ولها مشاكل ومشاغل مشتركة. كما أنه «حقيقة قانونية»، فوضعية القاصرين التي تهم الأطفال والمراهقين، تفرض عدة إجراءات من مثل الحق في التعليم، فالقاصر هو الذي لا يملك الكثير من حقوقه، ومن واجباته في المجتمع، فهو المواطن الغير مكتمل. وهذا ينطبق على الشباب، الذي يأخذ حقوقه تدريجيا من العائلة ومن المجتمع. وهو «حقيقة اجتماعية»، وذلك بالنظر إلى بروز أنماط عيش وسلوكيات تميز هذه الشريحة عن بقية مكونات المجتمع. وتعد بمثابة جواب بل ردة فعل (من الشباب) على الدور الذي يعطيه لها المجتمع، وتأكيد وتعبير عن الحضور. وهذا ما جعل منها موضوع بحث واهتمام العلوم الإنسانية والاجتماعية وخاصة علم الاجتماع. والشباب، هو أيضا «حقيقة سياسية»، تبرز من خلال اهتمام كل المشتغلين في الحقل السياسي، وخاصة صناع القرار، بإيجاد أجوبة عن تساؤلات ومشاغل هذه الفئة، وكذلك توفير حاجياتها، وهذا هو جوهر ما يعرف بـ «السياسة الشبابية»، التي تحاول أن تضع خارطة طريق تجيب عن «مشاكل الشباب» وتسعى إلى الحد من تداعيات السلوكيات الشبابية الخطرة أو التي يمكن أن تشكل خطرا في المستقبل، هذا إلى جانب توجيه وتأطير هذه الفئة وتجنيبها خطر الانزلاقات والتطرف. ويستفيد الخطاب السياسي من نتائج البحوث الأكاديمية ويحولها إلى سياسات وأفعال وبرامج.

إن الشباب ظاهرة اجتماعية وتاريخية، تستمد جذورها الاجتماعية من الوضعية الانتقالية التي يعيشها الشباب فهي بالأساس ثقافية وليست طبيعية، وهي تتفاوت وتختلف من مجتمع إلى آخر ومن طبقة إلى أخرى، وحتى داخل المجتمع الواحد مثلما ذهب إلى ذلك بيار بورديو(6). فالعلاقة بين الشباب والمجتمع تمر أساسا عبر المدرسة (المؤسسة التربوية) والعائلة، بواسطتهما يؤطر المجتمع الشباب، ويحدد لهم حقوقهم وواجباتهم، فعبرهما تتحقق «اجتماعية الفرد» la sociabilisation de l'individu على حد تعبير دوركايم. فعندما عجزت مؤسسة المدرسة عن حل مشاكل الشباب، خلال فترات محددة من القرن السابق، برزت للوجود مؤسسات تربوية جديدة، من أبرزها الحركات الشبابية، لتسد الفراغ، هذا بالإضافة إلى الأشكال التلقائية والهامشية على غرار المجموعات والعصابات وغيرها...

إذا كانت فترة الشباب في مراحل سابقة من حياة

مجتمعنا تنتهي في سنّ ما قبل الثلاثين سنة، على اعتبار أن عددا كبيرا من الدراسات حصرت هذه الفئة في الفترة العمرية 15-30، فإن هذا التحديد العمري فقد كل مبرراته ومسوغاته الواقعية والمنهجية، **فما نلاحظه في جل المجتمعات وخاصة الحديثة هو تمدد مرحلة الشباب إلى ما بعد سن الثلاثين بكثير**، حيث تحافظ العائلة على تعهد وحماية الأبناء إلى مراحل عمرية متقدمة، وذلك بحكم التحولات الاجتماعية والاقتصادية وامتداد سنوات الدراسة، وتنوع سبل الاندماج الاجتماعي وتغير الذهنيات والسلوكيات... كل هذه العوامل أدت إلى ظهور ما نسمّيه في علم اجتماع الشباب بـ «تمطط» مرحلة الشباب واختلاف مواعيد الدخول إلى الحياة العامة (الزواج، الاستقرار في الشغل، إنجاب الأطفال...) والاستقلال نهائيا عن خدمات ورعاية الأسرة. وهذه الصورة تبدو مغايرة تماما في المجتمعات البدائية، وفي الأرياف، فالمرور في هذه المجتمعات من الطفولة إلى الكهولة، يتم دون تعقيدات كثيرة، وفي زمن سريع، نظرا لبساطة طرق العيش وهيمنة نمط الإنتاج الزراعي، وما يعنيه من قرب للطبيعة.

يقوم التحليل السوسيولوجي لبيار بورديو على رفض التعريف الذي يستند إلى التحديد العمري، ويرى أن **«الشباب مجرد كلمة»** La «jeunesse» n'est qu'un mot. كما يذهب إلى القول بأن الحدود بين الأعمار أو الشرائح العمرية حدود اعتباطية، «فنحن لا نعرف أين ينتهي الشباب، وأين تبدأ الشيخوخة، مثلما لا يمكننا أن نقدر أين ينتهي الفقر ليبدأ الثراء». وهذا يعني من منظور بورديو أن **الفئات العمرية هي بالضرورة نتاجات اجتماعية**، تتطور عبر التاريخ وتتخذ أشكالا ومفاهيما في ارتباط وثيق بالأوضاع والحالات الاجتماعية. كما إن الحدود بين الشباب والكهولة، هي محور اختلاف في كل المجتمعات وفي كل الأزمنة أيضا (7). يرجع بورديو في نظريته حول الشباب إلى الأمثال الشعبية، وكذلك فلسفة أفلاطون، التي تعطي لكل فترة أو حقبة عمرية وصفا خاصا ومميزا لها، فالمراهقة تكون عادة مقترنة بالعاطفة، في حين تتميز الكهولة بالواقعية. كما يتعاطى مع ثنائية شباب/كهولة انطلاقا من كونها علاقة عادية، «فنحن دوما شباب وكهول بالمقارنة مع طرف ثان» (8). ويرى بورديو بأن الهدف **من التقسيمات أو التصنيفات على أساس العمر والجنس والطبقة هو إعادة إنتاج النظام**، بطريقة يحافظ فيها الجميع على موقعه». فالشباب والكهولة ليست معطيات، بقدر ما هي نتاج بناء مجتمعي. ليخلص إلى القول بأن «العلاقة بين العمر الاجتماعي l'âge sociale والعمر البيولوجي l'âge biologique هي عملية بالغة التعقيد». ولمزيد فهم العلاقة بين الأجيال، يشترط بورديو ضرورة فهم خاصيات اشتغال ورهانات الحقل le champ الذي تنتمي إليه هذه الفئات (9).

ولإعطاء الشرعية العلمية لاستنتاجاته النظرية، التي تقول بأن **«الشباب مجرد كلمة» وهو أيضا «نتاج اجتماعي، يتحدد بشروط اجتماعية معينة»**، يستنجد بورديو بالبحوث الإتنولوجية وكذلك الأنتروبولوجية. فمثلما «لكل مجتمع قيمه، وعقله الجمعي الذي ينضبط ويحتكم إليه، فإن له أيضا مفهوما خاصا للشباب، وتحديدا اجتماعيا لخصائصه وتحولاته، بل إننا نجد داخل المجتمع الواحد أكثر من مفهوم للشباب، وذلك كله في اتصال وثيق مع ما يعتمل داخل هذا المجتمع ويتفاعل فيه، والنتيجة في النهاية شباب لكل مجتمع مختلف نوعا ودرجة عن شباب أي مجتمع، ومنه نصل إلى التأكيد على أن لكل شباب قضاياه وأسئلته التي تتنوع بتنوع المجتمعات» (10). وهو ذات الاستنتاج الذي توصلت إليه مارقريت ميد (11) في دراستها لقبائل ساموا، حيث بينت أن أزمة المراهقة والشباب التي تبرز بشدة في المجتمع الرأسمالي الحديث، لا نكاد نجد لها أثرًا يذكر في هذه القبائل، نظرا لبساطة العيش في هذا المجتمع وسهولة المرور إلى سن الشباب. وبهذا فإن الشباب في ساموا ليس هو الشباب في أمريكا وليس هو الشباب في العالم العربي.

ومن أبرز المدارس الاجتماعية، التي اهتمت بدراسة الشباب نذكر:

- **مدرسة شيكاقو**: تيار بحثي أمريكي، ينطلق من مقولة اللانظام الاجتماعي la désorganisation sociale من أجل فهم الانحراف الشبابي la déviance juvénile.

وبداية من 1932 اهتم الباحثون في هذه المدرسة بإجراء تحقيقات حول التحضر. وقاموا بتتبع المجموعات والزمر أو العصابات الشبابية بهدف الكشف عن السلوكيات الجديدة لدى هذه الفئة. من خلال الاعتماد على الملاحظة المباشرة، والملاحظة بالمشاركة في الميدان. وبينت هذه الدراسات الميدانية، أن الشباب هم الذين يقفون وراء التغيير الاجتماعي.

واعتنت هذه المدرسة، بالعلاقات داخل الجيل الواحد، والعلاقات بين الأجيال. وانتهوا بتحديد مفهوم الشباب، في إطار العلاقة بين الأجيال. كما قاموا بدراسة «الثقافة الشبابية»، وملاحظة مدى قدرة المبادئ والقيم على إدماج الشباب (مفهوم الثقافة المهيمنة)، وكذلك إمكانية تحصيل معارف جديدة والعيش ضمن ظروف أفضل.

- في بريطانيا، تم الاهتمام بهذا الفرع الجديد من علم الاجتماع، بداية من خمسينات وستينات القرن الماضي، من خلال اكتشاف شريحة الشباب العامل وأشكال الانحراف عند الشباب. ثم طورت الجامعات البريطانية البحث حول الشباب. وقد تركزت محاور البحث في المقام الأول حول الشباب المنتمي إلى الطبقة العمالية التي تسكن أحياء الضواحي أو الأحياء الشعبية، وتعاني من البطالة، وتعيش على هامش النظام الثقافي للطبقة الوسطى. وتعتبر الثقافة الشبابية كأداة للمقاومة. حيث نجد التمثلات الثقافية تحيلنا على التقسيم الطبقي، من خلال ثقافة مهيمنة وثقافة مهيمن عليها. وتنتمي الثقافة الشبابية إلى ثقافة الطبقة التي تنتمي إليها.

- في فرنسا، بداية من النصف الثاني من الستينات، بدأ النقاش يدور حول وجود الشباب كمجموعة اجتماعية منسجمة. واعتبر بعض علماء الاجتماع في حينها، أن الشباب يمثلون طبقة عمرية منسجمة، وذات ثقافة وشبكة من الرموز المشتركة. وبالنسبة للبعض الآخر، وأهمهم بيار بورديو، «فإن الشباب مجرد كلمة». وقد حصلت هذه النقاشات في ظرف اتسم بحصول تطورات كبرى في المجتمع الفرنسي. الذي كان يتهيأ للانتقال من مجتمع صناعي معروف بالطبقات الاجتماعية، إلى مجتمع نتعرف عليه عبر الثقافة الجماهيرية culture de masse. وقد برز هذا التباين في أعمال وبحوث علماء الاجتماع، وظهر للعيان في المقولات التي تقر بتمديد فترة الشباب وعدم حصرها في فترة محددة بعينها، وبتجارب التنشئة والاندماج الاجتماعي.

كان لمدرسة شيكاغو السوسيولوجية الفضل الكبير في تطوير علم اجتماع الشباب في أوروبا (1970 في بريطانيا و1980 فرنسا). وجدير بالقول أن الشباب لا يملك إلى اليوم نظرية خاصة به، ويدرس دائما في إطار بحوث واهتمامات فروع معرفية ونظرية أخرى مثل «التغيير الاجتماعي» أو «إعادة الإنتاج الاجتماعي»... وفي فرنسا مثلا، تعتمد المقاربات حول الشباب على التجارب التاريخية والثقافية والرهانات الاجتماعية المرتبطة بآليات توزيع الأفراد في البنيات الاجتماعية.

فماذا عن سوسيولوجيا الشباب في العالم العربي؟

السمة الغالبة على الإنتاج السوسيولوجي -بكافة فروعه ومنها الشباب - في العالم العربي، هي التراجع من حيث الكم والمضمون، فالعلوم الاجتماعية والإنسانية تعيش أزمة، هي نتاج ومحصلة طبيعية للأزمة المركبة التي تعيشها المجتمعات العربية، بسبب تعطل الحراك الاجتماعي والسياسي، ما أدى إلى عدم توفر الأرضية، والمناخ المناسب لخلق حركة بحث جادة، في مختلف مجالات المعرفة، وخاصة علم الاجتماع باعتباره «علما مزعجا» وفق عبارة عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو. هذه الحالة العربية، الموسومة بالأزمة، يجب أن تكون حافزا لكسب المعرفة والعلم «الذي يهبنا القدرة على التحليل والتفسير والفهم، وتلك هي أدوات التغيير الرشيد» (12).

فأثر غياب الشروط الضرورية لإنتاج المعرفة، جعل المشتغلين في حقل علم الاجتماع غير قادرين على أداء أدوارهم، والوفاء بحاجات أوطانهم الراهنة والمستقبلية. برغم مرور قرن على إدخاله رسميا للجامعات العربية. ولعل الملفت للانتباه أن العديد من الجامعات العربية بدأت تناقش جدوى الاستمرار في تدريس العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتعلل بعدم القدرة على استيعاب خريجيها في سوق الشغل. في كتابه «اتجاهات نظرية في

علم الاجتماع»، تطرق الدكتور عبد الباسط عبد المعطي، إلى وضعية علم الاجتماع العربي(13)، وقد انطلق مما جاء في مقدمة «لوي ورث» للطبعة الإنجليزية من كتاب «الأيديولوجيا واليوتوبيا» الذي ألفه «كارل مانهايم» وتطرق من خلالها إلى أهم أسباب ركود المعرفة الاجتماعية، وهو تفسير ينطبق على حالة علم الاجتماع في الوطن العربي، وذلك حين ميز بين مجموعتين أساسيتين من العوامل:

الأولى: وتتمثل في المحددات التي تفرض على العلم فرضا إكراهيا قسريا من خارجه.

الثانية: وتشمل العقبات والصعوبات الناتجة من داخل العلم نفسه.

وإذا كانت المجموعة الأولى تشير إلى علاقة علم الاجتماع بالنظام الاجتماعي الذي هو جزء منه، يتأثر به، ويفترض أنه يجب أن يؤثر فيه. فإن هذا النظام يحوي جملة الأبعاد الاجتماعية-الاقتصادية، وما يترتب عليها من عناصر ثقافية وسياسية تؤثر في النشاط العلمي ومنتجه والمشتغلين به، الذين عليهم أن يأخذوا منه موقفا، فكرا وسلوكا، إقرارا أو إنكارا، أو حتى مواقف وسطية.

وإذا كانت المجموعة الثانية تشير إلى حالة العلم، نظرية ومنهجا وموقفا من المجتمع، متمثلا في الوظائف التي على العلم أن يقوم بها، فإن كلتا المجموعتين مجتمعتين أثرتا في النشاط العلمي وتوجهاته، وأفضتا في الوطن العربي -مثلا- إلى النظرة إليه نظرة لامبالاة وإهمال، أو خوف وتوجس أو قبول روتيني محدود من باب استكمال أشكال الأشياء وإلى اختيار المشتغلين به - بوعي أو بدونه - لأدوار رسمية محدودة، انحصرت في التلقين داخل قاعات الدرس، غير متجاوزة أسوار الجامعات.

في توصيفه لوضعية علم الاجتماع في الأقطار العربية يقول عبد المعطي حجازي إن «الجهد السوسيولوجي في الوطن العربي ليس استثناء. فهو تأثر ولا يزال، سلبا أو إيجابا بنمط العلاقات السائدة في المجتمع، بين الجماعات وبين حائزي القوة والخاضعين لها، وبين المجتمع العربي بأقطاره وبين المجتمع الدولي بتناقضاته وما تسيطر عليه من قوى اقتصادية وسياسية، وحصاد كل هذا يمكن أن يتيح فرصا للباحثين للعمل للإبداع لتطوير علمهم وشحذه نظريا ومنهجيا وتحقيق التزامه بقضايا الوطن كما يمكن أن يحول دون التقدم خطوة أو التحرك ولو قيد أنملة»(14).

في بحث مطول له، حول «وضعية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي بين أزمتي الواقع والفكر» (15) يتناول الباحث أحمد سالم الأحمر بالدرس ما يسميه بجذور أزمة العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، ويرجعها إلى العوامل التالية:

- تخلف البلاد العربية، وخاصة من الناحية العلمية، نتيجة لخضوعها الطويل للسيطرة العثمانية وللاستعمار الغربي.
- عدم توفر رصيد اجتماعي تراكمي حديث منطلق أساسا من واقع الأمة العربية.
- انفصام التفكير الاجتماعي المعاصر في الوطن العربي عن جذوره الفكرية.

يؤكد المفكر العربي الدكتور عزت حجازي، على أن **أزمة الشباب العربي، أزمة ثقافية وأزمة مجتمع، وأنها أزمة** مركبة ومعقدة ومتداخلة **العناصر**. وشدد بالخصوص على أن المناخ الراهن لا يسمح بالبحث والنشر العلمي والأكاديمي. وأرجع هذه الوضعية إلى «طبيعة بنية المجتمعات العربية، المتسمة بتخلف نظام الإنتاج، والعلاقات الاجتماعية، وتطور أسلوب العمل العام فيها» (16). **فالشباب العربي، على غرار كافة شرائح وقطاعات المجتمع العربي، غير مدروس، دراسة علمية كافية**، وما نعرفه عنه، إما منقول عن غيره، وملصق به إلصاقا. وحتى القليل من البحوث والدراسات التي أنجزت في هذا القطر أو ذاك «جاءت كلها جزرا منعزلة لا تربط بينها أرض واحدة: لا يمهد السابق منها للاّحق، ولا ينطلق الحديث فيها من النقطة التي انتهى عندها القديم، فضاعت فرص الاستفادة من التجارب النظرية والمنهجية، وأهدرت فرص الاستمرارية والتراكم اللازمين لنمو العلم وتطوره وخلق أرضية صلبة يمكن أن يقوم عليها التطبيق» (17).

فالبحوث التي اهتمت بالشباب في الأقطار العربية، من أفق نظرية ومنهج العلوم الاجتماعية شحيحة، بل إنها منعدمة، باستثناء بعض البيانات الإحصائية،

والتقارير الرسمية/ الحكومية التي تفتقد للصرامة المنهجية والأكاديمية. وضمن هذا الفراغ الأكاديمي في التعاطي مع المسألة الشبابية، صدر سنة 2000 كتاب للباحث المغربي، عبد الرحيم العطري، تحت عنوان «سوسيولوجيا الشباب المغربي: جدل الإدماج والتهميش». ويرجع المؤلف الدواعي والأسباب التي دفعته لإنجاز هذا البحث، فيؤكد أن «الحاجة إلى سوسيولوجيا الشباب كان البدء، وعبر ما يعتمل داخل المؤسسة الأسرية من سلطة أبوية وتدجين اجتماعي، وما يتلو ذلك من ثورة مضادة، ومن خلال الانفتاح على جانب شقي من المسألة الشبابية انطلاقا من عنف المؤسسة التعليمية واستراتيجيات إعادة الإنتاج التي ترتكن إليها، استمر الاشتغال على علاقات معينة يدشنها الشباب مع مجتمعه، وما ينجم عنها من وضعيات لا تكون سوية في غالب الأحيان» (18).

ويتابع «من أسئلة الحضور والغياب الشبابي في المشهد الحزبي وآليات الإدماج والتطبيع والتهميش التي يجابه بها مالكو وسائل الإنتاج والإكراه طموحات الشباب وتطلعاتهم المشروعة، من هذه الأسئلة المستفزة إلى البعد الاستهلاكي وثقافة الاغتراب في اللهاث وراء الموضة، فالحديث عن مؤسسة دار الشباب المغربية كمؤسسة يفترض فيها أن تكون للشباب أولا وأخيرا، فعبر هذا المسار العلائقي المحكوم بجدل الإدماج والتهميش كان، وسيستمر البحث عن معنى ما لأن يكون الإنسان شابا هنا والآن ؟» (19).

تتأكد اليوم، في عالمنا العربي، الحاجة الملحة إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية، وخاصة علم الاجتماع، من أجل البحث عن حلول لمشكلاتنا وقضايانا. غير أنه يتعين علينا، وفي المقام الأول المبادرة، في البحث عن أسباب أزمة تفكيرنا الاجتماعي لإنقاذ واقعنا العربي المتأزم، لأن هذه المسألة بالنسبة لنا أمر ضروري وليست ترفا فكريا. وهذا لا يتم ما لم نوفر الشروط الضرورية لإنتاج معرفة نقدية وموضوعية، «فالإبداع الفكري في أي مجال من مجالات المعرفة يحتاج إلى مقومات مادية ومعنوية، وتراكم معرفي، وبيئة مضيافة تتقبل كل جديد صالح، وتتخلى عن كل قديم ضار بدون تزمت وتعصب أعمى، وجو ديمقراطي سليم يسمح بالتفكير الحر، ويشجع على تطبيق نتائج البحث العلمي التي تهدف إلى تحسين أوضاع الإنسان» (20).

الهوامش والإحالات

1) د. سعد الدين إبراهيم، «تأمل الآفاق المستقبلية لعلم الاجتماع في الوطن العربي: من إثبات الوجود إلى تحقيق الوعود»، نحو علم اجتماع عربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986، ص 346- 347

2) يقول الدكتور رضوان السيد، باحث وكاتب من لبنان، في تقديمه لكتاب «نحو علم اجتماع عربي»، مجلة «الوحدة العربية»، العدد 50، نوفمبر 1988، ص 185. بأن «العلوم الاجتماعية»، حقل شديد الخطورة، بسبب اتساعه، وسيطرته على سائر حقول المعرفة في العلوم الإنسانية، بحيث صار هناك علم اجتماع للمعرفة، وآخر للسياسة، وثالث للثقافة، ورابع للمدينة، وخامس للريف...الخ. وبتعبير آخر فإن «الاجتماعي» صار مفهوما شديد العمومية، شأنه في ذلك شأن مفهوم التاريخ في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

**) كتاب -نحو علم اجتماع عربي-، هو عبارة عن مجموعة من الدراسات التي سبق نشرها في مجلة «المستقبل العربي»، وتتناول البحث في مدى الحاجة إلى علم اجتماع عربي، وقدرة المناهج الحالية لعلم الاجتماع على معالجة المشكلات المختلفة التي تواجه المجتمع العربي ويعاني منها.
ويضم الكتاب ثماني عشرة دراسة، اثنتا عشرة منها قدمت سابقا في الندوة التي أقامتها الجمعية العربية لعلم الاجتماع بعنوان «نحو علم اجتماع عربي» والتي عقدت في تونس خلال كانون الثاني/ يناير 1985 وتم نشرها في «المستقبل العربي»، وهي لا تمثل كل الدراسات التي قدمت في تلك الندوة، وإنما ما ارتأت

المجلة نشره منها. وتمثل الدراسات الأخرى، ما نشرته «المستقبل العربي» حول الموضوع نفسه في مناسبات أخرى، منها ندوتان للمجلة حوله.
وقد تم تصنيف الدراسات ونشرها تحت أقسام رئيسية ثلاثة: القسم الأول عن طبيعة الأزمة، ويضم عشرة أبحاث، والثاني دراسة حالات ويضم خمسة أبحاث، والثالث بعنوان نظرة مستقبلية ويضم ثلاثة أبحاث أحدها ندوة للمجلة حول الموضوع.
وتركزت محاور الدراسات حول: الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع في الوطن العربي، علوم الاجتماع والمشكلات الاجتماعية العربية، أزمة علم الاجتماع أم أزمة المجتمع، من الإشكاليات المنهجية في الطريق العربي إلى علم اجتماع المعرفة، المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع العربي، علم الاجتماع والصراع الايديولوجي في المجتمع العربي، المثقف العربي والالتزام الايديولوجي، التخلف الثقافي النفسي كمفهوم بحث في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث، الاجتماعيون العرب ودراسة القضايا المجتمعية العربية، علم الاجتماع وقضايا الإنسان العربي، بناء المجتمع العربي، التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي، ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب، علم الاجتماع في تونس، إشكالية الكتابة السوسيولوجية في المغرب، تأمل الآفاق المستقبلية لعلم الاجتماع في الوطن العربي، في استشراف مستقبل علم الاجتماع في الوطن العربي، ونحو علم اجتماع عربي.
3) بيار بورديو (1930-2002): عالم اجتماع فرنسي، يعتمد منهجه على أساليب بحث مستقاة من فروع متباينة من المعرفة كالفلسفة والنظرية الأدبية وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا.
4) Galland Olivier, Sociologie de la jeunesse. L'entrée dans la vie, Armand Colin, 1991, réédition en 2001.
5) للتوسع راجع:
La jeunesse et le sport : réalités et discours, par Gilbert KREBS, in histoire du sport et de la jeunesse, Etudes réunies par Jean-François TOURNADRE, publication de l'institut d'Allemand d'Asnières, 2000
6) Entretien avec Anne-Marie Métailié, paru dans les jeunes et le premier emploi, Paris, Association des Ages, 1978, pp 520-530. Repris in Questions de sociologie, Editions de Minuit, 1984, Ed. 1992 pp. 143-154
7) Pierre BOURDIEU, Questions de sociologie, éditions de Minuit, 1984, Ed. 1992 pp. 143-154
8) بيار بورديو، مصدر سابق، 143-154
9) بيار بورديو، مصدر سابق، 143-154
10) بيار بورديو، مصدر سابق، 143-154
11) مارغريت ميد (1901-1978)، عالمة الإنسان الأميركية، قامت بدراسة القوميات في ساموا، نيوغينيا وجزر المحيط الهادئ. لم يقتصر بحثها في علم الإنسان على البعد الأكاديمي، بل كان مغامرة في أدق التفاصيل الحياتية لهذه المجتمعات المختلفة عن الغرب، فغاصت في المعيش اليومي لهذه القبائل بكل تفاصيله، من حفلات الرقص البالينية الشعائرية إلى الوشم البولينيسي، حيث منحها كل ذلك سحراً عظيماً، عبرت عنه في كتابها الذي يحمل عنوان «سن الرشد في ساموا».
12) ديفيد انغليز وجون هغسون، سوسيولوجيا الفن.. طرق للرؤية، سلسلة «عالم المعرفة» الكويت، 2007، ص 17
13) د. عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة «عالم المعرفة» الكويت، 1981، ص 5-8
14) عبد الباسط عبد المعطي، مصدر سابق، ص 167
15) أنظر، أحمد سالم الأحمر، «وضعية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي بين أزمتي الواقع والفكر»، مجلة «الوحدة» العدد 50، 1988، ص 8-9
16) عزت حجازي، الشباب العربي ومشكلاته، سلسلة عالم المعرفة الكويت، 1985، ص 217-241
17) عزت حجازي، مصدر سابق، 217-241
18) عبد الرحيم العطري، سوسيولوجيا الشباب المغربي.. جدل الإدماج والتهميش، المغرب، 200، ص 99-100
19) عبد الرحمان عطري، مصدر سابق، ص 99-100
20) أنظر، أحمد سالم الأحمر، «وضعية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي بين أزمتي الواقع والفكر»، مجلة «الوحدة» العدد 50، 1988، ص 7

الشّباب التونسيّ والثّقافة الرّقميّة : رهانات وتحدّيات

منذر عافي (*)

- كيف يتعين استخدام تقنيات المعلومات والاتصال في تونس بوصفها أدوات للانسجام الاجتماعي، هل يمكن تلافي ظهور مجتمع بسرعتين مختلفتين من خلال تملك غير متكافئ لهذه التقنيات ؟

كيف يمكن تثمين الإمكانات الهائلة للبلاد من أجل تأسيس اقتصاد للمعرفة كفيل بتطوير صناعة وطنية تنافسية فعالة لتقنيات المعلومات والاتصال؟

وماهي السبل الكفيلة بإنجاح عملية تملك الشباب لتقنيات المعلومات والاتصال وتطوير صناعة وطنية منتجة تنافسية لتقنيات المعلومات والاتصال؟ :

يحسن بنا عند الإجابة عن هذه الأسئلة أن نبحث في العلاقة الممكنة بين التكنولوجيات الرقمية والتنمية بوصفها نشاطا اجتماعيا. لا سيما وأن الهاجس المركزي الذي انطلقت منه تونس وهي تخوض غمار الرقمنة هو اعتبار الشباب أساسا للتقدم لأنه المتقبل الأمثل للتقنيات الرقميةفي إطار الارتباط الاجتماعي ولديه القدرة على توظيف التقنية وتحقيق تقدم في مستوى معيشته وتوجيه سلوكه ومعرفته من أجل الصالح العام.

ولا يتسنى ذلك إلا من خلال ملاءمة البنى العقلية والمعارف العلمية مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي للبلاد.. وهذا الأساس هو الأكثر فاعلية في عصر المعلومات، وقد يتدعم إذا انطلقنا من فضاء تتميز فيه الهياكل الاجتماعية بتحولاتها السريعة والدائمة. وهو فضاء يجعل إمكانيات الارتقاء سانحة إلى حد بعيد ويساعد الشباب على لعب دور قيادي في بناء المعرفة.

وفي الواقع إن حاجات الشباب المتنامية للمعرفة أضحت تستوجب الربط بين التنمية الرقمية التي هي جوهر التقدم الاقتصادي ومجالات الإنتاج. ولذلك سرعان ما ساد خطاب تنموي في تونس يقوم على نتائج الثورة المعلوماتية ويعتبرها طريقا مختصرا للتنمية الاقتصادية ومجالا حيويا لتنشيط المبادلات التجارية الدولية ولاجتذاب رؤوس الأموال الأجنبية واستمالة الصناعات الرقمية.

ويتم ذلك عبر دفع فئات الشباب المعنية بالتحول الرقمي إلى رسم وتخطيط نوعية البرمجة الرقمية التي

*) باحث، تونس

يرغبون فيها، لأن هذا العمل هو المسلك الوحيد الذي يجعلنا نتفادى الأخطاء الناتجة عن عملية الاتصال الإلكتروني، كما إنه خطوة تقوم على المعرفة العملية التي تخص المشروع المجتمعي الجديد. إن هذه العوامل يمكن تسميتها عوامل "الضبط" لأنها تساعد على كشف آليات التناقض في مشروع التنمية القائم على المعلوماتية، ويشكل الاحتياط من الآثار السلبية للرقمنة في تونس المنطلق الأساسي للفهم العلمي للتنمية.. إذا اعتبرنا إن جوهر التنمية البديلة في تونس أن تطوع الحاسوب والبرمجيات الرقمية بعد أن عمم نظام التصرف الإلكتروني في الاتصالات والمعطيات لا فقط في مستوى النصوص بل أيضا في مستوى الصور. وتؤكد هذه الاستعمالات أهمية العنصر الثقافي باعتبار أن الأثر الذي تبثه أثر ثقافي يحمل في طياته رسالة اقتصادية تتعلق أساسا بكون ذلك الأثر الثقافي يمر في إرساله عبر وسائط إلكترونية وشبكات وسيطة تصل ما بين الأطراف المختلفة للمؤسسات وتمكن من توفير وثائق ومستندات إلكترونية تلعب أدوارا تنموية واجتماعية. ويعتبر الترابط بين الوسائل الرقمية للاتصال والاستراتيجيات التنموية أمرا مساعدا على مراكمة الثروة ومضاعفة الاستثمارات الاقتصادية.

وقد دفعت هذه العوامل إلى التفكير في صياغة تصورات دقيقة حول حالة المجتمع السياسية والاقتصادية والثقافية ومن ثمة يتم التفكير في انخراط الشباب بصفة فعلية في مشروع الثورة الرقمية والارتباط بشبكات الاتصال الإلكتروني. مع العمل على استثمار نتائج البحوث التي تنجز في هذا المستوى من أجل تقديم البدائل الثقافية والاقتصادية لمشاريع التنمية التي كانت سائدة في المجتمع التونسي إلى حدود سنة 1986 تاريخ انطلاق برنامج الإصلاح الهيكلي. أشار الباحث الاقتصادي التونسي الشاذلي العياري في دراسة أنجزها إلى أن نجاح الخوصصة في تونس في الحاضر وفي المستقبل يتوقف على إيجاد مناخ اقتصادي واجتماعي عام ملائم وطنيا وكذلك على المستوى الدولي. و هذا لا يعني تكديس الأرباح من قبل المؤسسات المخوصصة فقط بل النجاح الحقيقي يكمن أساسا في قدرة المنشآت الخاصة على توفير السلع والخدمات المطلوبة بصفة مرْضية كمّا وكيفا ونوعا وسعرا. وقد ساعدت هذه المرحلة على الارتقاء بالتحليل الاجتماعي والاقتصادي في تونس من المستوى التجريدي إلى مستوى الواقع التجريبي.

لقد استفاد الشباب التونسي خلال السنوات القليلة الماضية من الفرص التي أتاحتها تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وساهم في تطوير اقتصادها وتحقيق معدلات مرتفعة في أدائها التنموي، وذلك من خلال تسطير الاستراتيجيات الضرورية، وإرساء المقاربات الدقيقة لتنفيذها وتطوير خطط عمل وطنية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات كجزء من أهداف الدولة التنموية.

ولقد اعتبرت المعلوماتية إضافة إلى كونها قادرة على شدّ أزر الشباب ومساعدتهم على بيع وشراء المعلومات وخدماتها المختلفة إطارا معرفيا يمكن من بث قيم المجتمع والإسهام في خلق «بيئة ذكية».. ومما لا شك فيه أن الحواسيب تحتوي مثل هذه الأسس بما أنها سوف تساعد النخب الشبابية على إحكام التصرف في المعلومات الثقافية، وستلعب بذلك دورا قياديا في الربط بين الثقافة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، بما يساعد على صياغة نماذج اجتماعية ونماذج إلكترونية تمكّن جميعها من القيام بمهمات أكثر ذكاء.

ولن يتم ذلك إلا عبر توظيف البرامج الإعلامية توظيفا جيدا ومزيد الإنفاق عليها. ويستوجب إنجاح مشروع رقمنة المجتمع الانسجام التام بين الدولة والمجتمع المدني والاتفاق على أساس معين للتطور يجمع بين التوازن الاقتصادي وزيادة فاعلية قطاعي الصناعة والفلاحة وتطوير المؤسسات الثقافية والإبداعية بما يخدم اهتمامات الشباب وتطلعاته الرقميّة.

إن التنمية الاقتصادية والإجتماعية لن يكون لها معنى ولن تتحقق إذا غضضنا النظر عن الشباب باعتبار تأثيره

المباشر في التنمية الثقافية. وتشير التنمية هنا إلى ثلاثة مستويات رئيسية :

1 ـ تأثير الثقافة الرقميّة في التّنمية الاقتصادية والاجتماعية :

2 ـ الإجراءات الواجب اتخاذها في مستوى الفعل الثقافي من أجل الإسراع بعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

3 ـ الاستعمال الملائم من قبل الشباب للوسائل المادية خاصة تلك المتعلقة بالتنظيم والتصرف في وسائط الاتصال.

وتستدعي هذه العمليات أنماطا من السلوك يختص بها المجتمع ككل وسلوك فردي في إطار من التجانس والانسجام اللذين يساعدان على استيعاب نتائج الثورة الرقمية. ويمكننا اعتبار الإعلامية بخلاف كل الأجهزة الاتصالية التقليدية الأخرى حقلا ثقافيا يتضمن تعددا في النماذج وهي أي المعلوماتية تحتوي النسق الثقافي بما فيه المعلومات التي يتحكم في إدارتها المجتمع، إلى جانب رموز التواصل والتفاعل لدى أفراده. يعني ذلك أن الإعلامية تؤدي وظيفة مزدوجة فهي تجمع بين مخزون الذاكرة الجماعية والممارسة العملية وهي مسألة تساعد على صياغة توجيهات وتعليمات ذات فاعلية في سوق المعلومات الرمزي تكون محكومة بضوابط علمية دقيقة من أجل إحداث التغيير وصياغة الأهداف المجتمعية المطلوبة.

وليس هناك من وسيلة لمواجهة التراكمات التي تعرفها هذه الصناعة وإحداث تغيير نوعي إلا بالانطلاق من رؤية شمولية تسمح بدراسة المجتمع التونسي وفهم قضاياه وتحديد ملامح مشروعه المستقبلي دون فصله عن محيطه الإفريقي والعربي والعالمي. قال الرئيس بن علي في حديث أدلى به إلى صحيفة واشنطن بوسط الأمريكية سنة 2004 إن هذا الفعل التونسي على المستوى الخارجي والدولي في مجال تكريس مجتمع المعلومات يتوازى مع جهدنا الداخلي إذ أن بناء مجتمع المعلومات والاتصال يشكل بالنسبة لبلادنا خيارا جوهريا عملنا على تجسيمه في إطار مقاربة شاملة تجد عناوينها البارزة في الإصلاحات الهيكلية المتواصلة وفي دعم البنية الأساسية لتكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية باعتبارها أهم ركائز اقتصاد المعرفة وعاملا أساسيا لدفع نسق النمو. وفي هذا السياق عملنا على تنمية قدراتنا البشرية وعممنا تدريس الإعلامية في مختلف المستويات التعليمية وأحدثنا معاهد عليا للدراسات التكنولوجية وأقمنا أقطابا تكنولوجية وفضاءات للمشاريع المجددة في كل ولايات البلاد إلى جانب تكوين المختصين في الاتصالات والمعلوماتية وتحفيزهم على تنمية قدراتهم واستيعاب ما يستجد من تكنولوجيات حديثة والسهر على توظيفها تحقيقا لأهداف التنمية. كما حرصنا على نشر الثقافة الرقمية على أوسع نطاق من خلال وسائل الإعلام ومراكز الإعلامية الموجهة للأطفال وربط المؤسسات التربوية من المرحلة الابتدائية إلى الجامعة بشبكة الانترنات فضلا عن تعميم نوادي الإعلامية والانترنات في الفضاءات الثقافية وبعث شبكة من مراكز الانترنات المفتوحة للعموم وكذلك تمكين الأسر التونسية متوسطة الدخل من تسهيلات وحوافز لاقتناء حواسيب عائلية على نطاق واسع بل وأحدثنا حافلات مجهزة بوسائل الانترنات تجوب المناطق الريفية النائية.

وقد تمكنت تونس بفضل هذه الاستراتيجية من الترفيع في عدد الشباب المرتبطين بشبكات الاتصال. وفاقت الإنجازات في مجال نشر خدمات الاتصال وتعميمها بين الشباب منذ التحول 13 مرة ما تم إنجازه خلال قرن كامل. وتطور حجم الاستثمارات المخصصة للقطاع.

2 ـ المعلوماتية : رهان تنمويّ هامّ

تتطلب التحديات التنموية الجديدة في ضوء العولمة بناء شبكات معلوماتية تونسية لتبادل المعطيات والمعلومات المتصلة بجميع مسالك الحياة. والعمل على إتقان هذه العملية بعد أن أضحت الجودة قاسما مشتركا

بين المتعاملين على أساس المنافسة من أجل التحكم في منابع المعلومات.

أبرز تقرير صادر عن الاتحاد الدولي للاتصالات سنة 2007 التطور الذي حققته تونس في مجال تكنولوجيات المعلومات . وأكد أن تونس كانت البلد الإفريقي والعربي الوحيد الذي ارتبط بشبكة الانترنات سنة 1991 وهي تتمتع بأكبر ثاني خط للنفاذ إلى الشبكة . ففي الوقت الذي تسجل فيه الخطوط الهاتفية القارة تراجعا سجلت خطوط الهاتف الجوال قفزة كبيرة في كامل البلاد بعد منح رخصة المشغل الثاني سنة 2002 حيث أصبحت شبكة الهاتف الجوال تشمل كل السكان.

ويرتبط استعمال المعلوماتية في تونس بآليات سياسية واقتصادية مختلفة تتماشى والرغبة في تحقيق التنمية والزيادة في الأرباح الاقتصادية، والتقليص من التبعية الإنتاجية. وهذا الأمر جعل دور الدولة أساسيا في مستوى انتشار المعلوماتية عبر توخي سبل تقوم على دراسة عميقة وضبط محكم للنقائص. ولقد توصلت بفضل هذا المجهود إلى إبرام مجموعة من الاتفاقيات للتبادل التجاري مع الشركات المزودة للخدمات، مما أدى إلى تعاظم الإنفاق على الواردات وإعطاء امتيازات أكبر للمورّدين.

لذلك حدث تغيير في مستوى نقل المعلوماتية تمثل في وضع عدد من الضوابط والمقاييس التي تسمح للشركات بالمساهمة في تدّفق البرمجيات الرّقمية الجيّدة إلى تونس. إلى جانب تشجيع الدولة للاستثمار الداخلي في ميدان البرمجيات والأجهزة. وهو أمر مكّن مختلف مكونات المجتمع وخاصة الشباب من الوصول إلى الحدود القصوى في الاستفادة من المعلومات ذات أوجه الاستعمال المتعددة. وهو مشروع مجتمعي يتركز على جدلية الحاجيات المعلوماتية الأساسية للمجتمع تضطلع فيه الدولة بمسؤولية كبرى وذلك من خلال خلال دراسة وتعديل التشريعات والقوانين ذات الصلة بالمعلومات والاتصالات والتكنولوجيات، إلى جانب تشجيع عملية النمو وخلق فرص هائلة للتوظيف وتشجيع الاستثمارات المحلية والأجنبية. وعلى صعيد آخر، فإن الاستثمار والأنشطة الاقتصادية المحسنة يتطلب إيجاد بنية تحتية أفضل وقدرات بشرية لها مكونة تكوينا جيدا.

فنّ إدارة المجتمع رقميّا

تندرج هذه العناصر في إطار ما يسمى بفن إدارة المجتمع بواسطة المعلوماتية في سياق نمط سياسي متطور قد يخلق توجهات تنموية رائدة تعمل الدول الصناعية على نشره. وقد لاحظ العديد من الباحثين الاجتماعيين عند تقويمهم المردود الاقتصادي ومحاولتهم فهم نوعية تقسيم العمل الدولي المترتب عن النمو الواسع لقطاع المعلوماتية والأنترنات، أن الفكر الاقتصادي والاجتماعي التقليدي لم يعد مناسبا للتعبير عن موجة المعلوماتية وعلى الأخص في ضوء ملاحظات الأزمة والركود في اقتصاديات هذا القطاع التي بدأت منذ الثلث الأخير من القرن العشرين.

تكمن الأسباب أساسا في التطور الذي بلغه القطاع المعلوماتي الرقمي مدشّنا بذلك ما يسمى «الدورة التراجعية» الكبرى. والمقصود هنا إنما هو القول بأن معظم الشبكات والبنى التحتية والتجهيزات الأساسية والأعتدة والبرمجيات قد بلغت مستويات من التطور يجعل مراهنة صناعيي الاتصالات على زيادة الاستثمار فيها أمرا غير ذي جدوى كبرى.

وستظهر في هذا السياق التقاني والمعلوماتي المتطور مجالات جديدة للتنمية وللتفكير في أزمة التنمية وسيجد «السياسي» الذي يتحدث مستقبلا عن مجتمع المعلومات نفسه في مواجهة عالم لا يعرف عنه إلا القليل بحكم عدم التخصص. فهل هو إيذان بقرب الانفصال بين «الاقتصادي» و«السياسي» بفعل المعلوماتية؟ أم هناك مجال آخر للحديث عن إمكان التواصل والترابط بين هؤلاء الفاعلين؟ وبذلك نضمن حدوث تحولات هيكلية سريعة وعميقة ومتوازنة في المجتمع التونسي بما أنه مجتمع مزود بخصائص التوازن وقبول التغيير وقادر على المحافظة على شروط الاستقرار الاقتصادي وضمان وجوده.

ولقد بدأت العملية بفهم المكونات المختلفة للحاسوب

(سرعة التشغيل، تعقيد الجهاز، إمكانية تقليص استهلاك الطاقة)، وهي مكونات غير منفصلة بل تعد من ضرورات تحليل المعطيات إضافة إلى البرمجيات المعربة في تونس. مما يجعل الشباب مسؤولا اجتماعيا وسياسيا عن تطوير الإعلامية وتبني مشاريع الدولة وتكريس التفاعل الايجابي والمثمر بين الدولة والمجتمع. بعد أن خلق عصر الثورة المعلوماتية وضعا جديدا وفرضه على المجتمعات الإنسانية فرضا. ونتيجة لذلك خلقت المعلوماتية في تونس حاجة إلى تنمية متوازنة ولهذه الحاجة ثلاثة أوجه :

ـ **الوجه الأول** يستوجب بناء مرتكزات نظرية للتنمية ذات قيمة عالمية، وتقوم على آليات الفهم العلمي.

ـ **الوجه الثاني** يقوم على ضبط عناصر التنمية الوطنية وتقدير الحاجيات النوعية من الأجهزة الإلكترونية وفق نظرة معيارية موحدة تتواءم مع التحديات المستقبلية.

ـ **الوجه الثالث يقتضي أن** تمارس المعلوماتية تأثيرا جليا في وعي الأفراد الاجتماعي وأن ترسي نوعا من التوافق الايجابي بين توجهات الدولة بهياكلها السياسية والإدارية وتطلعات المجتمع المدني.

وتعتبر هذه الجوانب اكثر إيجابية في عملية الدمج الذكي بين بعض وظائف الحواسيب ووسائل الإنتاج الرقمية من جهة وبين التنمية من جهة أخرى. وهي أمور تعطينا الانطباع بأن الإنجازات المعلوماتية ستكون في مستوى الحاجات المجتمعية المطلوبة في تونس من أجل تطوير العمل الجماعي وربط المعرفة بالإنتاج. ولا ريب في أن التنمية التي اختارت تونس الانخراط فيها هي تنمية واقعية وعقلانية وتجريبية تهدف إلى غايات مجتمعية تمتلك منطقا داخليا متماسكا. كما أنه غير خاف علينا ما في هذا الاتجاه الذي ستأخذه المعلوماتية في عملية التنمية من دمج للنظم الاتصالية المختلفة مع مجموع المبادئ والمعايير التي يحكم نشاط الدولة ويوجه استثمار الموارد الطبيعية وينظم مشاريع التخطيط والاستشراف الرامية إلى تجاوز العجز عن مواجهة مطالب أغلبية الجماهير

وإتاحة البدائل الممكنة للدخول في إطار المنافسة العالمية اعتمادا على مرونة الأسواق الرقمية الدولية.

إن الأجهزة الإدارية ستكون فضاء ملائما لتلقي وبث المعلومات والأفكار التنموية، تحركها في ذلك حوافز مخصوصة وموجهة تقوم على ضرورة التواصل بين الناس حاكمين ومحكومين، وتيسير التبادل وفق قواعد لعبة واضحة هي لعبة المنافسة من أجل خلق فوائض معلوماتية بناء على نمط الإنتاج الجديد المتميز بعدم التناقض الجوهري بين الحاجة الشعبية إلى هذه المعلومات وعملية خلقها وإنتاجها، إذ أن المعلومات تنطوي على قيمة اقتصادية لا يستهان بها وهي قيمة تخضع لنفس الشروط التي تخضع إليها السلع المادية.

إن الانخراط في النظام الرقمي العالمي الجديد بات أمرا لا مفر منه. فهو الشرط الرئيسي لإحداث نقلة مجتمعية وإنجاز التنمية المطلوبة.. وهو أمر رهين بانتظام التوسع الدائم في القدرة الاستيعابية للمجتمع، وأهم نقطة في هذا الصدد هي استيعاب المعرفة ونمو القدرة الذاتية على مواءمة التقنية مع احتياجات المجتمع.

ونرى اليوم كيف أن الحاسوب والثورة الرقمية تتطور بسرعة فائقة جعلت التنظيم الاجتماعي يمر بنقلة نوعية، وهو ما يجعل الأمل قائما في بناء الذات وتحقيق التقدم في تونس بصفة تأخذ بعين الاعتبار الطموحات الوطنية والواقع العالمي المتسم بكثافة التحولات. ومن هنا يمكن القول إن نشر التقنيات الجديدة في تونس يستوجب تكوينا جديدا للشباب في سبيل ضبط نسق التطور وإنجاح البرامج المطروحة.

4 ـ مجتمع المعلومات والشباب في الخطاب السياسي التونسي :

أين يمكن أن نصنف تونس في إطار الثورة المعلوماتية؟ دخلت تونس فعليا عصر المعلومات، وسايرت نسق التطور السريع الذي يشهده العالم. وسيكون لهذا التطور تبعات على المستوى الاقتصادي والثقافي وهي

تبعات كبيرة لكن هل تغيرت أساليب الحياة عملا وترفيها وإعلاما وسلوكا؟

يبدو أن الحل كان سياسيا في البداية. وهو حل لا يخلو من طموح تنموي يراهن على نتائج العلم والمعرفة والإفادة من المعرفة العلمية من أجل إبداع وتطوير تقنيات إنتاج السلع والخدمات التي يحتاجها الشباب. ويتطلب ذلك أن تلعب الدولة دورا رئيسيا في تطوير الخدمات الضرورية رغم أن تحقيق هذه الأمور جميعها يستوجب الإحساس بالفارق الحضاري بين ما بلغته المجتمعات الغربية ودول شرق آسيا وبين ما وصلناه نحن اليوم. والواقع أن الإحساس وحده لا يكفي بل المطلوب إيجاد أرضية معرفية تمكننا من السيطرة على العلوم الأساسية التي تستند إليها البحوث التطبيقية في ميدان المعلوماتية.

تبرز التقارير الصادرة في تونس أن قطاع الاتصالات قد عرف بفروعه الثلاثة البريد والاتّصالات والإرسال الإذاعي والتلفزي نقلة نوعية بعد أن حظي الشباب بأولوية سياسية كبرى تجسّمت بالخصوص من خلال مضاعفة المجهود الاستثماري الموجه إليه وإدخال إصلاحات تنظيميّة وهيكليّة ساهمت في تحقيق الإنجازات وتنفيذ المشاريع. وقد انبنت الخطة التنموية لقطاع تكنولوجيات الاتّصال، خلال المخطط الحادي عشر للتنمية(2007/ 2011)، على دعم هذا المجهود الذي يرمي إلى مزيد تحسين نسق نموّ القطاع بما يتماشى ومقتضيات المرحلة القادمة في المسيرة التنمويّة للبلاد وبرنامج تأهيل الاقتصاد الوطني.، والذي مثّلت نقاطه الخطوط العريضة تباعا للمخطّطين العاشر والحادي عشر للتنمية قامت على جملة من التصورات الاستراتيجية التي تراعي التحوّلات الكبرى المسجّلة على المستوى العالمي من جهة، وتدفع حركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ببلادنا من جهة ثانية، نذكر منها على وجه الخصوص. ومن أجل فهم هذه الأبعاد الدقيقة المرتبطة بالمعلوماتية يجب أن ننطلق من المعلومات بما هي حقيقة ماثلة أي بما هي نشاط مجموعة الأنظمة والخلايا الإلكترونية التي تشكل السيرورة التي من خلالها نحصل على المعلومات ونكيفها حسب حاجتنا إليها.

لقد ساعدت المعلوماتية على خلق إمكانات مادية حقيقية لتطوير التجربة الفردية والخبرة، بعد أن صار التعامل مع الرقميات والتفاعل الايجابي معها وتحديد ضوابط استعمالها يمثل الخيارات الوحيدة والممكنة التي ستسهم في بناء منظومة مجتمعية وحضارية جديدة وتدفع تونس إلى الانخراط بتوازن في النظام العالمي الجديد باعتبار قدرتها على إيجاد طرق أفضل للتنمية والزيادة من ثرواتها وكفاءة مواردها البشرية في التعامل مع نظم المعلومات التي تؤدي إلى إنتاج تلك المواد التنموية. لا سيما وأن التنمية ليست شيئا يستورد كما تستورد التقنية وهي لا تعني التقدم الرقمي فقط إذ أن هذه الأبنية التنموية يجب أن تمر بمجموعة معقدة من المراحل المتعاقبة.

ومن الجلي أن التنمية في تونس حددتها عوامل عديدة يتعلق بعضها بمدى توافر الموارد الطبيعية وتطور الصناعة والزراعة إضافة إلى وجود اليد العاملة المختصة، وهذا تطلب بطبيعة الحال مواصلة إعادة هيكلة القطاع المعلوماتي، ودعم مساهمة القطاع الخاص لتوفير التجهيزات والخدمات، المواكبة لتطوّر السوق، ولضمان تحسين الجودة. مع التركيز على تبسيط الإجراءات وتوسيع الشبكات الوطنية للاتّصالات لمواجهة الطلبات والحاجيات المستقبليّة في مجال خدمات الاتّصال الموجهة إلى الشباب، ولإدماجها بالشبكات العالميّة، قصد دعم إشعاع تونس وتفتّحها على الخارج.

ويتم هذا عبر تطوير الخدمات وتنويعها، وذلك بالاعتماد على الاختيارات التكنولوجية الحديثة، وعلى تنمية الخدمات الجديدة والخدمات ذات القيمة المضافة، للمساهمة في دعم قدرة المؤسسات الاقتصادية الوطنية على المنافسة، إلى جانب اتّباع سياسة تجاريّة ترمي إلى دراسة حاجة السوق ومواكبتها من الناحيتين الكميّة والنوعيّة. وإعادة النظر في طرق تسويق الخدمات وضبط التعريفات. ومن الضروري جدا تحديد أهمية المعلومات

وإخضاعها للنظام الذهني والثقافي والإيديولوجي، واعتبار مسألة بناء سياق رقمي كوني يخترق كل الهياكل الإنسانية عنصرا مكملا لعملية بناء وتصنيع الجهاز الرقمي. ولا يكفي توصيف المواد المعلوماتية، بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى فهم كيفية اختراقها الاقتصاد والمجتمع والسياسية. كما أن كل الأنشطة الاقتصادية وعديد الأنشطة الأخرى التي لا يمكن اعتبارها اقتصادية انطلاقا من أنها غير تبادلية، مثل الخدمات العمومية والوظائف المنزلية لم تعد تنجز بمعزل عن المعلوماتية. وقد بتنا نشهد تطبيقا للمعلوماتية في مجالات متنوعة لكنها تتكرر يوميا، إضافة إلى عمليات الجباية والضمان الاجتماعي. بيد أنها قادرة كذلك على إنجاز مهام تنفيذية وذهنية مثل التصرف في الجداول الإحصائية وقيادة المحركات والتعليم المبرمج عن بعد.



الرّياضة للجميع في تونس في ظلّ الجودة الشاملة

بوبكر بن عبد الكريم
محمد الأمين بن عبد الرحمان (*)

مقدمة الدراسة :

أصبحت الرياضة في العصر الحديث من أبرز الاهتمامات التي تشغل البلدان والمجتمعات الحديثة في كامل أرجاء المعمورة، كما أثبتت الدراسات الحديثة مساهمة الرياضة في تطور العديد من الميادين وارتباطها بعدد من المجالات، بالإضافة إلى الدور الذي تلعبه في كافة محاور التنمية، ولعل لهذه الأسباب أصبحت الرياضة تحظى باهتمام المشاريع التنموية في المخططات الموضوعة من قبل الدول، و قد كانت بلادنا من المهتمين بتطوير الميدان الرياضي وأكبر دليل على ذلك القسط الذي يحظى به في المخططات التنموية بعد التغيرات التي شهدها المجتمع التونسي واهتمامه المتزايد يوما بعد اليوم بالأحداث الرياضية.

تعتبر الرياضة من الأنشطة الإنسانية المهمة التي كانت وسيلة لتلبية العديد من الحاجات التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، فقد كانت الرياضة عبارة عن لعبة أو وسيلة للحفاظ على سلامة الجسد وصحته، وقد عرفها الإنسان عبر عصوره وحضاراته المختلفة وإن اختلفت كل حضارة عن استغلال هذا النشاط من وجهة مختلفة، فمنها من اهتم بالرياضة لأغراض عسكرية سواء من أجل الدفاع عن النفس أو ضد الاستعمار مثلما هو الحال مع الحضارة الرومانية، والبعض الآخر اهتم بالرياضة لشغل أوقات الفراغ والترويح عن النفس أو حتى من أجل الاحتفالات والطقوس الدينية، كما اكتشف بعض المفكرين والتربويين القدماء مجموعة القيم والمبادئ التي تحفل بها الرياضة والتي تساهم في نشأة الأفراد وتكوينهم اجتماعيا إلى جانب الفائدة الصحية التي ارتبطت منذ القدم بممارسة الرياضة والتمارين البدنية، بل إنه حتى في نطاق خارج وعينا فإن للرياضة وجودًا مع تعاملنا في الحياة اليومية.

جاء البحث العلمي في الميدان الرياضي لايجاد حلول ومواجهة النتائج السلبية للحياة العصرية والمتمثلة في : قلة الحركة - المشكلات الصحية- الاكتظاظ السكني،

*) جامعيان، تونس

الضغط النفسي، انتشار ظاهرة الانتحار والاكتئاب وهو ما أدى إلى تطور الدراسات في العلوم والصحة واللياقة البدنية التي أكدت في نتائجها على ضرورة إتاحة الفرصة لكل شرائح المجتمع بمختلف أعمارهم وأوساطهم الاجتماعية وأجناسهم لممارسة الأنشطة الرياضية والبدنية نظرا لمردودها الإيجابي على جميع المستويات من ذلك (1) :

ـ 1966 مقترحات مجلس الدول الأوروبية حول تعميم الرياضة للجميع وضرورة ممارسة النشاط البدني لكافة الفئات العمرية ولكلا الجنسين ووضع حلول لمعوقات حركة الرياضة للجميع.

ـ 1975 تم وضع الميثاق الأوروبي للرياضة للجميع في بلجيكا الذي أكد على مبدأ "حق كل فرد في ممارسة الرياضة لفوائدها المتعددة».

ـ 1976 تأكيد مجلس الوزراء الأوروبي على أهمية ترسيخ فلسفة الرياضة للجميع في المجتمعات الأوروبية.

أكد مولت شفلييه Mollet على أن مفهوم الرياضة للجميع هو بمثابة امتداد لعامل التنمية الثقافية في النظام الاجتماعي ويجب أن يصل مفهومه للجميع لما يتضمنه من ركائز إيجابية لأكبر شريحة من الناس لرفع مستواهم البدني من خلال برامج موجهة ومنظمة (2).

ـ 1976 الدستور الأوروبي للرياضة للجميع أشار إلى الإنجازات التي يمكن تحقيقها من مزايا الرياضة للجميع وجهودها في زيادة مجالات التنمية الاجتماعية، البدنية، الصحية، النفسية، الثقافية والتواصل الاجتماعي الأوروبي.

ـ 1978 الميثاق الدولي للتربية البدنية والرياضة الصادر عن منظمة اليونسكو خلال الدورة 20 في باريس، نقطة تحول على الصعيد العالمي تجاه مفهوم الرياضة للجميع، المادة الأولى «ممارسة الرياضة للجميع حق أساسي لجميع الأفراد وفق برامج تتلاءم واحتياجات كل واحد منهم» (3).

ـ 1988 سامارانش Samaranch يشير إلى دعم اللجنة الأولمبية الدولية لحركة الرياضة للجميع وتنمية مفهومها العالمي الشامل لأنها أصبحت حقيقة ملموسة من حيث أنشطتها غير المحددة على فئة معينة، بل هي حاجة لجميع فئات الشعب، ومن مختلف الأعمار، لقيمها الانسانية، الصحية، والحاجة الفردية والجماعية لممارسة الرياضة (4).

ـ 1990 حللت الجمعية الدولية للرياضة للجميع TAFLSA دوافع الأفراد لممارسة الرياضة والمتمثلة في :

– الحصول على المتعة، القوام الجميل، التخلص من الضغط النفسي، ... فكانت الرياضة ردة فعل للتخلص من أمراض العصر والخمول والكسل.

ـ 1990 أسس سامارانش Samaranch لجنة الرياضة للجميع والتي تهدف إلى :

– تطبيق المبادئ والأسس الأولمبية

– تشجيع ودعم جهود المنظمات الأخرى المعنية بالرياضة للجميع وتشجيع جهودها خاصة في الدول النامية.

– دعم الرياضة للجميع من خلال رعاية المجالس العالمية لها.

وانطلاقا من ذلك لم تعد الرياضة اليوم من الكماليات أو شكلا من أشكال الترفيه فقط بل أصبح القيام بأنشطة رياضية والمشاركة فيها حقّا من حقوق الإنسان وممارسة ضرورية حتى يحيا الإنسان حياة صحية وسليمة.

في هذا الإطار عملت تونس على النهوض بالرياضة لتتخذ أبعادا تنموية مختلفة، تعنى أولا بالفرد صحيا وفكريا وتربويا وترفيهيا، وتبعا لذلك بالمجتمع لتصبح رافدا من روافد التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرياضية من خلال التشجيع على ممارسة النشاط البدني والرياضي ودعمه في المجتمع من خلال خيارات الرياضة للجميع مواكبة لتطور الرياضة الحديثة وأبعادها ومضامينها التنموية، باعتبارها :

– رهان هام على جميع المستويات، أنشئت لها المؤسسات والهيئات والهياكل رغبة في نشرها وتعميمها.

– رهان اقتصادي واجتماعي ولأنها وسيلة تمكن من تقارب الشعوب وفرص التواصل والتعارف.

– وهي رهان تنموي أيضا لأن الممارسة الرياضية أصبحت جزءا من نمط حياة الفرد مثلما أصبحت عنصر استقطاب سياحي للمجتمعات والدول حيث تستعملها لإبراز عاداتها وتقاليدها وطبيعة مجتمعها، كما تمثل وتحتل مكانة هامة في مجال التربية والصحة والترفيه وفي سياسات التنمية الاجتماعية.

لقد تطورت وسائل الإعلام كما تطورت الرياضة فالاتصال باستخدام العديد من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية يعتبر نشاطاً قديماً جداً، فمن الرسوم على جدران الكهوف ورواية القصص البطولية حول نيران المعسكرات إلى القنوات الفضائية والإذاعات والصحف المتخصصة (5).

لقد أدى انتشار وسائل الإعلام المختلفة إلى جعل الكثيرين يتساءلون عن الدور الفعلي الذي يمكن أن تلعبه وسائل الإعلام في الحياة الاجتماعية ومدى تأثيرها على الأفكار والاتجاهات والسلوك، لذلك أصبح من الضروري دراسة تأثير مضمون الإعلام على الجمهور والأفراد والذي يعتبر الهدف النهائي من هذه العمليات، خاصة المضمون الرياضي والبرامج الرياضية ممّا يجب أن يوظف لخدمة التنمية الرياضية للجمهور حتى يتجه الأفراد نحو الممارسة الرياضية كل حسب رغبته وقدرته وأهدافه (6).

يهدف الإعلام الرياضي بوسائله المختلفة إلى توعية وتثقيف مختلف فئات المجتمع التي تتابع هذه الوسائل (الإذاعة – التلفزيون – الصحف) باعتبارها أجهزة وأدوات ذات تأثير كبير في تشكيل أسلوب حياة الفرد نحو الممارسة الرياضية الايجابية بدلاً من المتابعة والمشاهدة السلبية وذلك عن طريق توعية وتثقيف الأفراد بأهمية ممارسة الرياضة.

فالدور الذي تقوم به وسائل الإعلام الرياضي شديد الأهمية من حيث اتساعه ومن حيث مدته ومن حيث جمهوره، إذ أصبح الكثير من الأفراد يقبلون على وسائل الإعلام الرياضي لأهداف كثيرة ومتعددة.

وقد لاحظ الباحثون من خلال متابعتهم لوسائل الإعلام أن الإعلام الرياضي بمختلف فئاته يهتم فقط بالرياضة التنافسية وخاصة كرة القدم، ويركز فقط على الخلافات بين الإداريين أنفسهم وبين الجهات الفنية، وأن حظ الأنشطة الرياضية الأخرى ضعيف جدا من حيث نشر ثقافة الممارسة وتوضيح المفاهيم الخاصة ببعض الألعاب، كما إن هناك اهتماما بلاعبي بعض الألعاب دون الأخرى، وأن الاهتمام يتركز على نتائج المباريات. بالإضافة إلى الأخطاء الكثيرة جدا فى المعلومات الخاصة بالأنشطة الرياضية .

مشكلة الدّراسة :

انطلاقا من الرهانات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للرياضة والرياضة للجميع في العالم بصفة عامة وفي تونس بصفة خاصة، فإننا نتساءل عن مكانة ومدى الممارسة الرياضية للجميع في تونس وعن مدى التطابق والتلاؤم بين أهداف السياسة الرياضية المنشودة والنتائج المحققة ميدانيا على مستوى الأسرة التونسية وما يقابلها في الهياكل الرياضية لخيار الرياضة للجميع.

وفي هذا الصدد نطمح من خلال هذا البحث للإجابة على التساؤلات التالية:

1 – واقع وآفاق الممارسة الرياضية من خلال الرياضة للجميع في تونس

2 – ما هي أهداف السياسة الرياضية في تونس وما هي مجالاتها ؟

3 – هل أن الفضاءات الرياضية مزودة وجاهزة لتنفيذ برامج وأهداف الرياضة للجميع في تعاطي النشاط الرياضي ؟

4 - إلى أي مدى وفّق هيكل الرياضة للجميع في التأطير للنشاط البدني والرياضي للجميع ؟

تساؤلات الدّراسة :

بناء على مخططات التنمية والبرامج والتوجيهات الرسمية ومساهمة الهياكل الرياضية والإعلامية في المجال الرياضي بصفة عامة وفي مجال الرياضة للجميع بصفة خاصة لفائدة دفع ممارسة النشاط البدني والرياضي للجميع في المجتمع التونسي فإننا نفترض وجود تطابق ذي دلالة إحصائية بين الأهداف الواردة في السياسة الرياضية للدولة والنتائج المحققة فعلا وميدانيا من خلال هياكل الرياضة للجميع من حيث التأطير والإعلام الرياضي.

الفرضيات الفرعية :

الفرضية الفرعية الأولى

نحن نفترض أن نجاح السياسة الرياضية ستجد له أثرا من خلال الإقبال على ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للجميع بصفة منتظمة.

الفرضية الفرعية الثانية :

نحن نفترض أن هياكل الرياضة للجميع وُفّقت في تأطير ممارسة للنشاط البدني والرياضي للجميع.

أهداف الدّراسة :

- التعرف على الوضع الراهن للرياضة للجميع في تونس من وجهة نظر الممارسين والمنفذين والمشرفين.

- معرفة مدى تطابق الأهداف الواردة في السياسة الرياضية للدولة مع النتائج المحققة .

- أثر السياسة الرياضية في مستوى ممارسة الأسرة التونسية للرياضة للجميع.

- دور الفضاءات الرياضية في تعاطي النشاط البدني والرياضي للجميع.

- مدى مساهمة هيكل الرياضة للجميع في التأطير الرياضي وفي الاهتمام بالأبعاد والمضامين الاجتماعية التنموية للنشاط البدني والرياضي للأسرة التونسية.

- معرفة دور وسائل الإعلام الرياضية (إذاعة -تلفزيون- صحافة) في تدعيم مفهوم الرياضية للجميع.

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية هذه الدراسة في بناء إستراتيجية مقترحة للرياضة للجميع في المجتمع التونسي من منطلق أن الرياضة ظاهرة اجتماعية وتربوية وثقافية وحضارية تجسد طبيعة النظام الاجتماعي والثقافي للمجتمعات الإنسانية لفوائدها التي لا يمكن حصرها. وهذا ما أفرزته الدراسات الاستقصائية المعمقة حول الدور الريادي النهضوي للرياضة للجميع.

لذلك ومن منطلق هذا الدور أولت بعض الدول ومنها تونس أهمية وجود استراتيجيات للرياضة للجميع، تقوم على مرتكزات حيوية يمكن تحقيقها من خلال الرياضة، ممثلة في مستويات ركزت عليها منظمة الصحة العالمية والأكاديميات الطبية ومنظمة اليونسكو والجهود الدولية والمؤتمرات العالمية حول الرياضة للجميع والمنظمات الدولية للمحافظة على البيئة، وتتلخص هذه المستويات بجوانب اعتبارية هي (7):

صحيًا :

• تحسين صحة الأفراد لمواجهة التغيرات التي نجمت عن مخاطر التكنولوجيا الحديثة وانعدام حركة الأفراد.

• تحقيق رضى صحي متقدم للنظام الاجتماعي من حيث خلو المجتمع من تفاقم التلازمات المرضية الناتجة عن انعدام الحركة.

اقتصـاديّـا :

• الحد من استنزاف القدرات المادية الفردية التي تنفق على المشكلات الصحية الناتجة عن الخمول والكسل وقلة الحركة.

• ترشيد حجم النفقات المادية التي تصرفها القطاعات الصحية على أمراض قلة الحركة.

تعليميّـا :

• تكوين مفاهيم ومعتقدات حول مزايا الرياضة للجميع عن صحة الأفراد.

• عدم المفاضلة بين صعيد وآخر في كافة الحقول المعرفية.

ثقـافيّـا :

• حث الأفراد على المتابعة الفردية المكتسبة عن السمات الايجابية للرياضة للجميع.

• حكم مجسي على ثقافة الأفراد المعلوماتية التي يمكن الحصول عليها من مصادر متنوعة.

إنتـاجيـا :

• زيادة عطاء الأفراد في النظام المؤسسي الذي تتكون منه الدولة.

• زيادة حجم استقطاب الأفراد لممارسة الأنشطة البدنية والترويجية.

بيئيّـا :

• الحاجة إلى أماكن بيئية نظيفة .

مـحـــدّدات الـــدّراســـــة :

تقع حدود البحث في المجالات التالية :

1 ـ **المجال الجغرافي** : إقليم تونس الكبرى

2 ـ **المجال البشري** : إداريي ومنشطي الرياضة للجميع، - ممارسين وغير ممارسين -إعلاميين . . . .

3 ـ **المجال الزمني** : 2009/ 2010

مراحل الدراســـــــة :

تتناولت الدراسة في الجزء الأول الفصول التالية: - السياسة الرياضية في تونس/ - الرياضة للجميع في تونس. - خصائص المجتمع التونسي. أما الجزء الثاني وضمن القسم العملي للبحث ستتناول في الدراسة الميدانية اختبار الفرضيات من خلال اعتماد استمارة لدى عينة البحث وتحليل نتائج البحث، ومناقشتها، ثم الخروج بالاستنتاجات.

مـصـطـلـحـات الـدّراسـة :

ـ الريـاضي

يقصد بمصطلح الرياضي (8): أي فرد مارس فعالية رياضية بصورة منتظمة وعلمية تحت إشراف مدرب مختص بهدف رفع قدراته البدنية والمهارية والخططية، ليتمكن من الاشتراك في المنافسات الرياضية، وتحقيق أفضل النتائج فيها.

ـ الغيـر ريـاضي

مصطلح يطلق على من لا تنطبق عليه مواصفات الرياضي، وهو الذي لا يمارس أي فعالية منتظمة، ولا يهدف من وراء ذلك للاشتراك في المنافسات الرياضية. وحالة الغير رياضي هي «حالة تكون فيها الحركات الجسمية متقلصة جدا، وتصريف الطاقة قريب من صرف حالة الرياضة» بمعنى آخر فان حالة الغير الرياضي تتميز بعدم صرف الطاقة أو بتصريف ضئيل للطاقة الجسمية (9).

ـ الرياضة للجميع

ـ هو إتاحة الفرصة لكلّ شرائح المجتمع بمختلف أعمارهم وأوساطهم الاجتماعية وأجناسهم لممارسة الأنشطة الرياضية والبدنية.

تأخذ هذه الممارسة أشكالا عديدة فمنها ما يمارس في إطار منظم كمادة التربية البدنية والانخراط بالجمعيات أو المنظمات المشاركة في الرياضة المدرسية أو المدنية أو المهنية ومنها ما يمارس في إطار غير منظم كممارسة

أنشطة بدنية بصفة فردية أو جماعية، مثل رياضة المشي في الهواء الطلق أو في مسلك صحّي أو في ملعب رياضي أو حتى القيام بحركات رياضية صباحية.

وحسب اللجنة الدولية الأولمبية تشمل الرياضة للجميع كل أصناف الرياضة ماعدا رياضة النخبة

الجودة: هي جملة السمات والخصائص للمنتج أو الخدمة التي تجعلها قادرة على الوفاء باحتياجات معينة (10) من خلال جودة المنتج والخدمة والاتصال والمعلومات وجودة الإجراءات وجودة الإشراف والإدارة والمنظمة ككل (11).

إدارة الجودة الشاملة : يعرف طارق الشبلى (2002) إدارة الجودة الشاملة بأنها «فلسفة إدارية حديثة تأخذ شكل نهج أو نظام إداري شامل قائم على أساس إحداث تغيرات إيجابية جذرية لكل شيء داخل المؤسسة بحيث تشمل هذه التغيرات الفكر والسلوك والقيم والمعتقدات التنظيمية والمفاهيم الإدارية ونمط القيادة الإدارية ونظم وإجراءات العمل المختلفة وذلك من أجل تحسين وتطوير كل مكونات المؤسسة للوصول إلى أعلى جودة في مخرجاتها» (12).

ولقد تم طرح وتعريف مفهوم إدارة الجودة الشاملة من قبل العديد من الباحثين والعلماء (13)، فلقد تم بلورة مرتكزاته الفكرية وتطبيقاته العملية في العقود المنصرمة، حيث يعتبر فيغنباوم (Fiegnebaum,1991) أول من تطرق إلى مفهوم الجودة الشاملة عام (1951) في كتابه (Total Quality Control)، حيث عرف الجودة الشاملة بأنها «نظام فعال يهدف إلى تكامل أنشطة تطوير المنتج وإدامته وتحسين الجودة التي تؤديها المجاميع المختلفة في المنظمة بما يمكن من تحقيق أكثر المستويات الاقتصادية في الإنتاج والخدمات التي تؤدي إلى رضا العميل بشكل كامل، تماشيا مع استراتيجية تدرك أن رضا العميل وهدف المنظمة واحد». وقام ديمنج عام (Deeming,1986) بعرض مزايا الجودة الشاملة وعرفها «بأنها عبارة عن فلسفة إدارية حديثة مبنية على أساس إرضاء العميل وتحقيق احتياجاته وتوقعاته حاضرا ومستقبلا»، وأكد جارفين (Garvin,1987) «أن الجودة الشاملة ترتبط بدرجة الأداء التي يقدمها المنتج طبقا لتوقعات المستهلك».

ويعد أسلوب إدارة الجودة من الاتجاهات الحديثة في الإدارة (14)، حيث تقوم فلسفته على مجموعة من المبادئ التي يمكن للإدارة وأعضاء هيئة التدريس أن يتبنوها، بغرض الوصول إلى أفضل أداء ممكن وأعلى درجه من الرضا للعميل (الطالب)، عن طريق تلبية رغباته وتطلعاته ومتطلبات النشاطين التعليمي والتدريبي، فبقاء المنظمة ونجاحها يعتمد على إحداث تغيرات جذريه داخل المنظمة بحيث تشمل هذه التغيرات الفكر، والسلوك، والقيم التنظيمية، والمفاهيم الإدارية، ونمط القيادة، وإجراءات العمل المتبعة، ومستوى الأداء، وذلك من أجل تحسين وتطوير كل مكونات المنظمة للوصول إلى أعلى جودة من الخدمات وبأقل تكلفة ممكنة (عقيلي، 2001).

إقليم تونس الكبرى :

يضم إقليم تونس الكبرى ولايات تونس، أريانة، بن عروس ومنوبة، ويبلغ عدد سكانه 2247792 نسمة، ويبلغ عدد الذكور 1142051 بنسبة 50.8% في حين أن عدد الإناث يبلغ 1105741 وبنسبة 49.2%، أما عدد الأسر بإقليم تونس الكبرى فيبلغ 533996 أسرة، تقطن في 593015 مسكنا، وبمعدل حجم للأسرة الواحدة يبلغ 4.53 فردا، وبنسبة عزوبة 42.5 % ويحده شمالا: ولاية بنزرت والبحر الأبيض المتوسط، جنوبا : ولاية زغوان ونابل، شرقا: ولاية نابل والبحر الأبيض المتوسط، غربا: ولاية باجة (15). أما الجدول التالي فيبرز تطور عدد الأسر ونسبة التزايد السنوي ومعدل حجم الأسرة حسب الولايات (16):

الولاية	عدد الأسر		نسبة التزايد السنوي %	معدل حجم الأسرة	
	1994	2004	1994-2004	1994	2004
اقليم تونس	383126	533996	3,38	4,8	4,21
المجموع	1704185	2185839	2,52	5,2	4,53

جدول عدد 1 : (المصدر: المعهد الوطني للإحصاء)

أما من ناحية البنية الأساسية الرياضية (17) ،فإن إقليم تونس الكبرى يحتوي على أكثر من ثلث البنية الأساسية الرياضية العامة المنتشرة في كامل الجمهورية، كما هو مبين في الجدول التالي (18) :

المنشآت	إقليم تونس	الجملة	في طور الدراسة والإنجاز
القاعات الرياضية	40	111	10
الملاعب المعشبة	42	152	6
المسابح المغطاة	7	14	
مسابح الهواء الطلق	5	23	
المضامير الاصطناعية	6	12	1
المراكز الوطنية للتربصات	1	2	
المراكز الجهوية لألعاب القوى	1	4	
مراكز تكوين اللاعبين الشبان	2	8	1
مراكز التكوين المختصة أو متعددة الاختصاصات	2	8	

جدول عدد 2 : المنشآت الرياضية بإقليم تونس الكبرى. (المصدر: المعهد الوطني للإحصاء)

الفصل الأول : السياسة الرياضية في تونس

مكانة الرياضة في المخطط الحادي عشر للتنمية

التعريف بالمخطط :

تعتمد الإستراتيجية التنموية في تونس على تحليل معمق وقراءة إستشرافية للوضع الاقتصادي والاجتماعي على الصعيدين الوطني والعالمي، وعلى ضوء ذلك يتم ضبط التوجهات والسياسات والبرامج والمشاريع الملائمة ويتم تنفيذها في إطار المخطط التنموي على مدى خمس سنوات. وتقدم وثيقة المخطط الحادي عشر الخطة التنموية للخماسية 2007/ 2011 في ثلاثة مجلدات متكاملة :

1 - مجلد أول يعرض المحتوى الجملي للخطة التنموية ويشتمل على التوجهات والأولويات ومنوال التنمية المعتمد للخماسية القادمة والسياسات والإصلاحات التنموية الكفيلة برفع التحديات المرتقبة.

2 - مجلد ثان يعرض المحتوى القطاعي للخطة التنموية ويشتمل على الأهداف والسياسات والبرامج والمشاريع المزمع تنفيذها في مختلف القطاعات بما يساهم في مزيد دفع مسيرة التنمية.

3 – مجلد ثالث يعرض المحتوى الجهوي للخطة التنموية ويشتمل على التوجهات العامة والسياسات في مجال التنمية الجهوية واستراتيجيات وبرامج التنمية بالأقاليم.

تاريخية المخططات التنموية في تونس (19) :

اعتمدت تونس منهجية التخطيط للتنمية منذ أوائل الستينات، وتواصل هذا التمشي دون انقطاع حيث تم في هذا السياق إنجاز 10 مخططات، والشروع في تنفيذ المخطط الحادي عشر للفترة 2007/ 2011.

– 1 – المخطط الثلاثي الأول 1962-1964
– 2 – المخطط الرباعي الثاني 1965/ 1968
– 3 – المخطط الرباعي الثالث 1969/ 1972
– 4 – المخطط الرباعي الرابع 1973/ 1976
– 5 – المخطط الخماسي الخامس 1977/ 1981
– 6 – المخطط الخماسي السادس 1982/ 1986
– 7 – المخطط الخماسي السابع 1987/ 1991
– 8 – المخطط الخماسي الثامن 1992/ 1996
– 9 – المخطط التاسع 1997/ 2001
– 10 – المخطط العاشر 2001/ 2006
– 11 – المخطط الحادي عشر 2007/ 2011

تقديم المخطط الحادي عشر للتنمية :

يستعرض المخطط الحادي عشر للتنمية الآفاق التنموية لمختلف القطاعات والمجالات والأهداف النوعية والكمية المنشودة مع التركيز على السياسات والبرامج الكفيلة بتحقيقها، وذلك بالاستناد إلى الإنجازات القطاعية المسجلة على امتداد المخطط العاشر2002/ 2006 كما تأخذ في الاعتبار الإشكاليات والتحديات المطروحة.

إرساء حق الرياضة للجميع (20) :

شهد قطاع التربية في الخماسية المنقضية تطورا ملحوظا بفضل الرعاية التي ما فتئ يحظى بها هذا القطاع استنادا إلى دوره في تنمية الأفراد والجماعات على مختلف مستوياتهم الذهنية والبدنية والاجتماعية والاقتصادية، علاوة على مساهمته في تعزيز إشعاع صورة تونس بالخارج. وقد تمحورت السياسة الرياضية في فترة المخطط العاشر حول دعم البنية الأساسية في مختلف جهات البلاد وتشييد المنشآت والتجهيزات الرياضية المستجيبة للمقاييس الدولية والقادرة على استضافة التظاهرات الدولية وحول تعزيز الدور التربوي والصحي لهذا القطاع. ولتجسيم هذه المحاور تواصل تنفيذ الخطة الوطنية لرياضة النخبة وذلك بالتوازي مع دعم الرياضة المدنية والرياضة للجميع مع إيلاء عناية خاصة للرياضة النسائية ورياضة المعوقين. كما تم تطوير طب وعلوم الرياضة ودعم التربية البدنية وممارسة الرياضة بالمؤسسات التربوية إضافة إلى تطوير التكوين الجامعي الرياضي.

وستشهد فترة المخطط الحادي عشر مزيد دعم مكونات السياسة الرياضية بهدف الارتقاء بالقطاع إلى الأفضل وتعزيز نشر ممارسة الرياضة بكلّ الأوساط وبين كلّ الفئات العمرية. وفي هذا الإطار، سيتعزز الإطار التشريعي والتنظيمي للرياضة للجميع بإحداث جامعة وطنية مختصة وتنظيم علاقاتها مع الجامعات الرياضية الوطنية وذلك بالتوازي مع حث مختلف الهياكل الجهوية والمحلية والمؤسسات التربوية والمؤسسات الاقتصادية على إدراج الأنشطة البدنية والرياضية ضمن مجالات أنشطتها وتدخلاتها. كما سيتواصل تعميم المسالك الصحية على البلديات بمعدل مسلك صحي على الأقل بكل بلدية إضافة إلى إحداث 300 ملعب حي بجوار المؤسسات التربوية وتشجيع الخواص على الاستثمار في القاعات الرياضية. وباعتبار دورها في تجسيم مبدأ الرياضة حق للجميع، ستشهد الرياضة المدنية دعما متزايدا إضافة إلى دعم ممارسة الرياضة في المؤسسات التربوية وتعميم

تدريس مادة التربية البدنية داخلها وتشجيع الاختصاصات الرياضية الفردية والترفيع في عدد الجمعيات المستهدفة. كما ستتواصل الجهود الداعمة للرياضة النسائية ورياضة المعوقين عبر إقرار العديد من الحوافز والتشجيعات بهدف الرفع من عدد الجمعيات والمجازين والمجازات بهذه الفروع الرياضية.

وتماشيا مع هذه التوجهات في مجال مزيد النهوض بالرياضة وتيسير ممارستها من قبل كلّ الفئات الاجتماعية والشرائح العمرية، ستتعزز العناية بالبنية الأساسية الرياضية عبر الصيانة والتهيئة أو من خلال الإحداثات الجديدة لاسيما منها المخصصة للرياضات المستهدفة. على صعيد آخر، سيكون التعليم الجامعي الرياضي والطب الرياضي محلّ عناية خاصة قصد الاستجابة لمتطلبات القطاع وما يقتضيه تطوره من برامج ومشاريع وتدخلات.

إرساء حق الثقافة للجميع :

تميزت فترة المخطط العاشر بتأكيد الحرص على تقريب المادة الثقافية من المواطن وتكريس التوجهات الرامية إلى النهوض بالإبداع الثقافي والفنون وتركيز دعائم صناعة ثقافية متطورة والعناية بالتراث وإحكام توظيفه خدمة للتنمية. وقد كان لمجمل الإصلاحات والإجراءات المعتمدة تأثيرات إيجابية على تطور القطاع على المستويين الكمي والنوعي تتجلى خاصة في مضاعفة ميزانية الثقافة والمحافظة على التراث ودعم البنية الثقافية الجهوية منها والوطنية وتكريس مبدأ التفرغ للإبداع إضافة إلى بعث إذاعة ثقافية وتوسيع مجالات الاستثمار في القطاع الثقافي.

وستتأكد خلال الخطة التنموية القادمة العناية بهذا القطاع بصفته سندا للتنمية وأداة ناجعة للمحافظة على الخصوصية الثقافية من جهة والتفاعل الايجابي مع التحولات المتسارعة التي يشهدها المحيط العالمي من جهة أخرى. كلّ ذلك في إطار مقاربة تتمحور بالأساس حول تقريب المادة الثقافية من المواطن بما يضمن محافظته على الهوية الوطنية ويسمح له بالتفتح على الثقافات والحضارات الأخرى. وسيتم العمل في هذا السياق على اعتماد برامج ومشاريع ترمي أساسا إلى تعزيز المؤسسات الثقافية المرجعية ودعم الصناعات الثقافية والفنون وتأكيد العناية بالتراث وتوظيف المخزون الحضاري لخدمة التنمية.

وستشكل العناية بالبنية الأساسية الثقافية بالجهات دعامة أخرى من دعائم النهوض بالقطاع وتكريس التمشي الهادف إلى تقريب الثقافة من المواطن. وستركز التدخلات في هذا المجال على تنفيذ القرار الرئاسي القاضي بالتعميم التدريجي لدور الثقافة على كافة المعتمديات حيث ستسمح الإحداثات المنتظرة في فترة المخطط الحادي عشر من الارتقاء بنسبة التغطية من 65.5 % إلى 78.8 % وعلى توسيع شبكة المكتبات الثابتة وأسطول المكتبات المتنقلة بهدف تغطية 90 % من المناطق الريفية مقابل 75 % حاليا. وحتى يتم توفير أحسن الظروف للمواطن قصد الانتفاع بالخدمات الثقافية، سيتدعم تشريك الجمعيات التونسية المتواجدة داخل وخارج الوطن في تنشيط الحياة الثقافية بتونس وفي التعريف بالمنتوج الثقافي الوطني خارج حدود الوطن. واعتبارا لأهمية التمويل في تحقيق جملة هذه الأهداف سيتم الترفيع مجددا في الميزانية المخصصة للثقافة لتبلغ 1.25 % من ميزانية الدولة في أفق 2009 بعد أن كانت بلغت 1% سنة 2004.

الرياضة والتربية البدنية :

تطورت الرياضة والتربية البدنية وتوسعت أهدافها التنموية لتأخذ أبعادا متعددة صحية وترفيهية واقتصادية إلى جانب أبعادها التربوية. وتنامى دورها وأضحت من المشاغل الوطنية التي تهم كل الفئات وتساهم في خلق حركية خصوصية في كل الجهات، ويعزى ذلك إلى الدعم المتواصل الذي تحظى به الهياكل الرياضية مما مكنها من الارتقاء بالشأن الرياضي نحو الأفضل

حيث أفرزت هذه العناية نخبة رياضية قادرة على التألق وإحراز نتائج متميزة مما أهل تونس إلى دعم مكانتها على المستوى الدولي ونيل ثقة المنظمات الرياضية الدولية باختيارها لاحتضان التظاهرات الرياضية الكبرى وتوفقها في تنظيمها بكل اقتدار.

وتعزز إشعاع تونس الدولي بمصادقة المنتظم الأممي سنة 2003 على القرار الذي تقدمت به تونس حول حق الشباب في ممارسة الرياضة والتربية البدنية وإبراز دورها في نشر السلم والتسامح بين الشعوب.

وستتمحور التدخلات والبرامج التي سيتم إقرارها لفائدة الرياضة على دعم المكاسب والسمو بالقطاع إلى أعلى المراتب. وستتجه الجهود بالأساس نحو نشر الممارسة الرياضية بين كل الفئات العمرية والاجتماعية وبكل الأوساط وتطوير وظائف الرياضة الأساسية في تحقيق التوازن الصحي والنفسي والتربوي للفرد إلى جانب تنمية الرياضات المنظمة وتوسيع دائرة استكشاف النخبة الرياضية.

دعم الرياضة المدنية والرياضة للجميع :

تدعمت الهياكل الرياضية خلال الفترة المنقضية في كل المستويات حيث تطور التشريع الوطني الرياضي لا سيما المتعلق بالهياكل الرياضية كي يتلاءم مع التشريع الدولي وبالخصوص لوائح اللجنة الوطنية الأولمبية والجامعات الرياضية ويساهم بصفة أكثر نجاعة في المنظومة الرياضية الدولية. وسجلت الرياضة التونسية تحولا هاما بالانتقال من نظام اللاهواية إلى نظام الاحتراف في اختصاص رياضة كرة القدم وهو ما ساهم في تطور عدد الرياضيين المحترفين بالخارج ودعم النخبة الرياضية الوطنية.

كما تمت مراجعة طرق التصرف الإداري والمالي للهياكل الرياضية بالشروع في إرساء نظام محاسبي للجامعات والجمعيات الرياضية وتحسين أداء الإطارات الإدارية والفنية العاملة بها بالتوازي مع إحداث شعبة جامعية في التعليم العالي تهم التصرف الإداري والمالي في المجال الرياضي.

وتواصل دعم الدولة والجماعات العمومية المحلية للرياضة المدنية من خلال تعزيز المنشآت الرياضية بتعهدها وصيانتها وإحداث منشآت جديدة، إلى جانب الدعم المالي للجمعيات الرياضية كي تقوم بأنشطتها في أفضل الظروف.

كما تواصلت العناية بالرياضة النسائية وبرياضة المعوقين وبدعم الرياضة للجميع من خلال إعفاء الجمعيات النسائية من معلوم استغلال المنشآت الرياضية لإجراء الحصص التدريبية وإرساء خطة في الغرض مما يسمح بتوسيع دائرة ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية من قبل أغلب الفئات الاجتماعية. كما تم إحداث شعب في التعليم العالي الرياضي لتكوين إطارات مختصة في مجال رياضة المعوقين والرياضة للجميع.

تعزيز البنية الأساسية :

تواصلت جهود تحسين شبكة المنشآت الرياضية بتهيئتها وصيانتها وتعزيزها بإحداث منشآت عصرية تستجيب للمواصفات العالمية قادرة على استضافة التظاهرات الدولية وإجراء المسابقات الوطنية من أبرزها إنجاز قاعة رياضية متعددة الاختصاصات بالمدينة الرياضية 7 نوفمبر برادس دشنت بمناسبة احتضان تونس لبطولة العالم لكرة اليد سنة 2005. كما تدعمت البنية الأساسية الرياضية بصفة جلية وشملت كل الجهات من خلال جملة من الإحداثات الجديدة التي مست بالخصوص القاعات الرياضية، وتعشيب الملاعب والمضامير الاصطناعية لألعاب القوى.

تطوير طب وعلوم الرياضة :

تطورت المتابعة الطبية للرياضيين وارتقت من الطور العلاجي إلى الطور الإستشرافي كي يقع تقييم مؤهلات الرياضيين بصفة علمية لتحسين مردودهم وقدراتهم

البدنية، وأدرجت بذلك علوم الرياضة ضمن مشمولات المركز الوطني للطب الرياضي. كما تم إحداث مخبرين للبيوميكانيك وللفيزيولويجيا وقاعة كبرى للاختبارات لدعم وسائل عمل هذه المؤسسة كي تؤدي وظائفها بالنجاعة المطلوبة. أما على المستوى الجهوي فتم إحداث مركزين إقليميين بكل من صفاقس وسوسة و5 مراكز جهوية وتجهيزها ودعمها بالإطارات البشرية اللازمة حتى تتمكن هذه المؤسسات من إسداء خدماتها للرياضيين المتواجدين بالجهات.

دعم التربية البدنية بالمؤسسات التربوية :

تواصل النهوض بتدريس مادة التربية البدنية بالمؤسسات التربوية باعتبارها مادة إجبارية في المنظومة التربوية. وقد تم بذل مجهودات مضاعفة للرفع من نسبة تدريس هذه المادة حيث ارتقت بالمرحلة الابتدائية من 14.4 % سنة 2001 إلى 40.3 % سنة 2006 وتحسنت هذه النسبة في المرحلتين الإعدادية والثانوية لتصل إلى 93.6 % سنة 2006 مقابل 91.6 % سنة 2001. ويرجع ذلك إلى الانتداب المتواصل لإطارات التدريس لا سيما بالمرحلة الابتدائية وتهيئة الفضاءات الرياضية بها.

دعم الرياضة المدرسية والجامعية :

تطورت الرياضة المدرسية والجامعية بصفة ملحوظة وتنوعت المسابقات الرياضية في عديد الاختصاصات وارتفع عدد الجمعيات الرياضية المدرسية من 1596 جمعية إلى 2070 جمعية سنة 2006 مما ساهم في الرفع من عدد المجازين من 98 ألف سنة 2001 إلى 322 ألف سنة 2006 . وتناهز نسبة الممارسة حوالي 13.8 % من مجموع التلاميذ والطلبة مقابل 3.8 % سنة 2001 . ولا زالت الرياضة الجامعية تشكو من تدني نسبة ممارسة الطلبة للرياضة حيث لا تتجاوز 3% من مجموع الطلبة، وتبقى في حاجة أكيدة للدعم.

تطوير التكوين الجامعي الرياضي :

لا تختلف المؤسسات الجامعية في مجال الرياضة والتربية البدنية عن نظيراتها في الاختصاصات الأخرى، حيث تضاعفت طاقة استيعابها بصفة ملحوظة وبلغت 5226 طالبا سنة 2006 مقابل 2257 طالبا سنة 2001. كما تميزت هذه الفترة باستحداث اختصاصات جديدة في مهن الرياضة استجابة للحاجيات الوطنية التي أفرزها تطور الرياضة في تونس وما تتطلبه من اختصاصات عصرية تهم بالخصوص التدريب الرياضي والإعداد البدني والتصرف الإداري والمالي في المجال الرياضي والرياضة للجميع والأنشطة الرياضية الملائمة. كما تأهلت المعاهد العليا لإسناد شهادة الماجستير وشهادة الدكتوراه بالمعهد الأعلى للرياضة بقصر السعيد.

أما في مجال البحث العلمي الرياضي فقد تم تركيز 4 وحدات بحث بالمعاهد العليا للرياضة والتربية البدنية ووحدة خامسة بالمركز الوطني للطب وعلوم الرياضة.

النهوض بالتكوين المستمر :

انسجاما مع المنظومة الوطنية للتكوين المستمر ولحاجة القطاع الأكيدة لتأهيل ورسكلة الإطارات العاملة في الحقل الرياضي تم بعث مركز وطني لتكوين ورسكلة الإطارات الرياضية وفق متطلبات الرياضة الحديثة وللرفع من أدائها ومواكبتها للمستجدات المتصلة بهذه المهنة على المستوى الدولي.

الأهداف النوعية :

تكريس مبدأ الرياضة حق للجميع

أصبحت الممارسة الرياضية الواسعة حقا لكل الفئات العمرية والاجتماعية لفوائدها الصحية المتعددة العلاجية والوقائية إلى جانب فوائدها الترفيهية ودورها في تحقيق التوازن النفسي وتجاوز ضغوط الحياة العصرية. ومن هذا المنطلق سيتواصل تنفيذ خطة الرياضة للجميع بإحداث

جامعة مختصة في الرياضة للجميع تعمل على بعث وتأطير الجمعيات بتنظيم قطاع رياضة وشغل وتشجيع المؤسسات الاقتصادية على العناية بمنظوريها بإحداث جمعيات رياضية وحثها على انتداب الإطارات المختصة في الرياضة للجميع.

وفي مجال البنية الأساسية الموجهة للرياضة للجميع سيتجه العمل على تعميم المسالك الصحية على البلديات قصد الوصول إلى تجسيم الهدف الوارد بالبرنامج الرئاسي بإحداث مسلك صحي بكل بلدية، بالتوازي مع تهيئة 300 ملعب مجاور للمؤسسات التربوية. كما تعول الدولة على مساهمة القطاع الخاص في ميدان البنية الأساسية الرياضية لتقريب الفضاء الرياضي من المواطن وتيسير ممارسة الأنشطة البدنية.

تعميم تدريس التربية البدنية

ستتجه الجهود نحو تعميم تدريس مادة التربية البدنية في كل مراحل التعليم لا سيما في المرحلة الابتدائية تماشيا مع قرار سيادة الرئيس في هذا المجال، وهو ما يتطلب مضاعفة الجهود في اتجاه الرفع من نسق انتدابات إطارات التدريس وتهيئة 500 فضاء رياضي بالوسط المدرسي مع ضبط برنامج مشترك مع المؤسسات التعليمية قصد صيانة الفضاءات الرياضية ودعمها بالتجهيزات اللازمة. كما سيتجه العمل على مزيد الإحاطة بالرياضيين الواعدين لا سيما المنتمين للجمعيات المدنية بالرفع من عدد مراكز النهوض بالرياضة بالمرحلة الابتدائية وعدد أقسام رياضة ودراسة بالمرحلة الإعدادية وملاءمة الزمن المدرسي مع مقتضيات التدريب العصري.

توسيع وتطوير الممارسة الرياضية بالمؤسسات التعليمية

إن تعميم التربية البدنية بالمؤسسات التعليمية من شأنه أن يوسع من قاعدة الممارسة الرياضية بالمؤسسات التربوية ويساهم بالتالي في الرفع من نسبة الانخراط في الرياضة المدرسية والجامعية لترتقي من 13.8 % إلى 30 % من مجموع التلاميذ والطلبة في موفى المخطط الحادي عشر لا سيما بالنسبة للرياضة الجامعية. ولبلوغ هذا الهدف سيتم العمل على إحداث جمعية رياضية وفريق نسائي بكل مؤسسة تعليمية قصد الترفيع في عدد المجازين والمجازات وإحداث منتخبات جهوية في الرياضة المدرسية.

دعم الرياضة المدنية

تمثل الرياضة المدنية الحلقة المركزية للرياضة التونسية لتواصلها المستمر مع الرياضة المدرسية والجامعية وبوصفها الرافد الأساسي للنخبة الرياضية حيث توفر المسابقات الرياضية الوطنية الأرضية الملائمة للمنتخبات الوطنية لاختيار العناصر البارزة.

من هذا المنطلق فإن تنمية الرياضة المدنية ترتكز بالأساس على سعي الهياكل الرياضية إلى تطوير مستوى المسابقات الرياضية الوطنية وإشاعة الممارسة الرياضية المنظمة عبر حث الجمعيات الرياضية على التكوين القاعدي وبعث فروع للشبان في كل الرياضات لا سيما في الاختصاصات الفردية إلى جانب الرفع من عدد الجمعيات المستهدفة في إطارعقود برامج.

كما سيتم العمل على تطوير أداء الهياكل الرياضية وتعصير طرق التصرف الاداري والمالي بها، وذلك بتطبيق الجامعات والجمعيات الرياضية للنظام المحاسبي الجديد والعمل على ترشيد نفقاتها، إلى جانب انتداب الإطارات المختصة وتحسين أداء المسيرين في مجال التصرف الإداري والمالي والرياضي عبر تنظيم الدورات التدريبية بالتنسيق مع المركز الوطني لتكوين ورسكلة إطارات الرياضة وإيلاء الأهمية المستحقة لنشر المبادئ الأولمبية وقواعد التنافس النزيه.

وسيتواصل العمل من أجل تنمية الموارد المالية للهياكل الرياضية بحثّ المؤسسات الاقتصادية على دعم النشاط الرياضي ومضاعفة العائدات المالية المتأتية من حقوق البث التلفزي إلى جانب تطوير مداخيل صندوق التنمية الرياضية.

دعم الرياضة النسائية

من المنتظر أن يمكّن تخصيص 10 % من موارد الصندوق الوطني للنهوض بالرياضة لفائدة الجمعيات والفروع النسائية من إعطاء دفع جديد للرياضة النسائية. كما ستتكثف الجهود من أجل الترفيع في عدد الجمعيات الرياضية النسائية وفي عدد المجازات مع تشجيع المرأة على التواجد في مواقع التسيير بالهياكل الرياضية وصلب أسلاك التدريب والتحكيم.

مزيد العناية برياضة المعوقين

ستتضاعف العناية برياضة المعوقين بغية منحهم فرصا إضافية للاندماج الاجتماعي وإثبات قدراتهم الرياضية للتألق وتحقيق نتائج متميزة عبر توفير الفضاءات والتجهيزات الرياضية الملائمة وانتداب المدربين المختصين والتعامل معهم في إطار نظام عقود أهداف.

الفصل الثاني: الرياضة للجميع في تونس

1 ـ مفهوم الرياضة للجميع :

ـ الرياضة للجميع في المجتمــع المعاصر حركة واعية تعبر عن الاهتمام بالصحة والحالة البدنية، وتشكل الرياضة للجميع الفكر والاتجاهات التربوية وتعدل من السلوك الاجتماعي للمشاركين في برامجها. وتعد الرياضة للجميع ضرورة صحية لتوفير السعادة للحياة وذلك في مختلف مراحل العمر ودون قيـود على نوع الجنس أو العنصر أو الديانة أو المستوى التعليمي أو الثقافي أو المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي.

– الرياضة للجميع ظاهرة اجتماعية معــاصرة تتولى عملية الدفاع عن الفرد من متغيرات المجتمــع التقني والتي من أهمها نقص الحركة والبدانة وزيـــادة وقت الفراغ غير المستثمر والتلـوث البيئي وكذلك وقايته من الأمراض العصرية المرتبطـة بأمراض القلب والأوعية الدموية وبالأمراض النفسية الناتجة عن مشكلات الحياة اليوميــة. وتهتم الرياضة للجميع بإيقاظ إحساس الفرد بالحاجة للعودة إلى الطبيعة والاستمتاع بأوجه النشاط الخلوي الذي يؤدى في الهواء الطلق.

– إن مفهوم الرياضة للجميع يعمل ضد فكرة اقتصار الممارسة الرياضية على أصحاب القدرات البدنية والمهارية رفيعة المستوي خاصة في ظل المخترعات والأجهزة التي يسرت على الإنسان الكثير من الجهد البدني الذي كان يبذله، فصار الإنسان قليل الجهد مما انعكس سلبيا على صحته ونشاطه وكفاءة أعضائه وأجهزته الحيوية، إضافة إلى بعض الفئات المحرومة من الممارسة الرياضية وهم ذوو المهارات والقدرات المتواضعة وذوو الاحتياجات الخاصة والمرأة بشكل عام في المجتمعات العربية وكبار السن.

2 – ظهور الرياضة للجميع في تونس :

على إثر الندوة الدولية التي نظمتها اليونسكو سنة 1959 حول «مساهمة الرياضة في إتقان العمل وتنمية الثقافة» والتي حضرها بعض المسؤولين الرياضيين التونسيين، نظمت كتابة الدولة للشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية (21) :

– في 28/ 29 سبتمبر 1962 «الأيام الوطنية الدراسية الأولى للرياضة والشغل» بحضور عدد هام من المختصين في التربية البدنية والرياضة والشغل وطب الشغل حيث وقع اعتماد ثلاثة أنشطة وهي رياضة ذات طابع مهني وترفيه العمال والجمباز .

– انطلق النشاط في مارس ونوفمبر 1965، ثم جانفي 1968 وجويلية 1969، وأوصى التقرير النهائي بإحداث جمعية وطنية للشباب والرياضة.

ـ وفي 9 نوفمبر 1971 وقع إحداث جامعة الرياضة والشغل التي مثلت ثورة في العادات الرياضية التونسية وفتحت مجالا لقطاع رياضي جديد بعيدا عن وصاية التربية البدنية المدرسية والرياضة المدنية، ثم تحولت إلى الجمعية الوطنية للرياضة والثقافة والشغل متجاوزة الإطار الضيق لجامعة رياضية وتكيفا مع الميدان الذي

تريد النهوض به من خلال تحديد أهداف إضافية وآفاق شاملة وإدماجية لتربية العمال. وكان لهذه الجمعية دور هام في أولى المحاولات التحسيسية والإعداد لظهور الرياضة للجميع وكانت تأمل في هيكلة ووسائل وتجهيزات لايمكن تحقيقها إلا بتدخل الدولة، ونظرا لأن الرياضة للجميع تمثل جزءا من السياسة الاجتماعية بالغة الأهمية فإن تحمل الجمعية الوطنية للرياضة والثقافة والشغل لقيمها ومجالات نشاطها وحدودها يتجاوز طموحات واتجاهات الجمعية، ولهذه الأسباب انقسمت الجامعة التونسية للرياضة والثقافة والشغل إلى جامعتين مستقلتين :

- الجامعة التونسية للرياضة والثقافة والشغل

- الجامعة التونسية للرياضة للجميع

25- / 27 جوان 1976 في ملتقى بئر الباي الذي صادق على توجهات الجمعية الوطنية للرياضة والثقافة والشغل (22).

- 1975/ 1976 تبنت لجنة الرياضة للجميع حملة «سليم» واقتراح إحداث نادي سليم الذي من أهدافه اقتراح أنشطة بدنية ورياضية بسيطة ومتنوعة غير تنافسية ليس فقط للعمال ولكن لأسرهم أيضا، وبدأت الحملة التحسيسية بمشاركة الوكالة الوطنية للتبغ والوقيد بطبع ونشر 10.000 واجهة علبة كبريت و3000 حاملة مفاتيح وفيلم قصير (16 دقيقة) بعنوان «الحركة» وقع بثه في التلفزة التونسية، وفيلم ثان وقع بثه في الجهات بالألوان بعنوان «الرياضة للجميع»، كما تم إنجاز قاعة تربية بدنية للأنشطة الجمالية بحي الشباب بتونس وكذلك مسالك صحية (حديقة البلفدير بتونس)

- 1976/ 1984 نظمت الجمعية الوطنية للرياضة والثقافة والشغل ،«أيام الرياضة للجميع» التي كانت جهوية منذ 1981 (ألعاب القوى، دراجات) والتي خلقت مظهرا احتفاليا بمشاركة الكثير من المواطنين مما مثل وسيلة إيجابية للتحسيس ولفت نظر السلطات واهتمام الإعلام خاصة التلفزة.

- مجلة رياضة ثقافة وشغل الصادرة عن الجمعية الوطنية للرياضة والثقافة والشغل سنة 1979/ 1980 والتي اهتمت بالرياضة للجميع ونشر مبادئها.

- 1981 تقرير وزارة الشباب والرياضة (إدارة التربية البدنية) حول الرياضة للجميع وقع اقتراحه على الندوة الوطنية حول تطور الرياضة في أوت 1982 فتبنته.

- الفصل 24 من الأمر عدد 1189/ 1983 المؤرخ في 14 ديسمبر 1983 المنظم لوزارة الشباب والرياضة، والذي أشار لأول مرة لمشمولات مكتب الرياضة للجميع بالتعاون مع الحركة الرياضية والجماعات العمومية والمتمثلة في التخطيط وبرمجة الأنشطة البدنية والرياضية.

3 – التشريع الرياضي التونسي :

اعتمادا على التشريع الدولي في الميدان الرياضي وخاصة الميثاق الأولمبي حيث نصت مبادئه الأساسية على «أن ممارسة الرياضة حق من حقوق الإنسان ويجب أن يتوفر لكل فرد إمكانية ممارسة الرياضة حسب احتياجاته»، وكذلك المادة الأولى من ميثاق التربية البدنية والرياضة الذي اعتمدته اليونسكو سنة 1978 والتي تؤكد أن «التربية البدنية والرياضة حق من حقوق الإنسان الأساسية وأن المشاركة في الرياضة حق لكل إنسان ولاسيما النساء والشباب والمسنين والمعوقين»، وقع سن العديد من التشريعات الرياضية في الجمهورية التونسية منها :

- القانون عدد 104 لسنة 1994 المتعلق بتنظيم وتطوير التربية البدنية والأنشطة الرياضية (23) الذي ينصّ في الفصل الثّاني منه على أن دراسة التربية البدنية وتعاطي الأنشطة الرياضية حقّ أساسي لجميع الأفراد.

- القانون الأساسي عدد 11 لسنة 1995 المتعلق بالهياكل الرياضية (24) والذي اعتبر الجامعة التونسية للرياضة للجميع من ضمن الهياكل الرياضية التي تسهر

على توفير فرص ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للجميع.

ـ القانون عدد 92 لسنة 1976 الذي ينصّ على وجوب أن تشمل أية مجموعة بناءات جديدة تجهيزًا رياضيا واجتماعيا -تربويا وأن تضع المؤسسات الاقتصادية على ذمة مستخدميها تجهيزات رياضية واجتماعية- تربوية (25).

ـ القانون التوجيهي للتربية والتعليم بتاريخ 23 جويلية 2002 الذي ينص الفصل 55 منه على ما يلي: «تمثل التربية البدنية والرياضة جزءا من العملية التربوية تساهم في إكساب المتعلمين القدرة على المثابرة والمداومة ومغالبة النفس وتنمي لديهم السعي إلى التفوق وتساعد على تنمية الثقة بالنفس وعلى تكوين شخصية الناشئة تكوينا متكاملا متوازنا» (26).

ـ تكوين إطارات مختصة في أنشطة الرياضة للجميع: من خلال:

• إحداث شعبة تقني سامي في الرياضة للجميع بالمعهد العالي للرياضة والتربية البدنية بصفاقس، بلغ عدد خريجي هذه الشعبة في موفى السنة الجامعية 2007- 2008 ما مجموعه 99 متخرجا.

• إحداث شعبة الأستاذية في الأنشطة البدنية الملائمة بالمعاهد العليا للرياضة والتربية البدنية بلغ عدد خريجي هذه الشعبة في موفى السنة الجامعية 2007 - 2008 ما مجموعه 148 متخرجا.

• إحداث الجامعة التونسية للرياضة للجميع: شرعت في النشاط في موفى سنة 2007 قصد نشر ثقافة ممارسة الرياضة لدى التونسيين وتمكين أكبر عدد منهم من تعاطي الأنشطة البدنية والرياضية بصفة منتظمة.

• إحداث جائزة سيادة رئيس الجمهورية لأحسن مؤسسة تشجع منظوريها على تعاطي النشاط البدني والرياضي تسند بمناسبة الاحتفال باليوم الوطني للرياضة والروح الأولمبية.

الهياكل التي تعنى بالرياضة للجميع:

• المنظمة الوطنية للثقافة والرياضة والعمل التي أحدث بتاريخ 9 نوفمبر 1971

• الهياكل الرياضية المعنية بالرياضة التنافسية مثل الجمعيات والجامعات الرياضات الوطنية والرابطات.

• كما تمّ بمقتضى الأمر المنظم لوزارة الشباب والرياضة والتربية البدنية إحداث مكتب خاص يعنى بتطوير برامج الرياضة للجميع من بين المكاتب المختصّة الملحقة بديوان السيد الوزير.

أصبحت الرياضة تلعب دورا هاما في حياة المجتمعات على جميع المستويات، وأولتها الدول اهتماما خاصا إيمانا منها أنها عنصر من عناصر التنمية الاجتماعية في العالم، ورهان هام على جميع المستويات وأنشأت لها المؤسسات والهيئات والهياكل رغبة في نشرها وتعميمها باعتبارها رهان اقتصادي واجتماعي ولأنها وسيلة تمكن من تقارب الشعوب وفرص التواصل والتعارف، وهي رهان تنموي أيضا لأن الممارسة الرياضية أصبحت جزءا من نمط حياة الفرد مثلما أصبحت عنصر استقطاب سياحي للمجتمعات والدول حيث تستعملها لإبراز عاداتها وتقاليدها وطبيعة مجتمعها كما تمثل وتحتل مكانة هامة في مجال التربية والصحة والترفيه وفي سياسات التنمية الاجتماعية.

في هذا الإطار عملت تونس على النهوض بالرياضة لتتخذ أبعادا تنموية مختلفة تعنى أولا بالفرد صحيا وفكريا وتربويا وترفيهيا، وتبعا لذلك بالمجتمع لتصبح رافدا من روافد التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والرياضية من خلال التشجيع على ممارسة النشاط البدني والرياضي ودعمه في المجتمع من خلال خيارات الرياضة للجميع مواكبة لتطور الرياضة الحديثة وأبعادها ومضامينها التنموية، وتوضح الجداول التالية عدد الملاعب المنجزة على مستوى دور الشباب والأحياء والبلديات.

مـلاعب دور الشبـاب										
الولاية	العدد	كرة قدم	كرة يد	كرة طائرة	كرة السلة	كرة التنس	كرة حديدية	كرة الرقبي	قاعات صغرى للأنشطة الرياضية والشبابية	ألعاب قوى
تونس	20	0	2	0	5	0	5	0	3	5
أريانة	1	0	0	0	0	1	0	0	0	0
بن عروس	10	5	1	2	1	1	0	0	0	0
منوبة	6	1	3	0	0	0	2	0	0	0
اقليم تونس	37	6	6	2	6	2	7	0	3	5

مـــلاعب الأحيـاء									
الولاية	العدد	كرة قدم	كرة يد	كرة طائرة	كرة السلة	كرة التنس	كرة حديدية	كرة الرقبي	ألعاب قوى
تونس	58	17	19	5	14	3	0	0	0
أريانة	5	3	2	0	0	0	0	0	0
بن عروس	5	2	1	1	1	0	0	0	0
منوبة	25	8	9	0	6	0	2	0	0
اقليم تونس	93	30	31	6	21	3	2	0	0

المـلاعب البلـديـة									
الولاية	العدد	كرة قدم	كرة يد	كرة طائرة	كرة السلة	كرة التنس	كرة حديدية	كرة الرقبي	ألعاب قوى
تونس	87	20	19	17	20	8	0	2	1
أريانة	7	6	0	0	0	0	0	0	1
بن عروس	8	5	1	1	1	0	0	0	0
منوبة	21	8	7	1	3	0	0	2	0
اقليم تونس	123	39	27	19	24	8	0	4	2

4 – الجامعة التونسية للرياضة للجميع :

تهدف الجامعة (27) إلى إتاحة الفرصة لكل شرائح المجتمع بمختلف أعمارهم وأوساطهم الإجتماعية وأجناسهم من ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية لتحسين اللياقة البدنية والوقاية من الإصابات والأمراض. كما تساهم في تقليص المصاريف العلاجية للمواطنين وتدعم الإنتاجية وتحقق الرفاه عبر استغلال الوقت الحر.

ومن هذا المنطلق تعمل الجامعة على تكريس حق الجميع في ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية في ظروف ملائمة من خلال توفير الفرص لأكبر عدد ممكن من المواطنين.

أ ـ نشـــاطهـا :

بدأت الجامعة منذ نشأتها بإعداد القانون الأساسي ومشروع النظام الداخلي بعد البحث عن المقر وتأثيثه وتعيين الإطار الفني والإداري للجامعة والانخراط بالهياكل الدولية والقارية للرياضة للجميع وإعداد برنامج النشاط السنوي في مجال تنظيم التظاهرات الوطنية والجهوية وبرنامج التنمية وتكوين ورسكلة الإطارات الفنية للرياضة للجميع..

ب – بيـانـات خـاصـة بالجـامعة :

الشعار :

الاسـم : الجامعة التونسية للرياضة للجميع

تاريخ التأسيس: 18 ديسمبر 2007.

عـدد التأشيرة : عدد 038177

العـنـوان: 33، نهج طارق ابن زياد – ميتيال فيل – 1082 – تونس.

رقـم الهـاتف: 71.781.566

رقم الفاكس: 71.781.688

البريد الالكتروني: E-mail: ftspt@ftspt.org.tn

مـوقع الـواب: www.ftspt.org.tn

عـدد الجمعيات: 17

تركيبة المكتب الجامعي:

العدد الرتبي	الخطة الجامعية
1	رئيس
2	نائب الرئيس
3	أمين مال
4	عضو
5	عضو
6	عضو
7	عضو
8	عضو
9	عضو
10	عضو

تركيبة المكتب التنفيذي :

العدد الرتبي	الخطة الجامعية
1	رئيس
2	نائب الرئيس
3	أمين مال
4	كاتب عام قار
5	مديرة فنية وطنية
6	عضو

اللجان الفيدرالية :

اللجان الفيدرالية
1. لجنة العلاقات الخارجية
2. اللـجنـة المـالية والإشهار والإستشهار
3. اللجنة الفنية وتكوين الإطارات وتنظيم التظاهرات
4. لجنة التنسيق بين الهياكل الجهوية والتجهيزات
5. لجنة الدراسات والبحوث
6. لجنة الإعلام والعلاقات العامة
7. لجنة التدقيق الداخلي
8. اللجنة القانونية والتأديب وفض النزاعات
9. لجنة الصحة
10. لجنة الألعاب الرياضية التقليدية

العضوية بالهياكل الدولية (28):

- **الجامعة الدولية للرياضة للجميع:** السيد الشاذلي القروي، نائب رئيس.

- **الاتحاد الإفريقي للرياضة للجميع:** السيد الشاذلي القروي، نائب رئيس الاتحاد الإفريقي ورئيس مجموعة شمال إفريقيا.

- **الاتحاد العربي للرياضة للجميع:** السيد الشاذلي القروي، عضو المكتب التنفيذي للإتحاد العربي.

قائمة الجمعيات الرياضية (29):

ع/ر	إسم الجمعية
1	الجمعية التونسية للرياضة للجميع بتونس
2	جمعية الأمل للرياضة للجميع بجندوبة
3	جمعية تنشيط الرياضة للجميع بصفاقس
4	جمعية تنشيط وترفيه الرياضة للجميع بصفاقس
5	جمعية الألعاب والرياضات التراثية (التقليدية) بأريانة
6	البعث الرياضي ببني خيار
7	النادي الرياضي ببني خيار
8	جمعية بلدية طبلبة
9	جمعية الرياضة للجميع ببوسالم
10	جمعية الرياضة للجميع بغار الدماء
11	الجمعية الجهوية للرياضة للجميع بباجة
12	مجموعة الرياضة للجميع بزغوان
13	جمعية الرياضة للجميع بنابل
14	النادي الرياضي الحجري بالمنستير
15	جمعية الرياضة للجميع بقابس
16	جمعية الرياضة للجميع بقبلي
17	الجمعية الجهوية للرياضة للجميع بنابل

5 - الخطة الوطنية للرياضة للجميع من 2009 إلى 2011 :

تهدف الخطة الوطنية للرياضة للجميع أساسا إلى (30):

- نشر ثقافة ممارسة الأنشطة الرياضية لدى المواطنين والتعريف بفوائدها الصحية والاجتماعية.

- إحكام التنسيق بين الأطراف المعنية بالنشاط البدني والرياضي لاستهداف أكبر عدد ممكن من الأفراد والجماعات.

- ترشيد استغلال المنشآت والفضاءات والتجهيزات الرياضية وكذلك الإمكانيات المادية والبشرية المتوفرة وفق معياري الجدوى والنجاعة.

- توفير فرص ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للمواطنين في ظروف إجتماعية ملائمة.

الفصل الثالث: خصائص المجتمع التونسي

1 - الخصائص الديمغرافية للسكان (31):

بلغ العدد الجملي للسكان في تاريخ 28 افريل 2004 (اليوم المرجعي للتعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2004) 9.910.872 نسمة، ويتوزع عدد السكان حسب الجنس إلى 4.965.435 من الذكور و4.945.437 من الإناث، وتمثل الإناث 49.9 % من مجموع السكان ويكون بذلك تعداد سنة 2004 قد أكد ظاهرة تفوق عدد الذكور على عدد الإناث في المجتمع التونسي وإن كان الفارق بين العددين يتضاءل من تعداد إلى آخر، أما حسب الوسط فقد بلغ عدد القاطنين بالمناطق البلدية سنة 2004 نسبة 64.9 %، أما حسب الأقاليم (32) فإن نتائج تعداد سنة 2004 تشير إلى أن إقليم تونس (ولايات تونس، أريانة، بن عروس، منوبة) والوسط الشرقي (ولايات القيروان، القصرين، سيدي بوزيد) هما أكبر الأقاليم من ناحية عدد السكان

إذ أن كل منهما يضم أكثر من خمس سكان البلاد ويتميزان كذلك بأرفع النسب للنمو السكاني، فقد بلغ عدد سكان إقليم تونس 2.247.800 ساكن ،وبنسبة 22.7 % .أما الهيكلة العمرية للسكان فان نتائج التعداد تفيد أن عدد السكان الذين هم في سن النشاط أي من الفئة العمرية 15 سنة فما فوق هو 7.268.900 نسمة، منها 63.3 % ذكور و64.7%، ممثلين بذلك 73.3 % من مجموع سكان البلاد من بينهم 926.4 ألف نسمة تساوي أو تفوق أعمارهم 60 سنة وبنسبة 9.3 % من المجموع.

تبين نتائج تعداد سنة 2004 فيما يتعلق بالحالة المدنية للسكان أن نسبة العزاب من بين السكان الذين يساوي أو يفوق عمرهم 15 سنة هي 42.5 % (47.1% ذكور، 38 % إناث)، ونسبة المتزوجين 51.7% (51.4% ذكور، 52 % إناث) ،وعدد الأرامل 350 ألف نسمة أي ما يقابل 4.8 % من مجموع هذه الفئة العمرية إلا أن هذه النسبة تناهز 8.5 % من بين النساء من نفس الفئة العمرية في حين تبقى في حدود 1 % فقط من بين الرجال، أما نسبة المطلقين فهي 1% (0.5% ذكور، 1.5% إناث).

جدول عدد 9 : السكان والأسر والمساكن لإقليم تونس وحسب الولاية والجنس (مجموع الوسطين) (33).

	السكان						الأسر	المساكن
	المجموع	ذكور	إناث	% ذكور	% إناث			
إقليم تونس	2247792	1142051	1105741	50.8	49.2		533996	593015
كامل الجمهورية	9910872	4965435	4945437	50.1	49.9		2185839	2500830
(المصدر : المعهد الوطني للاحصاء)								

2 ـ الخصائص التربوية للسكان:

تشير نتائج التعداد إلى أن نسبة التمدرس العامة في حدود 31.3% (31.4% ذكور، 31.1 % إناث)، من الفئة العمرية 5 سنوات فما فوق الذين يزاولون تعليما أو تكوينا، أما نسبة الأمية هي 22.9 % من الفئة العمرية 10 سنوات فما فوق وتختلف حسب الجنس إذ تبلغ هذه النسبة 14.8 % من بين الذكور في حين تصل إلى حدود 31.0 % من بين الإناث، كما تتغير نسبة الأمية بصفة ملحوظة حسب الفئات العمرية إذ لا تتجاوز هذه النسبة 6 % من بين الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و29 سنة في حين تبلغ هذه النسبة 71% من بين السكان الذين تفوق أعمارهم 55 سنة أي الذين بلغوا سن الدراسة قبل الاستقلال. (ملحق عدد، جدول عدد 5).

كما تشير نتائج التعداد إلى أن نسبة السكان من الفئة العمرية 10 سنوات فما فوق والذين مستواهم التعليمي لا شيء 23.1% (15% ذكور ،31.1 % إناث)، أما في مستوى محو الأمية فإن النسبة هي 0.4 % (0.2% ذكور، 0.7 % إناث)، ومستوى المدرسة القرآنية أو الكتاب فالنسبة هي 1.3 % (2.1% ذكور، 0.5 % إناث)، أما من هم في مستوى التعليم الابتدائي أو المرحلة الأولى من التعليم الأساسي هي 35.3 % (38.5% ذكور ،32.2 % إناث)، ومستوى التعليم الثانوي أو المرحلة الثانية من التعليم الأساسي نسبة 32 % (35.4% ذكور، 28.6 % إناث)، من نفس المجموع، أما الأشخاص الذين بلغوا مستوى التعليم العالي بنجاح فهم يمثلون نسبة 7.9 % (8.8% ذكور، 6.9 % إناث).

المستوى التعليمي	ذكور		إناث		المجموع	
	1994	2004	1994	2004	1994	2004
لاشيء (دون مستوى تعليمي)	21,3	15,0	42,3	31,1	31,7	23,1
دروس محو الأمية	–	0,2	–	0,7	–	0,4
المدرسة القرآنية أو الكتاب	2,4	2,1	0,2	0,5	1,3	1,3
ابتدائي وأساسي مرحلة اولى	42,3	38,5	35,4	32,2	38,9	35,3
ثانوي وأساسي مرحلة ثانية	28,9	35,4	19,6	28,6	24,3	32,0
عالي	5,1	8,8	2,5	6,9	3,8	7,9
المجموع	100,0	100,0	100,0	100,0	100,0	100,0

(المصدر : المعهد الوطني للاحصاء) جدول : تطور هيكلة السكان حسب المستوى التعليمي والجنس1994-2004

3 ـ الخصائص الاقتصادية للسكان (34) :

بلغ عدد السكان النشطين من الفئة العمرية 15 سنة فما فوق 3328.6 ألف ناشط ويتوزع السكان النشطون حسب الجنس إلى 2444.1 ألف رجل و884.5 ألف امرأة وهو ما يمثل على التوالي 73.4 % و26.6 % من مجموع النشطين وبالمقارنة مع نتائج تعداد سنة 1994 فإن معدل نسبة الزيادة السنوية في عدد النشطين تكون في حدود 1.44 % للذكور و3.08 % للإناث، وبلغت نسب المشتغلين حسب المستوى التعليمي (تعليم عالي 12.7%، ثانوي 34.9 %، ابتدائي 37.9 %، لا شيء 14.5%)، أما نسبة البطالة فهي 13.9 % (12.9% ذكور، 16.7 % إناث) من بين ناشطي هذه الفئة العمرية (15 سنة فما فوق)، وهيكلة البطالة من حيث المستوى التعليمي هي (9.4 % مستوى تعليم عالي، 36.9 % مستوى تعليم ثانوي ،41.6% مستوى تعليم ابتدائي، 12.1 % لاشيء).

خصائص المساكن والأسر وظروف العيش :

يمثل المسكن حسب مفهوم التعداد المحل المتكون من غرفة أو عدة غرف مستقلة يمكن استغلاله لإسكان أسرة واحدة أو أكثر .وللمسكن مدخل أو عدة مداخل تفتح بصورة مباشرة على طريق أو ممر عمومي أو ساحة أو مدرج بعمارة، ويشمل مجموع المساكن كل المحلات السكنية البدائية كالخيمة والقربي والكوخ والكيب والمعمرة المأهولة بالسكان أي التي تقيم بها أسرة، كما تم اعتبار المسكن المتواضع (غرفة بالوكالة وكذلك المحلات غير المعدة أصلا للسكن كالقاراج والمخزن والحانوت إن كانت تقيم بها أسرة في اليوم المرجعي للتعداد) مسكنا مستقلا.

السنة	1975	1984	1994	2004
وسط بلدي	464.5	725.8	1211.3	1726.0
وسط غير بلدي	557.3	587.3	657.2	774.8
المجموع	1021.8	1313.1	1868.5	2500.8

(المصدر : المعهد الوطني للاحصاء) جدول : تطور عدد المساكن حسب الوسط (بالألف) (35).

بلغت نسبة نمو عدد المساكن على مستوى المناطق البلدية بين تعداد 1994 و2004 نسبة 3.60 بالسنة، أما خارج المناطق البلدية فقد ارتفعت في نفس الفترة بنسبة نمو تعادل 2.81، وتجدر الإشارة إلى أن 81 % من الزيادة الحاصلة في عدد المساكن قد شملت المناطق البلدية من البلاد. أما بالنسبة للأسر وظروف عيشها، فقد بلغ عدد الأسر في اليوم المرجعي للتعداد(2004) 2185839 أسرة وبنسبة نمو تقدر ب 2.52 % في السنة مقارنة بتعداد 1994، وتمثل الأسرة حسب مفهوم التعداد مجموعة من الأشخاص تربطهم أوّلا صلة قرابة ويعيشون في مسكن واحد ويتناولون الوجبات الغذائية في غالب الأحيان سويا. كما تشير نتائج التعداد إلى

أن متوسط حجم الأسرة قد تقلص بنسق سريع خلال العشرية الأخيرة (1994-2004)، ليبلغ 4.53 (36).

الدراسات السابقة :

قام العديد من الباحثين (37) بدراسة الإستراتيجيات الخاصة بالرياضة سواء على المستوى العربي، الإقليمي، والدولي، وفيما يلي بعض الدراسات التي تناولت استراتيجيات الرياضة للجميع :

* دراسة مديحة محمد الإمام 1979م : وعنوانها دور الصحافة في نشر الثقافة الرياضية عامة وألعاب القوى خاصة (38).

هدفت الدراسة إلى معرفة دور الصحافة في نشر الثقافة الرياضية بصفة عامة وألعاب القوى بصفة خاصة للفترة من 1950 - 1977م واختار الباحث عينة مدتها 7 سنوات من تلك الفترة بينما امتدت فترة تحليل الصحف الرياضية خلال تلك الفترة وقد بلغت العينة البشرية (1600) شخص تم اختيارهم عشوائيا وقد استخدم الباحث المنهج المسحي واستمارة تحليل المضمون لثماني صحف عامة ورياضية ومن أهم ما توصلت إليه الدراسة ما يلي :

- احتلت كرة القدم المرتبة الأولى من اهتمام الصحف العامة والرياضية.

- لم تحقق الصحافة الرياضية أهدافها من حيث نشر الثقافة الرياضية.

- الصحافة الرياضية لا تسهم في رفع المستوى الرياضي ولم تأخذ ألعاب القوى الاهتمام المطلوب.

* دارسة نشوى إمام أمام إبراهيم 2003م: وعنوانها تأثير الإعلام الرياضي المدرسي على تعديل الاتجاهات والثقافة الرياضية لدى تلميذات المرحلة الإعدادية (39).

هدفت الدراسة إلى التعرف على تأثير الإعلام الرياضي المدرسي على اتجاهات التلميذات نحو ممارسة التربية الرياضية وكذلك تأثير الإعلام المدرسي على الثقافة الرياضية لتلميذات المرحلة الإعدادية.

تم اختيار عينة الدراسة بطريقة عشوائية وبلغ حجم العينة الخاضعة للتجريب 42 طالبا وكانت أهم النتائج ما يلي :

- يؤثر الإعلام الرياضي المدرسي تأثيرا إيجابيا على الثقافة الرياضية.

- يؤثر الإعلام الرياضي المدرسي تأثيرا إيجابيا على تعديل الاتجاهات الرياضية.

- وسائل الإعلام الرياضي المدرسي حققت هدف نشر الثقافة الرياضية.

* دراسة أيمن محمد الهنداوي 2001م: وعنوانها تحليل برامج التلفزيون الرياضية وأثرها على نشر الوعي الرياضي (40).

وهدفت الدراسة إلى تحليل البرامج التلفزيونية الرياضية وتحديد أثرها على نشر الوعي الرياضي لتلاميذ المرحلة الإعدادية، واستخدم الباحث المنهج الوصفي المسحي على عينة عشوائية من تلاميذ المرحلة الإعدادية 12-15 سنة وقد استخدم الاستبيان لجمع بيانات البحث وكانت أهم النتائج الآتية :

- البرامج الرياضية في التلفزيون لا تلبي رغبات الجمهور من المشاهدين في هذه المرحلة السنية.

- البرامج الرياضية لا تلقى الاهتمام الكافي من حيث عدد ساعات البث والإرسال.

قام بالمر 1979 (41) بوضع أطر المحددات الإستراتيجية والتخطيط للرياضة في بريطانيا، حيث تمثلت في تصحيح أهدافها كالفوز على الصعيدين الوطني والدولي، ورفع مستوى المشاركة في برامج الرياضة للجميع، وتعزيز المستوى الصحي والطرق والوسائل التي يمكن من خلالها تقديم التسهيلات، وإيجاد الإمكانات لأنشطة الرياضة للجميع، ودراسة النماذج المتقدمة في بعض دول العالم، والتأكيد على رقابة ومتابعة الإستراتيجية، ووضع الأسئلة القابلة للأطروحات؛ التي تساعد في التعديل والمرونة للإستراتيجية، ووضع سؤال جوهري

هل هناك طموحات مبالغة في الإستراتيجية؟ ثم هل تم البدء في تنفيذ الإستراتيجية؟

– وقدم السيار 1993 دراسة بعنوان بناء إستراتيجية للرياضة للجميع بدولة البحرين (42)، حيث تناولت الدراسة الوصفية أهداف الرياضة للجميع، والهيكل التنظيمي لها، وأنشطتها ومعوقاتها في البحرين، حيث توصلت الدراسة إلى مجموعة من التوصيات؛ مثل إصدار التشريعات، وضع البرامج، إيجاد التمويل، توفير المنشآت والملاعب، إعداد القادة، الإعلام ودوره في نشر ثقافة الرياضة للجميع، وذلك من خلال ما أظهرته نتائج الدراسة التي اشتملت على عينة مكونة من875 شخص من خبراء وقيادات ومدرسين وطلبة رياضيين وموظفين وكبار السن وربات البيوت ومعاقين.

– وفي دراسة علمية قدمها عويس(1995) من المجلس الأعلى للشباب والرياضة في مصر (43) حول الأدوار المستحدثة للأنشطة الرياضة، فقد توصلت الدراسة إلى عدم وجود سياسات أو استراتيجيات واضحة بين المؤسسات المسؤولة عن التنشئة التربوية، كما أكدت نتائج الدراسة إلى أن كلاً من الرياضة والترويح قد أصبحا من أحد ضروريات الحياة المعاصرة.

– وفي دراسة علمية تحليلية للرياضة للجميع في ضوء إطارها الفلسفي والتطبيقي، قام بها الحماحمي (44)، وقدمت إلى المؤتمر العلمي التاسع (الرياضة وتحديات القرن الحادي والعشرين) الذي نظمته كلية التربية الرياضية للبنين بالقاهرة (1997)، أشارت نتائج الدراسة إلى أن أهم التراكمات والتحديات التي تواجه الرياضة للجميع هي مشكلات مرجعها المجتمع، المواطنين، برامج الرياضة، التعاون الدولي.

– وفي دراسة مسحية أجراها الجيوشي(1998) بعنوان إستراتيجية مقترحة للرياضة للجميع في مصر (45) على عينة من360 من خبراء الرياضة للجميع، و500 من ممارسي أنشطة الرياضة للجميع، فقد توصلت نتائج الدراسة إلى أن أهم عوامل ممارسة الرياضة هي تنمية اللياقة، تطوير الأجهزة الوظيفية، التخلص من التوتر، تدعيم العلاقات الاجتماعية، كما بينت النتائج كذلك معوقات الرياضة في مصر؛ مثل عدم توفر الوقت الفراغي، نقص الثقافة بخصائص وأهمية الرياضة، الارتباطات العائلية، المشاكل الصحية، عدم اهتمام وسائل الأعلام بالرياضة للجميع.

– وقام الحماحمي وآخرون 2001 بدراسة حول معرفة تحديات ممارسة الرياضة للجميع في مصر (46)، تكونت عينة الدراسة من 980 شخصًا، منهم 600 من الذكور، 380 من الإناث، تم اختيارهم بالطريقة العشوائية من أندية الزمالك والأهلي ومركز خدمة المجتمع بكلية التربية الرياضية بالقاهرة، وتراوحت أعمارهم ما بين (20/ 45) عامًا، وبعد التأكد من جمع البيانات وتحليلها، أوصت نتائج الدراسة بضرورة توفير وزارة الشباب الدعم المادي للخطط وبرامج الرياضة للجميع، تكثيف حملات الإعلان لدعم حركة الرياضة للجميع، اهتمام الدولة بتوفير المنشآت الرياضية للمواطنين، وإدخال برامج الرياضة للجميع بالمدارس والمعاهد والجامعات؛ لتلبية احتياج الأفراد لإشباع حاجاتهم وتحسين قدراتهم من أجل الصحة، وإيجاد المساحات الواسعة في المدن، وتزويدها بالمرافق العامة لتنفيذ برامج الرياضة للجميع، مع تعميم خطط وحدات الرياضة للجميع وتنفيذها لتدعيم الاتجاهات الايجابية، والتغلب على المعوقات التي يواجهها الأفراد كما أظهرتها الدراسات المرتبطة بالمنشآت والخطط والبرامج وعدم اهتمام الدولة بمشاريع الرياضة للجميع ودعمها.

– وقام توماس (1986) (Thomas) بدراسة مبادئ الإستراتيجية الرياضية للشباب في نيوزلندا (47)، من حيث التخطيط التعاوني والذي يستند على التنسيق والتعاون بين الإدارات المعنية بالرياضة؛ بهدف التخطيط الهام الذي يساعد على نشر الرياضة بين الجمهور؛ وذلك من خلال القيام بالبحوث والدراسات العلمية التي تعتبر العنصر الرئيسي للوصول إلى إستراتيجية تحقق الأهداف، مدعمة بجهود الدولة لتوفير الأماكن الرياضية الملائمة.

– وقام جوزيف وماير Joseph and Myer (1977) بدراسة حول تجربة كندا في مجال الإستراتيجية العامة للرياضة للجميع، حيث أسفرت النتائج عن مقترحات تتضمن وجود برامج رياضية طابعها المشي أو ركوب الدراجة بدلا من المركبات، وتضمنت كذلك مقترحات الدراسة بوضع برنامج للنشاط الترويحي والرياضي للوصول لصحة جيدة؛ خاصة فئة كبار السن.

– وفي دراسة قام بها مورفي Murrphy (1998) من مركز البحوث في الرياضة والمجتمع من جامعة ليستر البريطانية، تحت عنوان «مشاكل في السياسة العامة ودور الرياضة للجميع» حيث تطرقت الدراسة إلى أن هناك دولا كثيرّة في العالم وليس فقط في العالم المتطور تسعى الحكومات فيها وبطرق مباشرة وغير مباشرة إلى دعم الرياضة للجميع من خلال سياسات تتبناها هذه الدول على المستوى المحلي؛ بحيث تهدف هذه السياسة إلى تحقيق الأهداف المرجوة من جعل الرياضة فعلا للجميع.

وتساءلت الدراسة عن مدى العلاقة بين سياسات الرياضة للجميع والسياسات الصحية لهذه الدول، واستشهدت الدراسة التي أبدت فكرة أن ممارسة الأنشطة الرياضية بمضمونها العام جيدة ومفيدة من الناحية الصحية، وهذه الفائدة ليست مفيدة كون الرياضة رياضة؛ لكنها مفيدة من أجل حركة الجسم وصحته بشكل عام، علما أن النشاطات الجسدية تختلف عن الرياضة بمفهومها العام، فعلى سبيل المثال وكما هو معروف فإن الرياضة هي معارك تنافس ينتج من خلالها العنف، واستخدام العنف الجسدي، الذي يؤدي إلى إصابات في الجسم، مما ينعكس سلبا على الصحة العامة، وأوصت الدراسة على أن تتبع الحكومات سياسات توجيهية لتحسين صحة الناس عند ممارستهم الرياضة لتكون فعلا الرياضة للجميع، حيث أن حقيقة الأبعاد السياسية المتعلقة بالرياضة، وعدم التنسيق مع السياسة الصحية، دائمًا يؤدي إلى أن تكون الرياضة ليست للجميع.

مما سبق يتبين مدى أهمية الدراسة الحالية في أنها تناولت الرياضة للجميع من خلال واقعها وآفاقها في تونس، وهذا ما يجعلها متميزة عن غيرها من الدراسات على المستوى العربي والأجنبي.

إجــــراءات الدراســـة

أولا: منهج الدراسة

التعريف بالمنهج المتبع في البحث :

من أجل تحليل ودراسة المشكلة التي طرحناها، واستجابتا لطبيعة الموضوع الذي اقترحناه، اعتمدنا على المنهج الوصفي استجابة لطبيعة الموضوع وقدرته على تحقيق أهداف الدراسة، والإجابة على تساؤلاتها. والذي يعرف بأنه «كل استقصاء ينصبّ على ظاهرة من الظواهر التعليمية أو النفسية، كما هي قائمة في الحاضر، قصد تشخيصها وكشف جوانبها وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين الظواهر التعليمية أو النفسية أوالإجتماعية الأخرى» (48).

فهو «طريقة لوصف الظاهرة المدروسة وتصويرها كميا عن طريق جمع معلومات مقننة عن المشكلة وتصنيفها وتحليلها وإخضاعها للدراسة الدقيقة» (49).

– المنهج الوصفي التحليلي هو منهج يقوم على دراسة الظاهرة كما هو الحال عليها في الواقع ويهتم بوصفها وصفا دقيقا ويعبر عنها كميا أو كيفيا (50).

– يعرف بأنه «كل استقصاء ينصب على ظاهرة من الظواهر التعليمية أو النفسية، كما هي قائمة في الحاضر، قصد تشخيصها وكشف جوانبها وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين الظواهر التعليمية أو النفسية أوالإجتماعية الأخرى» (51).

• فهو «طريقة لوصف الظاهرة المدروسة وتصويرها كميا عن طريق جمع معلومات مقننة عن المشكلة وتصنيفها وتحليلها وإخضاعها للدراسة الدقيقة (52) وبناء على ذلك ارتأينا أن المنهج الوصفي هو المنهج المناسب لطبيعة

هذا الموضوع الذي ندرسه في بحثنا هذا، ويتم ذلك عن طريق جمع البيانات ووصف الظروف ثم تنظم البيانات وتستخرج الاستنتاجات والاقتراحات.

- تستدعي دراستنا هذه استعمال المنهج الوصفي والذي يهدف إلى وصف الظاهرة المتعامل معها وصفا مفصلا من خلال جمع بيانات دقيقة وكافية والتحقق من صحتها وكشف الجوانب التي تحكمها (53).

- المنهج الوصفي هو عبارة عن استفتاء حول ظاهرة من الظواهر التعليمية أو التربوية أو النفسية على ما هي عليه في الحاضر بقصد تشخيصها وكشف جوانبها وتحديد العلاقة بين عناصرها أو العلاقة بينها وبين الظواهر الأخرى المرتبطة بها (54).

المنهج الوصفي المسحي :

• عبر الكثير من التربويين عن ماهية المنهج المسحي ولكن كل بطريقته الخاصة.

- المسح لغويا: «إلقاء نظرة شاملة وفاحصة على موضوع معين بغرض فهمه وإدراك مختلف جوانبه وتداخلاته وأبعاده».

• عند تناول المنهج المسحي تظهر لنا الكثير من المفاهيم البحثية أهمها :

- المسح: ونعني به أن يجمع الباحث بيانات مجتمع الدراسة كله.

- مسح عينة: ويعني أن يجمع الباحث بياناته عن عينة للمجتمع فقط.

- الحقائق: هي أي شيء يمكن التحقق منه بشكل مستقل وموضوعي.

- الآراء: وهي تعبير عما يعتقد الشخص أو يؤمن به أو يشعر به وهي أمور نسبية تختلف من شخص لآخر.

- السلوك: وتشير إلى فعل قام به المستجيب.

وتعتبر هذه المفاهيم من الأهمية بمكان عند تناول أي دراسة مسحية لذا لابد للباحث من تحديد كنه متغيراته وعينته بشكل دقيق.

• من أقدم الطرق المستخدمة في البحث العلمي وهو طريقة متميزة تدين بتطورها إلى علم الاجتماع، فعلى الرغم من أنها تعتبر من الطرق الحديثة إلا أن جذورها التاريخية ترجع لعهود قديمة؛ فقد بدأت مع الفراعنة في تعداد السكان، وحصر المحصول. أما بداياتها في العصر الحديث فتبلورت في منتصف القرن الثامن عشر فيما قام به جون هوارد (1726-1795م) من مسح لنظام السجون في انجلترا واستخدم كطريقة للبحث بصورة موضوعية منتظمة سنة 1886 بدراسة البحوث المسحية عن عمل وحياة سكان مدينة لندن؛ وبذلك يعتبره البعض أب المسوحات الاجتماعية كطريقة علمية.

كما يعد منهج البحث المسحي من أكثر طرق البحث التربوي استعمالا؛ لأنه يمكننا من جمع وقائع ومعلومات موضوعية قدر الإمكان عن ظاهرة معينة، أو حادثة مخصصة، أو جماعة من الجماعات، أو ناحية من النواحي (صحية، تربوية، اجتماعية...) ويعمل الباحث فيه على تحليل واقع الحال للأفراد في منطقة معينة من أجل توجيه العمل في الوقت الحاضر وفي المستقبل القريب.

وبناء على ذلك ارتأينا أن المنهج الوصفي هو المنهج المناسب لطبيعة هذا الموضوع الذي ندرسه في بحثنا هذا، ويتم ذلك عن طريق جمع البيانات ووصف الظروف ثم تنظم البيانات وتستخرج الاستنتاجات والاقتراحات.

ثانيا : مجتمع الدراسة

تكوّن مجتمع الدراسة من جميع منشطي جمعيات الرياضة للجميع (19 جمعية) التابعة للجامعة التونسية للرياضة للجميع ومن الممارسين للنشاط البدني والرياضي بالمسالك الموجودة بالعاصمة.

		عدد المستجوبين		المجموع	المجموع العام	ملاحظات
		ذكور	إناث			
1	ممارسين	25	25	50	....	في المسالك
2	غير ممارسين	25	25	50	....	
3	منشطي جمعيات الرياضة للجميع	25	25	50		19 جمعية للرياضة للجميع
	المجموع	75	75	150		

ثالثا : عينة الدراسة

لضمان سلامة بحثنا والوصول إلى نتائج دالة وموضوعية فضلنا أن تكون عينة البحث متكونة من :

- 50 ممارسا للرياضة للجميع
- 50 من غير الممارسين للأنشطة البدنية والرياضية
- 50 منشطا من المشرفين والمنفذين في 19 جمعية من جمعيات الرياضة للجميع التابعة للجامعة التونسية للرياضة للجميع.

حجم العينة

		عدد المستجوبين		المجموع	ملاحظات
		ذكور	إناث		
1	ممارسين	25	25	50	في المسالك
2	غير ممارسين	25	25	50	
3	منشطي جمعيات الرياضة للجميع	25	25	50	19 جمعية للرياضة للجميع
	المجموع	75	75	150	

رابعا : أداة وخطوات تطبيق أداة الدراسة

1 – تقديم الاستبيان :

يتضمن الاستبيان الأول الموجه إلى غير الممارسين والممارسين للرياضة للجميع بإقليم تونس الكبرى على 26 سؤالا، أما الاستبيان الثاني الموجه إلى المشرفين والمنفذين التابعين لهياكل الرياضة للجميع (منشطي جمعيات الرياضة للجميع) فهو يتضمن 38 سؤالا. هذه الأسئلة مجمعة يمكن تبويبها حسب فرضيات البحث كالآتي :

خاصيات العينة 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8

1 – السياسة الرياضية وممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للجميع 1 ...21، 26، 27

2 – هياكل الرياضة للجميع وتأطير وممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للجميع 13، 14، 16، 17، 18، 22، 23، 24، 25

3 – دور وسائل الإعلام الرياضية في نشر وتدعيم مفهوم الرياضية للجميع في تونس؟ 1، 2، 3، 4، 5، 6، 22، 23

وقبل اعتماد هذا الاستبيان بصيغته النهائية وقع

اختبار مدى صلاحيته من حيث الوقت المستغرق للإجابة والاستجابة على عينة مصغرة متكونة من 18 مستجوبا وتشمل 6 من منشطي جمعيات الرياضة للجميع ينتمون إلى 3 جمعيات مختلفة (ولايات تونس، صفاقس، قفصة) و6 بطريقة عشوائية من ممارسي النشاط البدني والرياضي و6 بطريقة عشوائية من غير الممارسين للرياضة للجميع، في الفترة الممتدة بين 14 و17 جانفي 2010 بالحمامات خلال دورة تكوينية لمنشطي الرياضة للجميع.

كان الاستبيان الموجه إلى غير الممارسين والممارسين للرياضة للجميع بإقليم تونس الكبرى في صيغته الأولى يحتوي على 34 سؤالا وقع إلغاء عدد 06 أسئلة لعدم ارتباطها بموضوع بحثنا ووقع دمج 04 أسئلة في سؤالين ووقعت إعادة صياغة 10 أسئلة لغويا مع المحافظة عليها نظرا لتضارب فهمها من قبل المستجوبين، ووقع إخراج الاستبيان في صيغته النهائية مشتملا على26 سؤالا وكانت النتائج المسجلة مرضية فوقع اعتماده وتمريره على عينة البحث.

أما الاستبيان الثاني الموجه إلى المشرفين والمنفذين بهياكل الرياضة للجميع (منشطي جمعيات الرياضة للجميع) فقد احتوى في صيغته الأولى على 40 سؤالا وقع حذف سؤال واحد (1) لعدم ارتباطه بموضوعنا وسؤال واحد (1) نظرا لتكرار وروده في الاستبيان، ووقع إخراج الاستبيان في صيغته النهائية مشتملا على 38 سؤالا.

العينة التجريبية لاختبار الاستبيان

		عدد المستجوبين	ذكور	اناث	ملاحظات
1	ممارسين	6	3	3	في مسلك رياضي
2	غير ممارسين	6	3	3	
3	منشطي جمعيات	6	3	3	في 3 جمعيات الرياضة للجميع
	المجموع	18	9	9	

2 – التحديد الجغرافي للاستبيان :

وقع تمرير الاستبيان في إقليم تونس الكبرى: (ولايات أريانة، تونس، بن عروس، منوبة)هذه الجهة التي نعتبرها الفضاء الأمثل للبحث والدراسة نظرا :

– لأن مختلف الفئات الاجتماعية والاقتصادية والفرق الرياضية ممثلة بنسبة كبيرة.

– لأن الظاهرة الرياضية فيها طاغية من حيث عدد الممارسين للرياضة ومن حيث عدد الاختصاصات الرياضية المتواجدة جماعية أو فردية.

– إضافة إلى البنية الأساسية الرياضية المتوفرة بتونس الكبرى والتي هي ذات مستوى عالمي احتضنت كبرى التظاهرات الرياضية العربية والإفريقية والعالمية.

3 – صعوبات تمرير الاستبيان :

وقع تمرير الاستبيان في المسالك الصحية والمساحات الخضراء وبعض المنشآت الرياضية وملاعب الأحياء، ورغم الاستعداد الجيد لتمريره إلا أن عملية التمرير تطلبت الكثير من الوقت مما اضطرنا إلى زيارة أماكن الممارسة العديد من المرات ودون جدوى في بعض الأحيان، ومن الصعوبات الأخرى التي اعترضتنا في تمرير الاستبيان أيضا :

ـ عدم انتظام الجمعيات الرياضية في جدولة التظاهرات الرياضية وعدم إعلامنا بذلك مما جعلنا نتنقل دون جدوى.

ـ عدم التعاون في بعض الأحيان من قبل الممارسين ومنشطي الرياضة للجميع في الإجابة على الاستجواب.

ـ الوقت المخصص لممارسة الرياضة الذي يبدأ غالبا في ساعة مبكرة قبل أوقات العمل أو متأخرة بعد أوقات العمل وعدم قبول ملء الاستمارة نظرا لقلة الإنارة (المستجوبات) ونظرا لتأخر الوقت ونظرا للخوف من انعدام وسائل النقل.

ـ عدم الإعلام في وسائل الإعلام الرياضي على تظاهرات وأنشطة الرياضة للجميع

4 - الأهداف من الاستبيان :

- السياسة الرياضية وممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للجميع

- هياكل الرياضة للجميع وتأطير وممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للجميع

- دور وسائل الإعلام الرياضية في نشر وتدعيم مفهوم الرياضية للجميع في تونس ؟

5 ـ المعالجات الإحصائية

1 - البحث الميداني :

اعتمادا على الاختيار العشوائي، قمنا بتمرير الاستبيان الأول الموجه إلى الممارسين وغير الممارسين للرياضة للجميع بإقليم تونس الكبرى، واعتمادا كذلك على الاختيار العشوائي قمنا بتمرير الاستبيان الثاني الموجه إلى المشرفين والمنفدين بهياكل الرياضة للجميع (منشطي الرياضة للجميع بالجمعيات)

-1 -1 - أدوات التحليل الإحصائي

بعد تفريغ الاستبيان، وقع تحويل العينات المسجلة لكل سؤال في جدول ذي ثلاثة مداخل يشتمل على 3 أعمدة (الممارسين، غير الممارسين، منشطي الرياضة للجميع) يقابلها سطور حسب عدد الحالات للمتغير المدروس، وللتثبت إذا كانت الفروقات الملاحظة على مستوى العينة المسجلة ذات دلالة أم لا. تطابقا مع القوانين الرياضية للاحتمالات استعملنا الاختبار الإحصائي كا2، «مربع ك 2 من الأدوات التي تستخدم في قياس مدى التطابق بين توزيعين أحدهما توزيع فعلي لقيم تم قياسها والآخر توزيع نظري ...أي أن المطلوب اختباره هو في ما إذا كانت الفروق بين التكرارات الفعلية والتكرارات النظرية جوهرية واضحة أم ظاهرية مجردة. فإذا كانت الفروق ظاهرية فمعنى ذلك أنها نتيجة صدفة وحظ وليست مرتبطة بعوامل أخرى. أما إذا كانت الفروق فعلية فمعنى ذلك أنها ليست خاضعة للصدفة وإنما نتيجة عوامل مسؤولة عنها» (55).

إن استخدام الاختبار الإحصائي ك 2 يحقق "هدفين رئيسيين :

ـ تحديد دلالة انحرافات التكرارت الفعلية عن التكرارات النظرية ،أي أن المطلوب هو الحكم على مدى ملاءمة النموذج النظري لتوزيع التكرارات الفعلية.

ـ تحديد دلالة العلاقة بين مجموعتين أو أكثر من التصنيفات بالنسبة إلى خصائص معينة. أي اختبار هل أن هناك تطابقا في العلاقة بين مجموعتين أو أكثر من البيانات بالنسبة إلى صفات معينة" (56).

1 - 2 - اختبار كا 2

لقد استعملنا في تحليلنا للجداول الإحصائية الأداة اختبار كا 2 وهي أداة لمقارنة النسب المئوية أو التوترات العددية ولنا نوعان من التحليل الإحصائي للجداول (المعالجة الإجمالية أو العامة، والمعالجة التحليلية):

أ ـ المعالجة العامة أو **الإجمالية**: تهتم بأرجل الجدول وتمكننا من مقارنة النسب المئوية دون ذكر المتغيرات المستقلة.

ب ـ المعالجة التحليلية: تهتم بالنسب والتوترات داخل الجدول بقدر ما لنا من متغيرات في السؤال الواحد.

ـ اختبار كا 2 الإجمالي : جدول عدد 27 :جدول نظري لاختبار ك 2 الاجمالي (57).

	نعم	لا	المجموع
العدد الحقيقي	X1	X2	X2+ X1
العدد النظري	X'1	X'2	X'2+ X'1
المجموع	X'1+X1	X'2+X2	X'2+X2+ X'1+X1

درجة الحرية = (عمود1-)×(سطر 1-)

اختبار كا 2 التحليلي : نقوم أولا بالبحث على العدد النظري داخل الجدول الذي يكون نتيجة ضرب أيدي الجدول في أرجله، ثم نقسم العدد الذي نحصل عليه

على مجموع العينة، مثال: جدول عدد 28 : جدول نظري لاختبار ك 2 التحليلي (58).

العدد الحقيقي		
X1	X2	N1
X3	X4	N2
N3	N4	N

$$X'1= \frac{N1*N3}{N}, X'3=\frac{N2*N3}{N}, X'2=\frac{N1*N4}{N}, X'4= \frac{N2*N4}{N}$$

العدد النظري	
X'1	X'2
X'3	X'4

$$XA= \frac{(X1-X'1)2}{X'1} + \frac{(X2-X'2)2}{X'2} + \frac{(X3-X'3)2}{X'3} + \frac{(X4+X'4)2}{X'4}$$

درجة الحرية =(سطر1-) ×(عمود1-)

عندما تكون الأعداد النظرية أقل من 10 يتم استعمال مربع كاف المصحح الذي يستوجب حذف 0.5 من العدد الذي يحدثه الفارق بين العدد الحقيقي والعدد النظري ثم يرفع هذا العدد ضارب 2

$$X'1 < 10 \text{ مع } XGC = \frac{((X1-X'1)-0.5)2}{X'1}$$

- إن عتبة الثقة المعتمدة خلال التحليل الإحصائي وقع تحديدها ابتداء من (0.05).

ـ تجدر الإشارة هنا أننا استعملنا لحساب كا2 المحسوبة، برنامجا خاصا معدّا للغرض على صفحة اكسيل لمعرفة قيمة ودلالة كا2 بأنواعها.

ك 2 ج = مربع الكاف الإجمالي، ك 2 ت = مربع الكاف التحليلي، ك2 جد = مربع الكاف الجدولية

- دال جدا، عتبة ثقة 0.05

عرض ومناقشة النتائج :

نتائج خصائص العينة

السؤال		ك 2ج ك2 ت	ك2 جد	الدلالة	عتبة الثقة	حساب المؤشرات %					
						1	2	3	4	5	6
1	كا 2 ج4	28.29	9.49	دالة جدا	0.05	52،00%	26،00%	22،00%			
	كا 2 ت4	0.24		غير دالة	0.05						
2	كا 2 ج2	6.83	5.99	دالة جدا	0.05	60،00%	40،00 %				
	كا 2 ت2	5.08		غير دالة	0.05						
3	كا 2 ج	59.01	12.59	دالة جدا	0.05	20،00%	% 20،00	40،00%	20،00%		
	كا 2 ت	10.74	5.99	دالة جدا	0.05						
4	كا 2 ج2	5.23		غير دالة	0.05	54،00%	% 46،00				
	كا 2 ت2	0.88		غير دالة	0.05						
5	كا 2 ج8	136.93	15.51	دالة جدا	0.05	0،00%	% 2،00	14،00%	46،00%	38،00%	
	كا 2 ت8	0.62		غير دالة	0.05						
6	كا 2 ج8	242.07	15.51	دالة جدا	0.05	0،00%	% 0،00	82،00%	14،00%	4،00%	
	كا 2 ت8				0.05						
7	كا 2 ج	16.67	5.99	دالة جدا	0.05	100،00%	% 0،00				
	كا 2 ت	150		دالة جدا	0.05						
8	كا 2 ج4	23.08	9.49	دالة جدا	0.05	22،00%	% 18،00	60،00%			
	كا 2 ت4	8.33		غير دالة	0.05						

أولا : عرض ومناقشة نتائج الفرضية الأولى

جدول : مقارنة إجابات العينة، قيمة ودلالة ك2 ج وك2 ت

السؤال		ك 2 ج ك2 ت	ك2 جد	الدلالة	عتبة الثقة	حساب المؤشرات %					
						1	2	3	4	5	6
7	كا 2 ج	16.67	5.99	دالة جدا	0.05	100،00%	0،00 %				
	كا 2 ت	150		دالة جدا	0.05						
8	كا 2 ج4	23.08	9.49	دالة جدا	0.05	22،00%	18،00 %	60،00%			
9	كا 2 ج	16.00	5.99	دالة جدا	0.05	40،00%	60،00 %				
10	كا 2 ج8	13.91	15.51	غير دالة	0.05	20،00%	32،00%	2،00%	12،00%	34،00%	
	كا 2 ت8	52.66		دالة جدا	0.05						
11	كا 2 ج4	7.26	9.49	غير دالة	0.05	26،00%	26،00%	48،00%			
	كا 2 ت4	4.55		غير دالة	0.05						
12	كا 2 ج8	30.07		دالة جدا	0.05	16،00%	6،00%	8،00%	46،00%	24،00%	
	كا 2 ت8	6.83	15.51	غير دالة	0.05						
13	كا 2 ج4	7.06	9.49	غير دالة	0.05	54،35%	34،78%	10،87%			
	كا 2 ت4	14.31		دالة جدا	0.05						
14	كا 2 ج8	79.47		دالة جدا	0.05	12،00%	52،00%	22،00%	10،00%	4،00%	
	كا 2 ت8	4.84	15.51	غير دالة	0.05						
15	كا 2 ج4	12.88	9.49	دالة جدا	0.05	33،33%	51،11%	15،56%			
16	كا 2 ج	28.05	5.99	دالة جدا	0.05	66،67%	33،33%				
	كا 2 ت	31.29		دالة جدا	0.05						
17	كا 2 ج4	4.93	9.49	غير دالة	0.05	14،10%	47،44%	38،46%			
	كا 2 ت4	107.04		دالة جدا	0.05						
19	كا 2 ج2	4.35	5.99	غير دالة	0.05	44،44%	55،56%				
20	كا 2 ج10	34.02		دالة جدا	0.05	50،00%	0،00%	0،00%	50،00%	0،00%	0،00%
	كا 2 ت10	9.23	18.31	غير دالة	0.05						
21	كا 2 ج	33.79		دالة جدا	0.05	20،00%	12،00%	12،00%	12،00%	4،00%	40،00%
	كا 2 ت	7.57	15.51	غير دالة	0.05						
26	كا 2 ج2	0.38	5.99	غير دالة	0.05	54،35%	45،65%				
27	كا 2 ج2	49.92	5.99	دالة جدا	0.05	18،00%	82،00%				

من خلال النتائج التي تحصلنا عليها نستنتج أن:

- أن السياسة الرياضية في تونس تدعم الرياضة للجميع من خلال البرامج والتشريعات إلا أنها ظلت غير معروفة لدى أغلب الناس وهنا نتساءل عن الجودة في دور الهياكل الساهرة على تنفيذ ومتابعة برامج الرياضة للجميع.

الفرضية الأولى

من خلال الاسئلة الخاصة بهذه الفرضية نستنتج أن أغلبية المستجوبين لا يعتقدون أن الرياضة للجميع أخذت حظها في المخطط 11 للتنمية في تونس، ونجد هذه الإجابة طبيعية باعتبار أن أغلبيتهم لا يملكون فكرة عن الخطة الوطنية للرياضة للجميع ولا عن الهياكل المسيرة لهذا القطاع (الجامعة والجمعيات) بالإضافة إلى اعتبارهم إن التجهيزات في المسالك الصحية وملاعب الأحياء قليلة.

و بذلك فإن المجهودات التي قامت بها الدولة في قطاع الرياضة للجميع ظلت غير معروفة لدى أغلب الناس وهنا نتساءل عن دور الهياكل الساهرة على تنفيذ الخطة الوطنية للرياضة للجميع في التعريف بالقطاع .

بالتالي يمكن القول اعتمادا على ما سبق من الاستنتاجات أن السياسة الرياضية في تونس من خلال المخطط 11 للتنمية تدعم الرياضة للجميع. من خلال البرامج والخطط والتشريعات إلا أن التساؤل يحوم حول دور الهياكل المعنية في تطبيق هذه البرامج ومدى قدرة الهياكل الرياضية على استيعاب هذه البرامج.

ثانيا: عرض ومناقشة نتائج الفرضية الثانية

جدول : مقارنة إجابات العينة، قيمة ودلالة ك2 ج وك2 ت

السؤال		ك 2 ج ك2 ت	ك2 جد	الدلالة	عتبة الثقة	حساب المؤشرات %					
						1	2	3	4	5	6
13	كا 2 ج4	7.06	9.49	غير دالة	0.05	54،35%	34،78%	10،87%			
14	كا 2 ج8	79.47	15.51	دالة جدا	0.05	12،00%	52،00%	22،00%	10،00%	4،00%	
15	كا 2 ج4	12.88	9.49	دالة جدا	0.05	33،33%	51،11%	15،56%			
16	كا 2 ج	28.05	5.99	دالة جدا	0.05	66،67%	33،33%				
17	كا 2 ج4	4.93	9.49	غير دالة	0.05	14،10%	47،44%	38،46%			
	كا 2 ت4	107.04		دالة جدا	0.05						
1	كا 2 ج4	61.34	9.49	دالة جدا	0.05	76،00%	4،00%	20،00%			
2	كا 2 ج4	24.82	9.49	دالة جدا	0.05	61،36%	15،91%	22،73%			
3	كا 2 ج4	65.91	9.49	دالة جدا	0.05	81،82%	6،82%	11،36%			
4	كا 2 ج4	33.092	9.49	دالة جدا	0.05	68،29%	19،51%	12،20%			
5	كا 2 ج4	50.64	9.49	دالة جدا	0.05	75،00%	6،82%	18،18%			
6	كا 2 ج4	84.45	9.49	دالة جدا	0.05	88،64%	4،55%	6،82%			
7	كا 2 ج4	84.45	9.49	دالة جدا	0.05	88،64%	4،55%	6،82%			
8	كا 2 ج4	25.55	9.49	دالة جدا	0.05	61،36%	25،00%	13،64%			
9	كا 2 ج4	84.45	9.49	دالة جدا	0.05	88،64%	4،55%	6،82%			
10	كا 2 ج4	77.18	9.49	دالة جدا	0.05	82،00%	2،00%	16،00%			
11	كا 2 ج4	72.09	9.49	دالة جدا	0.05	84،09%	11،36%	4،55%			
12	كا 2 ج4	50.46	9.49	دالة جدا	0.05	72،00%	20،00%	8،00%			
13	كا 2 ج4	81.18	9.49	دالة جدا	0.05	84،00%	8،00%	8،00%			
14	كا 2 ج4	17.34	9.49	دالة جدا	0.05	36،00%	14،00%	50،00%			
15	كا 2 ج4	24.38	9.49	دالة جدا	0.05	58،00%	14،00%	28،00%			
16	كا 2 ج4	5.18	9.49	غير دالة	0.05	34،00%	38،00%	28،00%			
17	كا 2 ج4	24.45	9.49	دالة جدا	0.05	61،36%	20،45%	18،18%			
18	كا 2 ج4	32.82	9.49	دالة جدا	0.05	65،91%	11،36%	22،73%			
19	كا 2 ج4	32.06	9.49	دالة جدا	0.05	62،00%	10،00%	28،00%			
20	كا 2 ج4	12.22	9.49	دالة جدا	0.05	46،00%	36،00%	18،00%			

من خلال النتائج التي تحصلنا عليها نستنتج أن:

- أن دور هياكل الرياضة للجميع لم يكن كافيا في نشر ثقافة الرياضة للجميع والاستقطاب والتأطير ويتجلى من خلال غياب التأطير.

الفرضية الثانية :

بالعودة إلى التحاليل والاستنتاجات المتحصل عليها من خلال أجوبة الأسئلة اتضح أن الأغلبية من المستجوبين لم يشاركوا في أي تظاهرت للرياضة للجميع ولا ينتمون إلى أي جمعية من جمعيات الرياضة للجميع رغم استعدادهم للمشاركة في التظاهرات الرياضية المفتوحة للعموم.

وهنا يظهر ضعف الاستقطاب فبالرغم من أن عينة البحث من الممارسين للرياضة بصفة تلقائية وبذلك يكونون الفئة الأقرب إلى الانتماء لجمعيات الرياضة للجميع إلا أن الهياكل الجهوية عجزت عن استقطابهم.

هذا وقد بينت الاستنتاجات ضعف التأطير الذي يتجلى من خلال غياب أعوان التأطير في المنشآت الرياضية والمسالك الصحية المخصصة للعموم إضافة إلى غياب التأطير الفني والطبي، فرغم حداثة عهد جامعة الرياضة للجميع وجمعياتها إلا أن دورهم لم يكن كافيا في نشر ثقافة الرياضة للجميع والاستقطاب والتأطير واكتفت بالتظاهرات في المناسبات الرسمية، والقيام بالدورات التكوينية لمنشطي الرياضة للجميع.

من خلال المعطيات والإحصائيات نستنتج أن أغلبية المستجوبين يعتبرون أن الإعلام لم يساهم في التعريف بالرياضة للجميع وبرامجها وهياكلها. مما يفسر عدم اطلاعهم على الإنجازات وبرامج الدولة في هذا القطاع من جهة ومن جهة ثانية عدم معرفة الهياكل الساهرة على هذا القطاع من جامعة وجمعيات وبالتالي ضعف الاستقطاب وعدم الاطلاع على البرامج والنشاطات ومواكبتها. فبالرغم من أهمية دور الإعلام في التأثير على المجتمع إلا أن هياكل الرياضة للجميع لم توله العناية اللازمة وهنا نلاحظ غياب كافة أشكال الدعاية.

إذن نستنتج أن الإعلام لم يلعب دورا في نشر ثقافة الرياضة للجميع ولا بالتعريف بالهياكل وبرامجها نظرا لعدم وجود ملحق اعلامي بالجامعة التونسية للرياضة للجميع.

من خلال النتائج التي تحصلنا عليها نستنتج أن:

- أن الإعلام لم يلعب دورا في نشر ثقافة الرياضة للجميع ولا بالتعريف بالهياكل وبرامجها وذلك لغياب إستراتجية إعلامية واضحة.

الاستنتاجات :

من خلال هذه الدراسة حاول الباحث تشخيص واقع قطاع الرياضة للجميع في تونس في ظل الجودة الشاملة وذلك بإبراز أهمية ممارسة المجتمع للرياضة وتأثيرها على التنمية الاجتماعية والثقافية حيث تناولنا في هذا البحث ثلاثة محاور أساسية وهي:

أولا: دور السياسة الدولة في دعم قطاع الرياضة للجميع من خلال المخطط 11 للتنمية.

ثانيا: دور الهياكل الرياضية بصفة عامة والجامعة التونسية للرياضة للجميع والجمعيات التابعة لها بصفة خاصة في استقطاب وتأطير الممارسة البدنية والرياضية.

ثالثا: دور الإعلام في نشر ثقافة الرياضة للجميع.

وللاطلاع على الوضع الميداني لقطاع الرياضة للجميع قمنا باستبيان وجّه لـ 150 شخص من منشطي الرياضة للجميع وممارسين للرياضة بصفة تلقائية في المسالك الصحية وملاعب الأحياء، استنتجنا من خلاله النقاط التالية:

- أن السياسة الرياضية في تونس تدعم الرياضة للجميع من خلال البرامج والتشريعات إلا أنها ظلت غير معروفة لدى اغلب الناس، وهنا نتساءل عن الجودة في دور الهياكل الساهرة على تنفيذ ومتابعة برامج الرياضة للجميع.

ـ أن دور هياكل الرياضة للجميع لم يكن كافيا في نشر ثقافة الرياضة للجميع والاستقطاب والتأطير ويتجلى من خلال غياب الجودة الشاملة في تاطير ممارسة الأنشطة البدنية والرياضية للعموم إضافة إلى غياب التأطير الفني والطبي.

– أن الإعلام لم يلعب دورا في نشر ثقافة الرياضة للجميع ولا بالتعريف بالهياكل وبرامجها وذلك لغياب إستراتجية إعلامية واضحة.

مع تطور مجال الرياضة والاهتمام البالغ الذي يحظى به هذا القطاع في مختلف بلدان العالم، تسعى الدول إلى زيادة تطوير الرياضة ومحاولة إدماجها مع التقدم والرقي بالمجتمعات لما تقدمه من فوائد وخاصة بعد أن أصبح هذا الميدان مرتبطا مع مجموعة كبيرة من القطاعات الأخرى (مثل الصحة والاقتصاد والسياحة والإعلام إلخ...).

و مما لا شك فيه أن ميدان الرياضة للجميع يعتبر من أبرز الميادين المرتبطة بالتنمية الاجتماعية باعتباره يمس كل فئات المجتمع نساء ورجالا وأطفالا، شبابا وشيوخا، من الأسوياء أو من ذوي الاحتياجات الخصوصية أو المرضى...

كما ارتبط مجال الرياضة مع المناهج التربوية حيث أصبح النشاط الرياضي عاملا من عوامل التربية يمارس في مختلف المؤسسات التربوية، بالإضافة إلى العديد من المؤسسات المهنية التي أدمجت الرياضة لمساهمتها في تحسين مسيرتها (مثال الرياضة عامل من عوامل زيادة الإنتاج والإنتاجية لدى المؤسسات الاقتصادية وهذا ما أكدته العديد من الدراسات). و في ختام هذا البحث يمكن القول ان قطاع الرياضة للجميع من القطاعات الواعدة والقادرة على دفع نسق الممارسة الرياضية للجميع لدى التونسيين شريطة دعم هياكله ورفع نسق العمل بها قصد بلوغ أهداف المخطط 11 وكذلك بالخطة الوطنية للرياضة للجميع.

التوصيـــات :

ـ المزيد من نشرات التوعية واستغلال الإعلام بصورة أكبر في نشر ثقافة الرياضة للجميع.

ـ إنشاء المزيد من المنشآت والفضاءات الرياضية العمومية لتسهيل ممارسة النشاط الرياضي

ـ مزيد العناية بالمنشآت الموجودة حاليا.

ـ وجود مؤطر رياضي وطبي في كل الفضاءات الرياضية العامة.

ـ حث المؤسسات المهنية بتخصيص فضاء رياضي خاص بها يتيح لعمالها ممارسة النشاط الرياضي.

ـ زيادة توفير الإمكانيات اللازمة لتنظيم تظاهرات رياضية من خلال جامعة الرياضة للجميع.

ـ التنسيق مع القاعات الرياضية الخاصة لتكوين نوادي للرياضة للجميع.

ـ بلورة برنامج عمل أسبوعي ودوري بدل التركيز على التظاهرات الرياضية في المناسبات.

ـ السعي إلى تنويع النشاطات الرياضية مما يتلاءم وتطلعات الممارسين.

ـ إعداد حملة وطنية لتشجيع ممارسة الرياضة.

نشاط رياضي في كل الأحياء الشعبية.

ـ توجيه وتدعيم التغطية الإعلامية حول الرياضة للجميع.

ـ العمل على تنظيم تظاهرات رياضية، ندوات، اجتماعات، ومنافسات في الأحياء الشعبية.

مساندة وتدعيم الممارسة الرياضية بواسطة استقطاب الأفراد عن طريق :

ـ تكثيف وتنويع الأنشطة الرياضية في النوادي والجمعيات الرياضية النسائية بطريقة تسمح باستقطاب كل الراغبين في الممارسة الرياضية.

ـ تعميم وتسهيل وصول الافراد إلى تحمل المسؤوليات داخل الهياكل الرياضية

- تشجيع التأطير

تكوين وتمتين الشراكة بين الأسر والجمعيات الرياضية :

- تشجيع الأولياء على الاستثمار في المجال الرياضي والإداري للجمعيات الرياضية

- وضع وتخصيص أنشطة، خدمات وتجهيزات تمكن من الممارسة الرياضية الموازية

- وضع أنشطة وبرامج عائلية تمكن من ممارسة الرياضة

تنمية نشاط الهياكل الرياضة لمكافحة عدم ممارسة الرياضة :

- المساهمة في مكافحة عدم ممارسة الرياضة

- تحسيس بأهمية وفوائد ممارسة النشاط الرياضي على جميع المستويات

على مستوى المنشآت والتجهيزات الرياضية :

- العمل على العناية بالفضاءات الرياضية من حيث التعهد والصيانة.

- وضع مواصفات جيدة متعلقة بتعصير التجهيزات الرياضية وفق المواصفات الجديدة.

- تمتين التنسيق بين الفاعلين الرياضيين.

- وضع مشاريع وبرامج منافسات رياضية محلية .

- تشجيع تنمية الفضاءات الترفيهية ذات الطابع الرياضي.

المصادر والمراجع

1) صالح عبدالله صالح الزعبي، بناء استراتيجية الرياضة للجميع، أطروحة دكتوراه في التربية الرياضية، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية ، الأردن، 2008 ص1.

2) Chevalier Mollet (1991): Sport for All, Commission of Communication, ACNO Exeercutive Committee in Paris.

3) الميثاق الدولي للتربية البدنية والرياضة (1978)، منظمة التربية والثقافة (اليونسكو)، فرنسا: الدورة العشرين

4) Smaranch J.A.,(1988): Promoting The Sport Habit, 2nd Sport for All -Congress, Olympic Review Lausanne, Swits.-

5) ديفيد روي 2006م : الرياضة والثقافة ووسائل الإعلام الثالوث الصعب، ترجمة هدى فؤاد، مجموعة النيل العربية، القاهرة ، ص61.

6) على طاهر مبارك 2007م : الإذاعة والتلفزيون والمعرفة الرياضية في عصر التحديات، الهيئة القومية المصرية العامة للكتاب، القاهرة ص 10 .

7) صالح عبدالله صالح الزعبي، بناء استراتيجية الرياضة للجميع، أطروحة دكتوراه في التربية الرياضية، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، 2008 ص8.

8) سعادة عبد عيد الزبيدي، علم النفس التربوي الرياضي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، 1994 ص71.

9) Oppert J M, activité physique, objectif, evaluation, prescription, in le concourt médical, supplement au n°26,3juillet 2000 P 20.

10) محمد عبدالمنعم هلال: قياس جودة الخدمة، المنشأة الرياضية المركزية بوزارة التربية والتعليم، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية الرياضية للبنين، جامعة خلدون، القاهرة، 2004م، ص6.

11) جوزيف جابلونسكي : ترجمة عبد الفتاح النعماني - إدارة الجودة الشاملة - مركز الخبرات المهنية - بميك - القاهرة - 1996 .

12) عبد الرحمن توفيق: الجودة الشاملة (الدليل المتكامل) مركز الخبرات المهنية للإدارة (بميك) القاهرة، 2003.
13) سهى أديب عيسى وشيرين أحمد أبو الهيجاء، مدى تطبيق إدارة الجودة الشاملة في كليات التربية الرياضية في الجامعات الأردنية، المؤتمر العلمي الرياضي السادس الرياضة والتنميةنظرة استشرافية نحو الالفية الثالثة 28/ 30 افريل 2009، كلية التربية الرياضية، الجامعة الأردنية، المجلد الاول، عمان، الأردن، 2009 ص2.
14) سهى أديب عيسى وشيرين أحمد أبو الهيجاء، مدى تطبيق إدارة الجودة الشاملة في كليات التربية الرياضية في الجامعات الأردنية، المؤتمر العلمي الرياضي السادس الرياضة والتنمية نظرة استشرافية نحو الالفية الثالثة 28/ 30 أفريل 2009، كلية التربية الرياضية، الجامعة الأردنية، المجلد الأول، عمان، الأردن، 2009.
15) المعهد الوطني للإحصاء ،التعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2004 النتائج المتعلقة بخصائص السكان والمساكن والأسر، ديسمبر 2004، وزارة التنمية والتعاون الدولي، تونس، 2005، ص 3.
16) نفس المرجع نفس الصفحة
17) بوبكر بن عبد الكريم ، رؤية مستقبلية للتخصص في تسيير الادارة الرياضية التونسية الهياكل الرياضية باقليم تونس الكبرى نموذجا المؤتمر العلمي الرياضي السادس للرياضة والتنمية نظرة استشرافية نحو الألفية الثالثة 28/ 30 أفريل 2009، كلية التربية الرياضية، الجامعة الأردنية، المجلد الأول، عمان، الأردن، 2009، ص496.
18) وزارة الشباب والرياضة والتربية البدنية، إحصاء ومتابعة البنية الأساسية الرياضية والشبابية ،مصلحة الإحصائيات والتقييم ،فيفري 2006، ص2.
19) المرصد الوطني للشباب، الشباب والمخطط الحادي عشر للتنمية، مؤشرات ودلالات، المرصد الوطني للشباب.
20) وثيقة المخطط الحادي عشر للتنمية.
21) Abdelwahab Chahed ;Pour une politique tunisienne de sport pour tous ;tunis ;1985. P33.
22) نفس المرجع ص 34.
23) الرائد الرسمي للجمهورية التونسية
24) نفس المرجع
25) نفس المرجع
26) نفس المرجع
27) تقرير الجامعة التونسية للرياضة للجميع
28) تقرير الجامعة التونسية للرياضة للجميع
29) تقرير الجامعة التونسية للرياضة للجميع
30) تقرير الجامعة التونسية للرياضة للجميع
31) المعهد الوطني للإحصاء ،التعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2004 النتائج المتعلقة بخصائص السكان والمساكن والأسر، ديسمبر 2004، وزارة التنمية والتعاون الدولي، تونس، 2005، ص26.
32) بوبكر بنعبدالكريم، ممارسة المرأة التونسية للأنشطة البدنية والرياضية وآثارها في تحسين وضعها الاجتماعي بإقليم تونس الكبرى نموذجا، رسالة ماجستير في علوم وتقنيات الأنشطة البدنية والرياضية، المعهد العالي للرياضة والتربية البدنية ،قصر السعيد ، تونس، 2006، ص8.
33) المرجع السابق ص 3.
34) بوبكر بنعبدالكريم، ممارسة المرأة التونسية للأنشطة البدنية والرياضية وآثارها في تحسين وضعها الاجتماعي بإقليم تونس الكبرى نموذجا، رسالة ماجستير في علوم وتقنيات الأنشطة البدنية والرياضية، المعهد العالي للرياضة والتربية البدنية ،قصر السعيد ،تونس، 2006 ص8.
35) المعهد الوطني للإحصاء ،التعداد العام للسكان والسكنى لسنة 2004 النتائج المتعلقة بخصائص السكان والمساكن والأسر، ديسمبر 2004، وزارة التنمية والتعاون الدولي، تونس، 2004.
36) نفس المرجع، ص31.
37) صالح عبدالله صالح الزعبي، بناء استراتيجية الرياضة للجميع، اطروحة دكتوراه في التربية الرياضية،

كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن، 2008 ص 26-39.
38) مديحة محمد الامام 1979م : دور الصحافة في نشر الثقافة الرياضية عامة وألعاب القوى خاصة، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية التربية الرياضية للبنات بالأسكندرية.
39) نشوى إمام إبراهيم 2003م : تأثير الإعلام الرياضي المدرسي على كل من تعديل الاتجاهات والثقافة الرياضية لدى تلميذات المرحلة الإعدادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الرياضية للبنات، القاهرة.
40) أيمن محمد الهنداوي، 2001م : تحليل برامج التلفزيون الرياضية وأثرها على نشر الوعي الرياضي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الرياضية، جامعة طنطا .
41) بالمر، ديك(1979)، الإستراتيجية والتخطيط الرياضي: دورة التنظيم والإدارة للقيادات الرياضية بالدول العربية، المغرب.
42) السيار، عبد الرحمن (1994)، وضع إستراتيجية للرياضة للجميع بدولة البحرين، المنامة: معهد البحرين الرياضي.
43) عويس، مسعد سيد(1995)، الأدوار المستحدثة للأنشطة الرياضية، مصر: المجلس الأعلى للشباب والرياضة.
44) الحماحمي، محمد (1997)، دراسة تحليلية للرياضة للجميع في ضوء إطارها الفلسفي والتطبيقي، المؤتمر العلمي الدولي، كلية التربية الرياضية للبنين، جامعة حلوان، مصر.
45) الجيوشي، يحيى محمد (1998)، إستراتيجية مقترحة للرياضة للجميع في مصر، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة حلوان، القاهرة، مصر.
46) الحماحمي، محمد(2001)، تحديات ممارسة الرياضة للجميع، المؤتمر العلمي الدولي للرياضة والعولمة، المجلد الثاني، جامعة حلوان، القاهرة، مصر.
47) Thomas. J.G. (1986) Strategic Management, Concepts, Practices and -Cases, Harpert and Row pub. N.Y
48) محمد عوض بسنوسي، فيصل الشاطئ: نظريات وطرق التربية البدنية والرياضية ،الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، 1992 ص 206.
49) عمار بوحوش، محمد محمود الذنيبات: مناهج البحث وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 ص 130 .
50) نوري بركات ومحمد ميلاد، البحث العلمي في التربية الرياضية، جامعة تشرين، سوريا، 2001
51) محمد عوض بسنوسي، فيصل الشاطيء، نظريات وطرق التربية البدنية والرياضية، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، 1992 ص 206.
52) عمار بوحوش، محمد محمود الذنيبات: مناهج البحث وطرق إعداد البحوث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995 ص 130 .
53) محمد السيد عبد الرحمان: علم النفس الاجتماعي المعاصر، دار الفكر العربي، ط1، 2004 ص421.
54) محمد حسن علاوي : البحث العلمي، دار الفكر العربي 1999، ص 33.
55) خميس طعم الله، مناهج البحث وأدواته في العلوم الاجتماعية، مركز النشر الجامعي، تونس، 2004 ص200.
56) المرجع السابق ص 200.
57) Parlebas P ,Cyffers B.Statistique appliquée aux activités physiques et sportives INSEP, France,1992..
58) نفس المرجع.

الشّبــاب والرّيــاضة :
نحو تعزيز ثقـافة المشـاركة

سامي الشايب (*)

مقـدمـة

تحتل الرياضة مكانة محورية في عالم اليوم سواء على مستوى الأفراد أو المجموعات كما تحظى بتغطية إعلامية واسعة تزيد من فعاليتها في رسم الواقع المدني والاجتماعي. وتكتسب الرياضة مكانتها الكبرى لاسيما في علاقتها بالدولة، فقد عملت الدول المختلفة على توظيفها بشكل كبير على امتداد كامل القرن العشرين الذي كان قرن التنافس الإيديولوجي بامتياز. ولكن الدولة احتاجت أكثر للرياضة في مطلع القرن الحادي والعشرين حيث العولمة الهادرة وتراجع معالم الإنتماء الوطني وتزايد النعرات العرقية والطائفية لاسيما في العالم العربي، إذ انبعثت النعرات الطائفية والعرقية من عقالها لتهدد الدولة العربية بالزوال وتهدد مكاسبها بجدية. وتمثل الكرة أمل نجاة وضوءا في نهاية النفق لاسيما في ظل شعبيتها في صفوف الشباب مما يجعلها أقدر على بعث قيم الإنتماء الوطني والتعايش المشترك وتعزيز المواطنة والولاء في ظل الانتصارات الكروية العربية التي تبعث فسحة من الأمل وتقدم مثالا للنجاح. وكرة القدم هي أمل الدولة العربية اليوم لاسيما مع تهديد العولمة والحدود المفتوحة للسيادة العربية جديا وتزايد مخاطر التجزئة والتقسيم، إذ تربط الكرة الأجيال الشابة بالهوية الوطنية بشكل محسوس ويومي كما تكتسب كرة القدم مكانتها المميزة في قدرتها على تجاوز الأطر التقليدية ومؤسسات الدولة الكلاسيكية (الإدارة، المدرسة، التلفزة الوطنية...) التي فقدت جزءا كبيرا من فعاليتها ومصداقيتها لدى الأجيال الشابة. وكرة القدم تعيد الحيوية لأهم عناصر الحركية الاجتماعية والسياسية في عالم اليوم ونقصد هنا المجتمع المدني والإعلام، فالكرة بحكم تعدد جمعياتها واهتمام الشباب بها تمثل رأس الحربة في تركيبة المجتمع المدني والظاهرة الطاغية فيه. فمؤسسات المجتمع المدني هي رهان الدولة اليوم لتفعيل الحس السياسي والاجتماعي لدى الفئات الشابة المهددة بانتشار قيم اللامبالاة والعدمية، غير أن كرة القدم تتميز بتفوقها الكاسح على مؤسسات المجتمع المدني التقليدية التي ينفر منها الشباب ويهيمن عليها شيوخ العمل السياسي، في حين أن المجال الكروي هو مجال مفتوح

*) باحث، تونس

أمام الشباب قريب منه في مستوى الفكر والممارسة. أما على المستوى الإعلامي فإن عالم اليوم هو عالم الفضائيات والسماوات المفتوحة. وهذا الزخم الإعلامي عزل التلفزيونات الوطنية في العالم العربي وأفقدها جمهورها بشكل شبه كامل، وهذا التعدد الإعلامي وإن كان مفيدا في ذاته فقد انعكس سلبا في مستوى الهوية والحفاظ على الذاتية الوطنية لتنتج هذه التدفقات والشبكات المفتوحة شبابا يغلب عليه التشتت واللامبالاة. ولكن الظاهرة الكروية بحكم التركيز الإعلامي الشديد أعادت للشباب فرص المشاركة المجتمعية وفتحت أمامهم أبواب التفاعل الخلّاق. فالشباب في جميع أنحاء العالم ولاسيما في الوطن العربي يشكو من التذبذب وغياب المكانة الاجتماعية، فالشباب يشعر بالتهميش وغياب ثقافة التواصل والاستماع إذ تحاصره الوصاية والصور المسبقة التي يحملها الآخرون عنه. ولكن الرياضة فتحت أمامه أبواب الشبكات الإعلامية المختلفة وأبعدت عنه الأوصياء والمحتكرين ليصدح صوت الشباب عاليا في المنابر الإعلامية الكروية، فها قد حانت فرصته لإسماع كلمته ومناقشة مشاغله وقضاياه بحرية. وهذا التحرر الإعلامي في المجال الكروي يمثل خريطة طريق للولوج لبقية المجالات ومزيد تفعيل قيم الشفافية والمحاسبة مما يضفي مزيدا من الحيوية على النظام الديمقراطي ويعطي مزيدا من المصداقية لدولة القانون والمؤسسات في الوطن العربي، ويعيد للشباب الثقة في المؤسسات الوطنية ويعيده لساحات المشاركة والفعالية بدل مخاطر اللامبالاة والسلبية التي راكمها بفعل ثقافة الوصاية والتهميش. إن التدفق الإعلامي الكثيف جعل العالم قرية صغيرة تتفاعل فيما بينها ولكنه هدد جذريا الهوية الوطنية لعدة مجتمعات في ظل التنميط والاستلاب مما دفع عدة شعوب وحضارات مهددة لإعادة تفعيل خصوصياتها الثقافية والحضارية. ولكن هذه الشعوب والثقافات تبينت مؤخرا تراجع نظمها التقليدية على التصدي لخطرالعولمة الزاحف، فالمؤسسات والنظم التقليدية تعاني من العزلة والبيروقراطية، ومن هنا وجب البحث عن مفاعيل نشيطة وشبابية للتصدي للاستلاب الحضاري في صفوف النشء غير المحصّن. وتمثل الكرة بحكم قربها من الشباب فرصة لإعادة تفعيل الهوية بشكل جذري فعّال فمباريات المنتخب الوطني والأندية الوطنية مع فرق خارجية تبرز للشاب بشكل محسوس ويومي معالم الاعتزاز الوطني والتعلق بالوطن والسعي لنصره وتقدمه.

I ـ الدولة العربية والتحديات الخطيرة

1 ـ دولة الحداثة :

بنت الدولة الوطنية لما بعد الاستقلال مشروعها الحضاري على إعلاء قيم الحداثة والتنوير ونقل المجتمع من الأطر العشائرية والقبلية إلى نموذج "الدولة – الأمة" القائم على العقلانية والسلم الاجتماعي، وقد استعانت هذه الدول بقوة تراث النهضة الذي جسمه بقوة محمد علي باشا في مصر وخير الدين التونسي، غير أن تجربة محمد علي وخير الدين على الرغم من سابقتها ونجاحها في تجسيم بعض معالم التنوير، فإن هذه الإصلاحات بقيت بعيدة عن الجماهير العريضة واتسمت بالإسقاط وتغييب المشاركة والتفاعل المجتمعي، وهو ما حاولت الدولة الوطنية الحديثة تلافيه بقوة فبنت مشروعها على إعلاء معالم المواطنة والمشاركة الشعبية، وفتح الفضاءات العامة ومنظمات المجتمع المدني أمام المواطنين للمشاركة وتجسيم الوفاق الاجتماعي، وقد راهنت الدولة العربية الحديثة على التعليم والإدارة والإعلام، لتعميم الإنتماء الوطني وغرس قيم التعلق بالوطن ومؤسساته (السلط، دولة القانون المدني، الإدارة، الأمن، التعليم، الأحزاب، الجمعيات، المنظمات، الإعلام...).

غير أن حركة العولمة فرضت على الدولة العربية تحديات كبيرة وصعوبات جمة لاسيما في التواصل مع الفئات الشابة وغرس هذه المفاهيم لديها خاصة أن الشباب يمثلون الغالبية الساحقة في المجتمعات العربية الفتية.

2 ـ العولمة الهادرة :

منذ بداية القرن الواحد والعشرين هبت موجات العولمة هادرة، لتصنع عالما خياليا من الحواجز تسوده الحدود المفتوحة والتبادل الحر، وتهيمن عليه القوى الكبرى بشكل كامل، فاتفاقيات التبادل التجاري وانعدام الحماية الجمركية صيغت لتمرير منتوجات الدول الكبرى وإعلامها وثقافتها وفكرها على حساب أمم وشعوب بأسرها. مما يلغي فكرة الحدود الوطنية والسيادة المحلية وهو ما يحدّ من قدرة الدولة العربية على السيطرة على حدودها ومجالها سواء في معناه الترابي أو الثقافي الفكري. اذ تمر الدولة العربية الحديثة اليوم بصعوبات جسيمة ولا قبل لها بها، ذلك أنها تتعرض لاختراق سفلي شديد الخطورة من قبل "أطر ما قبل حداثية" وآخر فوقي من قبل العولمة الزاحفة، وهو ما يورده سعيد الصديقي بشكل حاد "إن غلاة العولمة اليوم يشددون على انهيار الدولة مثل كتابات كنيشي أوهاي Kiniche Ohmae) "عالم بلا حدود" "أو نهاية الدولة الوطنية" (1)، ويضيف فيليب قولوب Ph. Golub" إن العولمة ستحكم على الدولة الوطنية بالإلغاء وعلى السيادة بالعجز ولن تكون السيادة إلا صدفة فارغة» (2).

فالعولمة تحد من سيادة الدولة على ترابها الوطني (الحدود المفتوحة) بشكل تزول معه معاني المراقبة والمنع، «ففي ظل العولمة تبدو الحكومة أية حكومة وكأنها -إدارة عامة جديدة- أي إنها حكومة تصريف أعمال وهو ما يترتب عليه وهن الدولة وشرعيتها. ومبعث ذلك يتمثل في أن هذه الدولة تسعى لنيل ثقة الأسواق الدولية على حساب مهامها الأخرى» (3).

فستصبح الدولة مجرد موظف عند الرأسمالية الجارفة والشركات الكبرى، تسعى للحصول على ثقتها وتوطّنها بكل السبل، ولو بغض الطرف على كل تحركاتها وتجاوزتها، فالبديل هو الفراغ المالي والاقتصادي القاتل. ومن هنا تجد الدولة نفسها مجبرة على خيار أولوية التنمية والرخاء، ولو على حساب سيادتها الوطنية " لابد أن تدرك السلطة أن مفاهيم العالم قد تغيرت بحيث تكاد التنمية تختصر كل العلوم في القرن الحادي والعشرين، إنه زمن العولمة" (4).

وقد انعكس ذلك في مستوى السيادة وفي مستوى الأفكار والهوية. فالعولمة هي عملية فرض لمنظومة ونموذج "العولمة هي.. سلطة تكنولوجية ذات منظومات معقدة، لا تلتزم بالحدود الوطنية للدول وإنما تطرح حدودا فضائية غير مرئية، ترسمها شبكات اتصالية معلوماتية على أسس سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية، لتقيم عالما من دون دولة ومن دون أمة ومن دون وطن، وهو عالم المؤسسات والشبكات التي تتمركز وتعمل تحت إمرة منظمات ذات طبيعة خاصة، وشركات متعددة الجنسيات، يتسم مضمونه بالعالمية والتوّحد على الرغم من تنوع وسائله التي تبث عبر وسائل تتخطى حواجز الزمان والمكان واللغة لخطاب مستهلكين متعددي المشارب والعقائد والرغبات والأهواء" (5).

وتتميز المرحلة الأخيرة من العولمة بكونها «صورة جديدة للرأسمالية تتسم بكونها كونية في طابعها، عنيفة في تحقيق أهدافها ومرنة في نفس الوقت بصورة تفوق الصور الرأسمالية السابقة» (6).

فالتدفقات السريعة المتعاقبة للمعلومات والنظم وللسياسات ذات النموذج الواحد، والتي تتعاقب بشكل سريع وجنوني يصل إلى كل إنسان في عقر داره مما يزعزع القناعات والمعتقدات ويدعو الجميع لتبني نموذج حياتي وثقافي واحد، وفي ذلك يقول الكاتب الهندي براباهاران «وفي هذا التفاعل بين الشبكة والذات فإن شروط الحياة الإنسانية والخبرة على مستوى العالم يعاد تشكيلها بصورة جذرية وعميقة» (7). فالعولمة هي غزو فكري وسياسي وثقافي وعسكري يروم هدم الإختلافات والخصوصيات لصالح نموذج واحد، يقول فوكوياما «لدينا اليوم نموذج واحد هو المنظومة الليبرالية الرأسمالية، إنها نهاية التاريخ والمحطة النهائية النموذجية» (8)، مما يقضي على التنوع الإنساني وهو ما يجعل الشباب يشعر بأزمة في مستوى الهوية والإنتماء. فالتدفقات المتعاقبة تهدم كل القناعات والأطر الحياتية التي بنى عليها الشاب

نسقه وفهمه للكون والمجتمع «إن التصادم بين العالم الواقعي وعالم التدفقات يحدث اضطرابات عميقة في الكوكب وهكذا يفقد الناس إحساسهم بذواتهم ويحاولون استعادة هوياتهم من خلال صياغات ونماذج جديدة» (9). فالهوية ليست مجموعة الكتب التراثية الصفراء أو بضعة ملابس تقليدية تلبس في المناسبات، بل هي مرجعية فكرية متكاملة تختزل المقومات والجذور المميزة، ورصيد التجارب فهي رؤية متكاملة للحياة وللمجتمع، يقول الباحث حافظ المداني «والهوية تتحدد انطلاقا من السمات المميزة للأمة والفاعلة فيها، والتي انتهت إليها عبر مسيرتها الجدلية في التاريخ من خلال تعاملها مع المحيط طبيعة وبشرا كاللغة والتاريخ والدين والثقافة والقيم والتقاليد وتشكل هذه العناصر مجتمعة الأرضية النفسية للأمة، والتي تشترك في هذه المقومات وبها تتمايز عن الآخر وربما بها تحارب ومن أجلها تحارب» (10). ويلخص مصطفى عطية ملامح الهوية «إن الهوية أعمق وأشمل من تلك المرجعيات التقليدية الموروثة التي أتت عليها طوارئ الزمن. إذ هي جملة من القيم المتماسكة والمتكاملة، يشدها إلى بعضها البعض، إدراك مشترك، يحتضنها نموذج حياتي عملي، واضح المعالم» (11).

فهذه المنظومة التي راكمها المجتمع طيلة قرون طويلة مهددة بالذوبان والتلاشي لتحل محلها رؤية واحدة ومنظومة واحدة تفصل الشاب عن جذوره وثقافة أهله وقيمهم. فقد صار يتبنى خصائص ومقومات مخالفة لقومه على مستوى (اللغة، العقيدة، التراث الثقافي، التراكم المعرفي..) تنعكس بجلاء في سلوكه اليومي وعاداته وأخلاقه، ومأكله وملبسه ... مما يجعله يشعر بانفصاله شبه النهائي عن جذوره إضافة لغياب تام للتواصل مع مجتمعه وأعرافه، لقد انتهت لديه كل معالم الانتماء.

وهكذا يصبح الشاب العربي في حيرة ووهن يبحث عن دولته ومؤسساتها فلا يجدها بفعل الأختراق القسري للعولمة والحدود المفتوحة، ويبحث عن هوية يحتمي بها فيجدها مهزوزة متداخلة . . . ومن هنا ينكفئ على ذاته يبحث في أعماقه عن هوية ومرجعية يحتمي بها، ولكنه للأسف عوض التوجه نحو قيم الحداثة والتنوير والدولة الوطنية الجامعة سيجد نفسه بفعل التدفقات المتعاقبة في خضم الطائفية والتشتت.

3 ـ الطائفية والانقسام :

لقد أحدثت حركة العولمة وسيلها الجارف أزمة في الهوية وتعريف الذات لدى أغلب الشعوب، يقول هنتنقتون «التسعينات شهدت هيجان أزمة الهوية فتقريبا في كل مكان يرى الناس يتساءلون من نحن ؟ وإلى أين ننتمي؟ ومن لسنا نحن؟» (12). فالثورة الإعلامية المصاحبة لحركة العولمة سلطت الضوء على التباينات الدقيقة في الخصوصيات الإجتماعية وركزت على الفروق بين ابناء البلد الواحد، لتخرج المحددات الطائفية والعرقية واللغوية والأثنية للعلن وتتصدر المشهد. فهذا التنوع العرقي والثقافي موجود في العالم العربي منذ قرون طويلة، وكان دائما مصدر تفاعل خلّاق ساهم مرارا في خلق حركية سياسية وفكرية منتجة على طريق الحداثة والتقدم، وهذا التنوع هو مصدر فخر واعتزاز وإعلاء للراية الوطنية والقومية.

ولكن الخطير ان مجموعات كاملة في العالم العربي اليوم صارت تعرّف نفسها من خلال أصولها العرقية واللغوية والمذهبية والطائفية الضيقة قبل الإنتساب للوطن ووحدته المقدسة، وتوظّف هذه الفروق والإختلافات لتكريس ثقافة التمردّ والإنفصال. وهكذا أصبحت الدولة العربية ووحدتها الوطنية مهددة جديا وصارت الفئات الشابة تنظر لنفسها بمعزل عن البناء الوطني والبعد التجميعي العام لصالح خصوصيات ضيقة وهو ما يحذر منه د. برهان غليون بقوله «غير أن التحوّل في وضع الدولة كان باهظا ونتج عنه تضعضع سلطة الدولة، وقد أدى ذلك إلى بروز المطالب العرقية، الدينية، اللغوية كجماعات متعددة من الانتماءات مما جعلها تعلو على الإنتماء للدولة القومية نفسها» (13).

وهكذا يمكننا القول إن الفئات الشابة دبّ في صفوفها شك كبير في قيم وقدرات المؤسسات الوطنية بل وفي بناء الوطن ذاته ووحدته، وهذا الخطر يحتم التحرك على المستوى الحدث والتحديات.

4 ـ عجز الأدوات التقليدية :

إن الشباب العربي الذي يتعرض لهذه التدفقات الخطيرة والتي تهدد البناء الوطني بشكل جذري مما يفترض اتخاذ إجراءات على مستوى الحدث لإعادة الفاعلية لقيم المواطنة ومعالم التنوير والحداثة والثقة في المستقبل. غير أن أغلب الدول العربية مازالت تعتمد على وسائل عقيمة (المدرسة التقليدية، الإدارة، وسائل الإعلام المحلية. . .)، رغم أن هذه المؤسسات فقدت جمهورها بشكل كبير وصارت بعيدة عن الشباب وتطلعاته، فالشباب في العالم العربي يشكو من تردي مستويات الحوار الاجتماعي ويشعر بالحرمان والتهميش وانعدام القيمة والفاعلية. فالشباب يحس بالضياع والحيرة وغياب المكانة والاهتمام.

فالشباب يرغب في إيصال صوته والتخلص من نير عبودية الوصاية والمصادرة ولكنه يصطدم بانغلاق مؤسسات المجتمع المدني في وجهه في ظل تصدّر نفس الوجوه للمشهد أحقابا. أما المؤسسات الثقافية فقد شيدت بشكل اعتباطي «لجأ الشباب إلى اقتسام الشارع ونفر من البناءات والتجهيزات الثقافية والرياضية التي أحدثت بدون الأخذ بعين الاعتبار الطلب الاجتماعي للشباب» (14) إضافة لكثافة البيروقراطية والحواجز. ومن هنا يسقط الشاب في النسيان والإهمال «إنه شباب المعاناة «Jeunesse De Galére» (15) كما يقول فرنسوا ديبي، ولكن الشباب لا يستسلم بسهولة، فيمر لكسب التحدي وإيصال صوته وكلمته، و«التحدي هو سعي لاكتساب اعتراف المجموعة بالشاب عبر الإبداع ولا تتصل بوضعية اجتماعية أو اقتصادية» (16)، فينتقل ليصنع عالمه بنفسه وينشئ فضاءاته الخاصة حيث الحرية والمرونة والإنصات والمبادرة. وقد كانت التجربة الغربية ملهمة للشباب العربي فقد عانى الشاب في الغرب من التهميش ولكنه تجاوز ذلك بصناعة فضائه الخاص وهو الملاعب. إنه إعلان حرية وممارسة للتحرر «يتلاعب السكايت (لعبة شبابية) بالقوانين الحضرية والممنوعات ويحتل الفضاء ويفرض قيمه الخاصة به الحرية، الحركة، الإبداع . . .هو فلسفة للمرونة والانسياب تعبر عن نفسها في عالم تحكمه الزوايا الحادة» (17)، فالسكايت هو إعادة توزيع للمركزية والقيادة «ومن هنا يصبح السكايت نوعا من تحويل الفضاء وإعادة امتلاك المدينة» (18). وهكذا تلاعب الشباب بالمدينة إذ انتقلت الحركية الفكرية والثقافية للمعترك الحقيقي ومعقل الجماهير، إلى الشارع والملاعب، فالشاب نقل المركز إلى الفضاء المفتوح حيث النسق السريع والحوارالمباشر وغياب المصادرة والوصاية.

لقد راهن الشباب على الفضاءات الرياضية للتخلص من وصاية وهيمنة الشيوخ عليه وعلى توجهاته، وهنا وجب على الدولة وعلى المثقفين العرب (النخب الفكرية) مسايرة الشباب ونصحه وتوجيهه والإحاطة به من خلال المراهنة على الرياضة كورقة لإعادة إحياء الوطنية وقيم التنوير والحداثة. فالفضاءات الرياضية قريبة من الشباب في مستوى الفكر والممارسة وتحظى باهتمامه الواسع وهي بوّابة لغرس ثقافة المشاركة المجتمعية وإحياء روح المبادرة الخلاقة والتفاعل البنّاء وتعلم فنون القيادة والتسيير.

II ـ الرياضة وتعزيز ثقافة المشاركة

1 ـ الرياضة بوّابة الشباب للمجتمع المدني :

لاتزال المدرسة و الإدارة هي الأدوات الرئيسية بيد الدولة لتمتين تعلق الشباب بالوطن وقضاياه، غير أن هذه الأطر تبقى متعالية وتتسم بقدرة تعبوية محدودة في حين أن كرة القدم بحكم جماهيريتها العريضة وانتشارها في أوساط الشباب (عماد الأمة)، تبدو أكثر قدرة على تكريس المواطنة والحداثة في نفوس الشباب وفئات عريضة من المجتمع بشكل دوري وملموس، فمباريات

المنتخب الوطني يبرز فيها التماهي الجماعي بين كافة أفراد المجتمع (تحية العلم، النشيد الوطني، حضور كافة الشرائح والفئات، ألوف مؤلفة، حضور أهم رموز الدولة ومؤسساتها. . .).

يعرّف الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط عصر التنوير بقوله «ما هو التنوير؟ هو الخروج من حالة القصور والعجز التي صنعها الإنسان لنفسه، بمعنى عدم القدرة على استخدام عقله خارج توجيه الآخرين، والعجز لا يكمن في الذهن بل في غياب الإرداة والشجاعة للتخلص من هيمنة وتوجيه الآخرين، استعمل عقلك وفكر بنفسك هذا هو رهان الأنوار» (19).

فالكرة تدفع الشاب للتخلص من ربقة الوصاية والسلبية وتنقله إلى المشاركة وتأثيث المشهد الوطني بشكل دوري وملموس، فهي تنقل مفاهيم الوحدة الوطنية والمشاركة المجتمعية (مباراة الفريق الوطني، والأندية الخارجية) من قيم مجردة محفوظة في الكتب المدرسية المملّة، إلى حراك يومي وشعبي يحمل صورا من التلاحم والجمالية الفنية عميقة التأثير والجذب (الدخلة Tifo، الأهازيج الوطنية، حضور المرأة المكثف، العلم الوطني، الانتصارات على الدول الكبرى، العناق الجماعي عند النصر. . .).

وهكذا تغرس الكرة معاني الحداثة والولاء الوطني بشكل مكثف وملموس مما يجعل الكرة مدرسة موازية ومؤسسة وطنية شديدة الفعالية، وتعزز الدور الرئيسي للدولة وهو الحفاظ على الوحدة الوطنية وتنمية الإنسان. يقول الكاتب الفرنسي جورج بيردو Georges Burdeau «إن الدور الرئيسي للدولة هو ضمان المجتمع المتجانس، الدولة هي تعبير عن وعي وطني» (20)، فالدولة هي تجميع للأمة تحت مظلة من القيم والأطر تحفظ لها كيانها وهويتها المميزة على درب تحقيق التقدم والرخاء والنهوض بالإنسان، وتجاوز كافة الإنتماءات القبلية والعشائرية، وقد أثبتت الكرة عديد المرات فعاليتها في دفع العمل الوطني الجامع ونبذ كل معالم الخلاف والتشتت.

لقد أنتج نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا مجتمعا متناحرا، يهيمن بعضه على كافة مناحي الاقتصاد والحياة وترزح الأغلبية الساحقة فيه تحت نيران الفقر والجريمة والإدمان، ولكن التحول السريع في التسعينات نحو دولة الجميع (بعد المصالحة بين مانديلا ودوكلرك)، حتّم على الدولة ضرورة القيام بمراجعة سريعة للمؤسسات والنظم والعقليات ومنظومة الهوية الوطنية، وهي تحديات حضارية وثقافية تحتاج لسنوات طويلة لعلاجها وتوضيبها، غير أن كرة القدم نجحت سريعا في نقل المجتمع من التناحر والمنازعات العرقية إلى مجتمع متضامن مترابط تسوده العقلانية والحداثة.

لقد شاهد الشاب الجنوب افريقي في كأس العالم 2010 التي احتضنتها بلاده بنجاح باهر، النجوم السود مثل برنار باركر، هارون موكوينا، ستيفن بينار، مكبث سيبايا، . . . وهم يتحولون إلى أبطال قوميين ويتحصلون على ألقاب وأوسمة ظلت لفترة طويلة حكرا على البيض وأبنائهم. فقد قدموا له نموذجا ناجحا يحثه على العمل والمثابرة بدل دروب الجريمة والمخدرات التي تتربص به، وفي نفس الوقت شاهد العالم التلاحم الوطني بين اللاعبين السود ونظرائهم البيض مثل الحارس هانس فونك، مارك فيش، بيار عيسى، . . وتحول البلد إلى لحمة واحدة تصيح جميعا تحت علم واحد «بافانا بافانا». إن صيحة «بافانا بافانا» نقلت البلد من التناحر والتفرق إلى الوحدة والتكامل في ظرف وجيز تعجز عنه عدة منظمات وأطر أخرى، فقد فعلت الكرة فعلها الساحر وحوّلت البلد من بلد محاصر تعلوه المنازعات والتناحر إلى مثال عالمي للتعايش ولتكافؤ الفرص.

أما في العالم العربي فإن المثال العراقي شديد الوضوح فقد قدم المنتخب العراقي الموحد أداء وطنيا جماعيا مكنه من الفوز بكأس آسيا 2006، ليثبت للجميع في الداخل والخارج أن الوحدة الوطنية والتعاون والحفاظ على البناء المشترك والتنوع المحلي هو السبيل للنجاح وليس الطروحات الطائفية الضيقة. كما أن الكرة تضفي مزيدا من الحيوية والتجدد لقيم المواطنة والمشاركة، فالمؤسسات

الحكومية في العالم العربي تعاني أغلبها من البيروقراطية والترهل مما يجعلها تفقد بريقها في تعزيز الولاء الوطني وفي ذلك يقول د. برهان غليون «إن الدولة في العالم العربي بنت مشروعها الحضاري على التحديث والنهوض بالمجتمع، ولكن اليوم نجد هذه الدولة في الأعم الأغلب تفقد جماهيرها وبقوة في ظل العجز والفشل المتتالي» (21). غير أن الكرة قادرة على نقل فكر التنوير والحداثة من النمطية والتكلس إلى التجدد والحيوية، يقول المفكر الفرنسي جون بودريلار Jean Baudrillard" سقطت الحداثة أخيرا في فخ المعاش، لقد تحولت إلى معاش ويومي» (22). ولكن الكرة تبرز للمواطن في بيته الانتصارات الوطنية وتعزز لديه معاني الولاء والاعتزاز، فقد مثلت مشاركة المنتخب الجزائري في كأس العالم 2010 حلقة مهمة في تنمية الروح الوطنية الجزائرية ومزيد ربط الجزائرين المغتربين بوطنهم (أغلب لا عبي المنتخب الجزائري هم من أبناء الجيل الثاني والثالث خارج حدود الوطن). وبالمثل فقد ساهمت انتصارات المنتخب المصري في كأس القارات 2009 (الفوز على إيطاليا بطلة العالم، ثلاثية في مرمى البرازيل) والفوز المتتالي بكأس أمم إفريقيا (3 مرات متتالية آخرها سنة 2010) في تعزيز التلاحم الوطني وإعلاء الإعتزاز الشعبي لاسيما في ظل الصعوبات الكبيرة التي تمر بها القاهرة (23)، وتتميز كرة القدم بقدرتها التعبوية الهائلة لاسيما في صفوف الشباب الذين يبدون نفورا من الأطر التقليدية وبيروقراطية الوصاية والتهميش. كما أن كرة القدم تقدم للبلدان العربية فرصة الإشعاع الخارجي والخروج من المحلية إلى التعريف بالبلد ومنجزاته في المحافل الخارجية، فقد مثلت مشاركة تونس في كأس العالم سنة 1978 بالأرجنتين وفوزها بالمباراة الأولى ضد المكسيك (3-1) ومردودها الممتاز ضد بولسكا(بولونيا) وألمانيا، فرصة نادرة لإعلاء إسم هذا البلد الحداثي في سماء الأمم وتحقيق الانتشار والعالمية، حتى إن الرئيس بورقيبة قال للفريق بعد عودته «لقد عرّفتم العالم بتونس أكثر مما فعلت أنا في ثلاثين سنة من النضال».

ولعل المثال العربي الأبرز هو النموذج الكويتي، فعلى الرغم من صغر حجم دولة الكويت وقلة عدد سكانها، فإن الأندية والمنتخب الكويتي تحقق نتائج جيدة (أكثر منتخب متوج ببطولة الخليج، 9 مرات) ترفع اسم البلد عاليا، وينتصر كرويا على قوى إقليمية كبرى في المنطقة ربما لا يعترف بعضها بشرعية واستقلال الكويت (العراق، إيران. . .). أما سلطنة عمان فقد احتلت في السنوات الأخيرة الواجهة الإعلامية الخليجية والعربية بفضل تألق منتخبها في بطولات الخليج.

والحداثة كذلك هي نقل لقيم التقدم والمدنية والمواطنة من الأطر الضيقة إلى فضاء إنساني عالمي جامع، تساهم فيه كل الأمم عبر تلاقح حضاري وفكري عميق، فالحداثة تخلّص الإنسان من كل المعوقات والتحديات التي تواجهه، وهذا لا يتحقق إلا بتعاون وثيق يحفظ خصوصية كل بلد ويثري التجربة الإنسانية في مجموعها. فقد سعى فيلسوف الحداثة ايمانويل كانط إلى بناء سلم عالمي يحفظ الإنسان (الأوروبي خاصة) من الحروب والاقتتال ليتفرغ للبناء والتنمية، فختم مشروعه التنويري بتأليف كتاب "نحو سلم دائمة" Zum Ewigen Frieden سنة 1795 (24). ولقد نجحت الكرة في تحقيق حلم كانط في رؤية القوى الأوروبية الكبرى تتوحد نحو الرخاء والسلام بدل الحروب والصراع على المغانم والمستعمرات، فالجماهير الأوروبية تنتقل كل يوم ثلاثاء وإربعاء بألوف مؤلفة (كأس رابطة الأبطال، كأس الاتحاد الأوروبي) بين كافة أرجاء القارة مما يعزز التلاحم ويذيب الحدود والنفور. وقد نجحت هذه الجماهير الكروية في تيسير اندماج أوروبا الشرقية، والدول الفقيرة (البرتغال، جزر الأندور، ليكسمبورغ، . . .) في الجسم الأوروبي بسلاسة ويسر. والانسانية في عمومها اليوم تواجه تحديات خطيرة ومميتة (أزمة الشرق الأوسط، العولمة، الإرهاب، الهجرة، التلوث، الاحتباس الحراري، انفلونزا الطيور، الحروب الاستباقية، الأزمة المالية، انفلونزا الخنازير، ارتفاع حرارة الأرض وتقلبات المناخ)، تحتّم التعاون الدولي على أساس تكافؤ

الفرص وأولوية التنمية والحوار، ولكن المتابع للعلاقات الدولية يلاحظ تنامي دعوات القطيعة والحروب وهو ما دفع كثيرين حول العالم للدعوة لاعتماد ديبلوماسية جديدة هي «ديبلوماسية كرة القدم»، القائمة على لقاء الشعوب وتفاعلها. إن الحداثة في جوهرها هي تقدم البشرية على طريق العلم والتعاون لتجاوز كل العوائق التي تقف في وجه الإنسان «حتى يصبح سيدا للطبيعة ومتحكما فيها» حسب عبارة ديكارت ولا تتحقق هذه المعاني دون غرس الولاء الوطني والإنساني والرغبة في التقدم. ولكن سريان عديد التيارات الهدامة في صفوف الشباب وتنامي فلسفات اللامبالاة والعدمية (الفوضوية، الوجودية، أحداث 1968، وتنامي الانتحار، الإدمان) دفعت عدة دول لاعتماد خيار الحروب والتخويف لحشد المجتمع تحت رايتها وتحطيم أوكار السلبية واللامبالاة، فبعض الدول الكبرى التي تتميز بتنوع عرقي كبير تحاول تحقيق الوحدة الوطنية عبر صناعة الخوف والحروب الاستباقية ولكنها تناست أن الحداثة هي وسيلة حضارية سلمية لتحقيق التقدم والوحدة دون الحاجة للحروب الوهمية والعدوانية. يعرّف لوفيفر الحداثة «الحداثة هي ظل الثورة» (25)، بمعنى أن الحداثة هي ثورة هادئة تكمل مشوار الثورات العلمية والفكرية ومنجزاتها، فهي تحقق القيم السامية (الحرية، المساواة، الأخوة، العدالة، الرخاء، التعاون الإنساني . .) دون الحاجة لثورات إيديولوجية ولا مجازر دموية (قتلت الثورة الفرنسية أكثر من مليون إنسان (26)، أما الثورة البولشفية فقد قتلت الملايين)، فحقيقة الحداثة تجنّب الإنسانية الثورات والدماء. وأعتقد هنا أن تعزيز البعد الوطني يحتاج لحرب تحتشد تحت رايتها كل الأمة ولكنها حرب بلا سلاح ولا خسائر بشرية، إنها كرة القدم، كما يعرّفها الفيلسوف جورج أرويل، «الرياضة (خاصة كرة القدم)هي حرب دون رصاص» (27).

فكرة القدم اليوم هي حرب بلا سلاح، واللافت أن هذه الحرب يتفاعل معها الشباب بشكل كامل مما يعزز في صفوفهم التلاحم الوطني والاعتزاز الحضاري دون الحاجة للذهاب لآلاف الأميال بعيدا عن وطنهم مدججين بكل أنواع الأسلحة ليقتلوا شعوبا لا يعرفونها كما تفعل عدة دول تفتقر لخيار كرة القدم.

غير أن الدولة العربية التي راهنت على الحداثة والتنوير تمر اليوم بصعوبات جمة سواء على مستوى القيم أو الممارسة اليومية، فقد تراجعت مردودية مؤسساتها بشكل خطير إذ نلاحظ بوضوح عودة النزعات الطائفية والعرقية للبروز بقوة، تنامي الدعوات الانفصالية في جسم البلد الواحد، تراجع الإدارة والمؤسسات، تراجع السلم الأهلي، تراجع مكانة وقيمة الطبقة الوسطى، تراجع مردود التعليم وهو الرهان الرئيسي للحداثة، . . .

أما على المستوى المعيشي واليومي نسجل تنامي البطالة والجريمة، تراجع التغطية الاجتماعية، تهاوي التعليم، الخوصصة غير المدروسة، ازدياد نسب الفقر، هزالة النتائج الاقتصادية . . فالدولة العربية الحديثة تتعرض لاختراق سفلي شديد الخطورة من قبل «الأطر ما قبل حداثة» وآخر فوقي من قبل العولمة الزاحفة، يقول د.برهان غليون «إن جذورالأزمة الحقيقية التي تعصف بالمجتمع العربي تكمن اليوم في نموذج الحداثة العربية نفسها» (28) وهي «عقيدة ارتباط التقدم التاريخي بالدولة» (29). وهو ما يحتم التعويل على قوى أكثر حيوية وقربا من الفعاليات الاجتماعية، ويمثل المجتمع المدني النشيط دعامة هامة للمواطنة وتعزيزا لقيم المشاركة والولاء، يقول المنجي الزيدي «إن التحولات المتسارعة اليوم تقتضي علاقة مميزة بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني تقوم على النهوض بالإنسان . . . إن هذه العلاقة التشاركية تعزز المواطنة» (30). مع التأكيد الدائم أن المجتمع المدني له وظيفة موازية في تعزيز المشاركة والإندماج في ظل قربه من الفعاليات المجتمعية المختلفة ولا يعوّض الدولة ومؤسساتها، «يتدعم دور المجتمع المدني . .من خلال بناء علاقة ثقة وتعاون مع الدولة للتغيير» (31). ولكن الملاحظ على امتداد العالم العربي عزوف الشباب عن الهيئات السياسية للمجتمع المدني (ممثلا في الأحزاب السياسية خاصة)، ولا يعود ذلك إلى

غياب الوعي أو ثقافة المشاركة بقدر ما يعود في جوهره إلى سيطرة شيوخ العمل السياسي على المشهد بصورة احتكارية. مما يثير نفور الشباب ويزيد من ابتعادهم من هذه الساحة المغلقة إلى فضاءات رحبة تفتح لهم الأبواب على مصراعيها. ففي المدرجات يقود الجماهير شباب مثلهم يكتبون الدخلة بالعربية، الإنجليزية، الإيطالية، الإسبانية، ويرسلون لهم الدعوات بالبريد الإلكتروني والموبايل كما إنهم أحرار في المدرجات يعبرون كيفما شاؤوا، ويناقشون ليلا في المنتديات وقائع الملعب والمدرجات. يقول الباحث يسري مصطفى «إن الشباب غائب في مؤسسات المجتمع المدني وتتجسد الإشكالية في تمركز عناصر بعينها من شيوخ العمل السياسي على مستويات المشاركة من القاعدة للقمة» (32).

إن تحديات العولمة ونفور الشباب من الأطر الحزبية والبيروقراطية الضيقة يحتم على الدولة فسح المجال للمجتمع المدني النشيط للقرب أكثر من الشباب وتحقيق تطلعاتهم، يقول د. نجيب بوطالب «إن إدماج المجتمع المدني أصبح مؤشرا للحكم على مستويات الإصلاح والتطور السياسي في الدول اليوم» (33). مع التأكيد دوما على أن المجتمع المدني لا يعوّض الدولة ومؤسساتها بقدر ما يعضد دورها في تمتين اللحمة الوطنية وإعلاء قيم المشاركة والتضامن، يقول الميثاق الوطني التونسي الصادر سنة 1988 « إن الأحزاب والمنظمات الاجتماعية والمهنية قوام المجتمع المدني مهمتها تأطير المواطنين والإسهام في تهذيب سلوكهم السياسي وفي رفع درجة الوعي بينهم بقضايا الحاضر ومقتضيات المستقبل، وهي لا تحل محل مؤسسات الدولة ولا ترقى إلى منزلتها» (34).

فالمجتمع يكتسب فعاليته من خلال مشاركة كل أبنائه ونبذ كل أشكال الاقصاء والتهميش، فالشباب المعاصر ينفر من الفضاءات المغلقة «إن الشباب لا يميل غالبا إلى الفضاءات المغلقة ولا يقبل على الأنشطة المبرمجة والمؤطرة من قبل السلطات العمومية ويرفض ارتياد المؤسسات الرسمية ولو كانت مخصصة له، الشباب يرغب في صنع فضاءاته بنفسه وأن يتولى تسييرها» (35). فالشباب يبحث عن نفسه وعن دوره وهو بحاجة إلى جرعة من الثقة وفسحة من الأمل تفتح أمامه فرص الإبداع بدل السلبية واللامبالاة التي قذفته فيها عقلية الإحتكار والوصاية «حين يشعر الشاب أن مجتمع الكهول غامض بعيد وعدائي . . وإنه لا يمكن التواصل معه يصبح الإنكفاء على الذات أو الصمت أنجع أشكال الإجابة» (36). إذ يتعرض الشباب في كامل الوطن العربي إلى أزمة هوية عميقة في ظل (العولمة، التدفقات السريعة، الحروب على أرضه)، يقول أركسون إن الشباب «يعيش الهوية المشتتة» (37) ويضيف «فالشباب في ظل تضاؤل الفرص لتحقيق الذات اقتصاديا نتيجة للأزمة الاقتصادية في المجتمع، فإن أزمة الهوية لدى الشباب أصبحت مظهرا أساسيا من مظاهر المجتمع المعاصر» (38). فالشباب يجد نفسه في حيرة كبيرة على مستوى الهوية ففي الغرب سعى الشباب لتجاوز هذا الهاجس عبر أخذ زمام المبادرة وإسماع صوته عبر العنف «معتنقي ثقافة الروكي هم أبطال الطبقة العمالية وجماعات الرؤوس الحليقة Skinhead وهم معروفون بتعصبهم لفرقهم في كرة القدم إلى حد العنف وكذا جماعات الهوليقانز، فهي كلها مظاهر رد فعل متطرف في مواجهة التهديدات الخارجية» (39).

ولكن هذا الخيار السلبي مازال بعيدا في العالم العربي فالكرة قد تمثل هنا ضوءا في نهاية النفق، فالهوية تتحدد أساسا في العلاقة مع الآخر، يقول هنتنقتون «من أجل تحديد الهوية فإن البشر بحاجة إلى أعداء» (40)، وفي مباريات المنتخب الوطني يرى الشاب من نحن؟ وماذا تمثل (ألوان العلم الوطني: اللون الأحمر، النجمة، الهلال. . .) فهذا الزي يعبر عن وطننا، أرضنا، ديننا، قيمنا، شهدائنا ومسيرتنا، بينما ألوان الفريق المنافس تعبر عنه وماذا يمثل ؟ فهذه المنافسة الكروية تجدد ربط الشاب بوطنه وتراثه بشكل ملحمي جماهيري مما يمحو كثيرا من الشكوك والإختلالات التي غرستها بعض التدفقات السلبية، يقول شكري مامغلي «إن المدرسة والجمعيات والعائلة هي المؤسسات التي تبنى فيها الهوية وترسخ فيها قيم المجتمع» (41). كما أن العولمة توفر

فرصة هامة لتجذير الهوية وتعميقها، فتطور وسائل الإتصال تبقي الروابط بين الوطن وأبنائه في الخارج، فالمتابع للبرامج الرياضية في تونس والمغرب ومصر خاصة يلحظ مشاركة مغتربين من هذه البلدان في متابعة أنديتهم ومنتخباتهم والتواصل اليومي معها مما يقيهم شر الانبتات والانسلاخ.

ولكن موقع الشباب في التراتبية الاجتماعية مازال غامضا في ظل عدم إعطائه الفرص المناسبة «لا يزال موقع الشباب في البناء الاجتماعي غامضا ومذبذبا . . إنه حالة ما يعبر عنه بـ«No Man's Land» (42)،

والمطلوب من المجتمع المدني هو إعطاء فرصة للشباب للمشاركة بنفسه في معالجة شؤونه فهو أقدر من غيره على معرفة مشاغله وإيجاد حلول لها «فالمجتمع المدني معني بإذكاء ثقافة المبادرة والتطوع والمشاركة لدى كافة الشرائح الاجتماعية والعمرية» (43)، لأن التحدي الأكبر اليوم هو «عزوف الشباب عن الإنخراط في العمل الجمعياتي» (44). ومن هنا حرصت الدول العربية على تفعيل المجتمع المدني «وإيمانا بدور النسيج الجمعياتي في تكريس قيم المشاركة والمواطنة وفي ترسيخ عملية البناء الذاتي داخل المجتمع ووعيا بأهمية الرهانات والتحديات المطروحة فقد أولى الخطاب السياسي في تونس للجمعيات عناية خاصة ومكانة متميزة» (45).

فالمجتمع المدني معني اليوم بالمساهمة بفعالية في تجاوز التحديات وكسب الرهانات الكبرى للأقطار العربية، وهي خاصة معارك التطور الديمقراطي وكسب ورقة التشغيل لتحسين المردودية الاقتصادية، يقول المنجي الزيدي «إن المجتمع المدني وخاصة الجمعيات تلعب أدورا متزايدة في إنتاج الخدمات والتشغيل» (46)، ويضيف فتحي الجراي «إن هذه المرحلة هي لحظة الاقتصاد التضامني بامتياز ولكنه يظل مرهونا بقدرة الدولة والمجتمع المدني لحل المشاكل الاجتماعية وعلى رأسها البطالة والأمية وسوء التوافق الاجتماعي» (47). ولكن الدولة العربية الحديثة تتعرض لهجمة شرسة تريد تفتيتها في ظل تصاعد تيارات العولمة وتدفقاتها، فالعالم اليوم يتميز بقوة تياره الذي يجرف كل معالم السيادة والحدود الوطنية، يقول هنتنقتون «إن النظام العالمي الجديد لا يهدف للديمقراطية بل لفتح الحدود وإضعاف الدولة الوطنية» (48). وفي نفس الوقت تتصاعد في العالم العربي النعرات الطائفية والعرقية التي تهدد الوحدة الوطنية وأبسط مقومات الوطن المّوحد، يقول محمد إبراهيم منصور «والدولة العربية المعاصرة مهددة أكثر من غيرها بهذين الخطرين، خطر إنتزاع السيادة ونقلها إلى كيانات دولية أكبر كالشركات العملاقة والمؤسسات المالية الدولية . . والخطر الثاني هو صراع الهويات والحروب الأهلية التي تهدد بتفتيت السيادة وتمزيق الوحدة الوطنية لكل قطر عربي» وفي ذات السياق يقول البروفسير منذر سليمان (49) «إن مصلحة ساتلوف (50) والقوى التي يمثلها أن تنتشر الفوضى في الوطن العربي على أساس إيقاظ المشاعر الطائفية والانقسامات العرقية وفق سياسة تشجع على مزيد من التفتيت والتجزئة» (51). فهذه التحديات الكبرى تتطلب تجنّد كل الأفراد والفئات للتصدي لهذا الخطر عبر تمتين قيم المشاركة والتضامن وتعزيز الولاء الوطني، ذلك أن المتآمرين الدوليين يبثون سمومهم في صفوف الفئات التي تشعر بالحرمان والتهميش للوصول إلى مشاريع التفتيت والتجزئة، ولا مناص من استغلال الثورة الإعلامية للإحاطة بالجميع والتواصل معهم للوصول إلى ميثاق وطني جامع تحت أرضية الوحدة الوطنية ونبذ الإقصاء والتهميش.

2 – الإعلام الرياضي فرصة للشباب :

لقد شهدت المنظومة الإعلامية العربية نهضة كبيرة في ظل العولمة، وصارت تنافس المؤسسات الإعلامية الكبرى وتتفوق عليها بشكل ساحق في وقائع مشهودة وبكفاءات عربية خالصة (تونسية بالخصوص). ولكن المعركة الأهم اليوم هي كسب رهان الديمقراطية والحريات، فهذه سبل الخلاص وطوق النجاة في ظل التحديات المعولمة وهذا الطوفان الجارف، ذلك أن كل القضايا بلا استثناء مطروحة أمام الإعلام لمناقشتها بفاعلية وشفافية، يقول

ريجيس ديبريه «الإعلام لا يأنف من شيء إنه كلب يمرغ كبرياءه في النظر للأرض وفي شمشمة الزوايا» (52)، لأن التحديات الجسيمة المطروحة لا تقبل التأجيل أو القفز عليها، بل تتطلب مناقشة وطنية جامعة للحفاظ على الوحدة الوطنية ومكاسب الدولة القومية. وبالتالي «فمن البديهيات القول إن للإعلام دورا رئيسيا في عملية التحول نحو المجتمع الديمقراطي وبناء مرتكزات المواطنة التي لا تتسم بالسلبية والقدرية» (53)، فالإعلام ينقل المواطن العربي من عقلية التقوقع والتحسر على ضياع الفرص والشكوى من تردي أحواله ومكانته إلى الإيجابية والمشاركة الفاعلة. والإعلام الرياضي بحكم وصوله لفئات واسعة وارتفاع شعبيته قادر على تحويل الديمقراطية من أطر نخبوية مملة يهيمن عليها مثقفون مازالوا لم يدخلوا بعد إلى القرن الواحد والعشرين وزمن الجماهير (الخالي من الأيديولوجيا) إلى حراك يومي شعبي يشارك الجميع في نحته وتوجيهه، يقول سارتر تعليقا على أحداث ماى 1968 «إن المثقف في طريقه إلى الإختفاء، ذلك الذي يفكر مكان الآخرين، إن التفكير مكان الآخرين سخف يبطل فكرة المثقف ذاتها» (54)، بينما يقول المثقف العربي علي أومليل بمرارة «إن المثقف العربي الملتزم فشل لأنه لم يأخذ على عاتقه قضية الحرية والديمقراطية» (55). لقد أعلن القرن الواحد والعشرون وعصر الجماهير نهاية الديمقراطية المملة، ديمقراطية الكراسي والمدارج الجامعية لتعلن عصر ديمقراطية الأستديو والمدرجات الكروية. فالديمقراطيات العريقة مثلا تعاني اليوم من عزوف الشباب عن الحياة السياسية في ظل فتور المشهد الديمقراطي وتحنطه في صور وممارسات متوارثة من القرن الثامن عشر، بينما الإعلام الرياضي يبرز للمشاهد معارك كروية حماسية تنطوي على برامج وهياكل متنافسة. فالممارسة الديمقراطية ليست طروحات نظرية عقيمة بل هي صراع وتنافس بين برامج وأحزاب لكسب الناخبين، إذ تأخذ الديمقراطية تألقها وتوهجها زمن معاركها الانتخابية الكبرى (المعارك الإنتخابية الأمريكية مثلا)، يقول السياسي الفرنسي جون بيار اسكينازي «أعتقد أن الديمقراطية ممارسة فعلية ولشد المشاهد يجب أن ينطوي المشهد على صراع وشخصيات مشهورة إنها لعبة الحماس والإثارة» (56)، وهو ما توفره الكرة والبرامج الرياضية للمشاهد إذ تمكّنه من ممارسته يوميا وعلى الملأ. ولعل المتابع الرياضي يتذكر الزخم الإعلامي والاهتمام الشعبي الكبير الذي يبديه العالم أجمع في انتخابات الرئاسة المثيرة داخل أروقة نادي ريال مدريد، (برامج متنوعة، شخصيات عامة مشهورة، رجال أعمال جهابذة، أموال فوق الحصر، فلورنتينو بيريز والضجة الدائمة حول شخصه وسياساته وبرامجه)، بينما شاهد الجميع الفتور والتجاهل لانتخابات رئاسة الوزراء في إسبانيا في ظل عدم تكافؤ القوى بين اليسار المتألق وصاحب المواقف المميزة، وحزب الشعب المتهاوي بقيادة المنبوذ شعبيا ودوليا أزنار. أما في العالم العربي فقد مثلت تجربة مرتضى منصور في نادي الزمالك فرصة ديمقراطية حقيقية، مكنت المواطن البسيط من معايشة الإنتخابات النزيهة والحماسية وتنافس البرامج والشخصيات حول سبل تطوير النادي والنهوض بالواقع الرياضي المصري والعربي، فمرتضى منصور الرجل الشعبي و«ابن البلد» صاحب المشاريع الطموحة، يواجه بشكل ملحمي وجماهيري مراكز القوى والمتنفذين المتمعّشين من نادي الزمالك العريق. وبالمثل فكرة القدم هي ممارسة ديمقراطية تفتح الأبواب لصعود الكفاءات الشعبية كما تضفي حماسة على المعارك السياسية التي تظل دائما طي الكتمان لولا وهج الكرة وتألقها، وتنقل الحياة السياسية من الأطر الضيقة والبعيدة إلى حراك شعبي ويومي يحظى بمتابعة واسعة، مما حدا بكبار السياسيين في العالم إلى نقل صراعاتهم السياسية المملة والمهجورة إلى الفضاء الكروي كي تكسب الجماهير. فالتنافس بين قطبي السياسة الإيطالية سيلفيو برلسكوني وورومانو برودي السياسي المحنّك وصاحب المواقف الشجاعة (رئيس الاتحاد الأوروبي طيلة 5 سنوات)، لن يأخذ زخمه عند رجل الشارع في ظل تعاقب الحكومات الإيطالية وتشابه برامجها، إلا عبر حرصهم على التنافس والسجال الكروي وتصريحاتهم النارية في الملاعب.

وإن الإعلام الرياضي بعد نفضه الغبار على الحياة السياسية المملة والنخبوية راهن على تعزيز قيم المشاركة والإندماج. فالبرامج الرياضية تفتح الباب للجميع للمشاركة وتبادل الآراء بشكل حر حول كافة القضايا الوطنية الكبرى مع منح فرص التدخل في رسم الخطط والبرامج ومناقشة المسؤولين مثل التحاور بشأن طرق تسيير المنتخب الوطني وهو يمثل الراية الوطنية، ميزانيات الأندية (تصل في بعض الدول العربية لملايين الدولارات، النادي الأهلي 50 مليون دولار سنة 2010)، آلية انتخاب رؤساء الهياكل الرياضية وتصرفاتهم وهم عادة من كبار المسؤولين في الدول العربية (في الأندية الخليجية هم عادة كبار الأمراء وأبناؤهم ...). كما أن البرامج الرياضية تفعّل أحد أهم مقومات النظام الديمقراطي وشروط بقائه وهي الشفافية والمحاسبة من خلال تسليط الضوء على بعض التجاوزات الفردية والقيام بإصلاحها.

يقول الدكتور منصف وناس: «يؤدي الإعلام دورا متقدما في مراجعة العلاقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وإعادة بنائها من جديد بما يتلاءم مع متطلبات المواطنة من جهة، وخصوصية العلاقة بين الدولة والمجتمع من جهة أخرى» (57). فالبرامج الكروية أعادت الثقة للمواطن العربي وأحيت المؤسسات الديمقراطية وعززت ثقافة المشاركة وحرية التعبير التي افتقدها المواطن العربي طويلا (هيمنت أنظمة عسكرية انقلابية منذ الخمسينات في عدة أقطار عربية مركزية) فالبرامج الرياضية تفتح الباب للجميع للمشاركة وإبداء رأيه بكل حرية وهي ظاهرة عالمية، يقول المحلل الرياضي الإنجليزي كريس باركر: «لقد أثبتت الدراسات في بريطانيا أنه رغم كثرة المنتقدين وتنوع ميولات الجمهور، فإن الصحافة الرياضية من أشد المجالات حرية باختصار إنه مجال حر» (58). وإن المتابع للبرامج السياسية في التلفزة العربية يجدها في أغلبها مغلقة لا تحظرها إلا أسماء بعينها من شيوخ العمل السياسي، ويضيق فيها التعبير وتسودها النمطية والملل مع حضور مكثف لمعارك وهمية وصراعات إيديولوجية غابرة لا تهم عالم اليوم في شيء، وطبعا يغيب شباب القرن الحادي والعشرين عن كافة ردهاتها. بينما نجد البرامج الرياضية حية مرحة تناقش فيها كبرى القضايا بهدوء وسلاسة مع حضور مكثف للشباب الذي يهيمن على كافة تفاصيلها.

وهكذا يمكننا القول إن الإعلام والبرامج الرياضية المتعددة قد منحت الشباب فرصة التعبير عن مشاغله واهتماماته، وأعادته إلى الواجهة وفسحت أمامه أبواب المشاركة الخلاقة والتفاعل النشيط.

خـــاتمــة :

إن المثقف العربي مطالب بالاقتراب أكثر من الشباب، ومخاطبتهم بلغتهم ورصد مجال اهتمامهم، ولاشك في أن الرياضة تمثل اليوم فرصة هامة لمزيد الإحاطة بالشباب ودفعه لتنمية مساهمته في الخيارات الوطنية ومزيد تعزيز تعلقه بقيم الحداثة والتنوير والاهتمام بالشأن العام الوطني أولا والكوني ثانيا.

والرياضة مازالت جديرة بالمكانة المستحقة بما هي آلية تعارف وتواصل جيدة، بفرصة لتثبت قدرتها على حل المشاكل الإنسانية سواء في جانبها الفردي والجماعي وحتى الدولي الكوني.

المصادر والمراجع

1) العفيفي (فتحي)، «فراغ السلطة في الوطن العربي»، ص 84.

2) المصدر نفسه، ص 84.

3) مؤلف جماعي، العولمة وتداعياتها على الوطن العربي، نفس المرجع، ص 67.

4) العفيفي (فتحي)، «فراغ السلطة في الوطن العربي»، نفس المرجع، ص 91.

5) حسين (جعفر)، «الشخصية والمشاركة الاجتماعية»، الحياة الثقافية، العدد 190، فيفري 2008، ص 36.

6) ياسين (السيد)، الحوار الحضاري في عصر العولمة، نهضة مصر للطباعة، القاهرة 2002، ص 268.

7) المصدر نفسه، ص 269.

8) فوكوياما (فرنسيس)، نهاية التاريخ، ترجمة حسين الشيخ، دار العلوم العربية للنشر، ص277.

9) ياسين (السيد)، الحوار الحضاري، نفس المرجع، ص272.

10) المداني (حافظ)، «الازدواجية في الهوية الجماعية التونسية»، نفس المرجع، ص 66.

11) عطية (مصطفى)، «ثوابت الهوية وتحديات العولمة»، الحياة الثقافية العدد 190 فيفري 2008 ص 41.

12) هنتنقتون (ساموبل)، صدام الحضارات، ص 238.

13) غليون (برهان) المحنة الدولة ضد الأمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 49

14) المصدر نفسه، ص86.

15) الزيدي (م)، ثقافة الشارع، نفس المصدر، ص41.

16) المصدر نفسه، ص91.

17) المصدر نفسه، ص92.

18) المصدر نفسه، ص 109.

19) Goulemot (Jean Marie), «Philosphie de Lumières » Universalis, p. 366.

20) Burdeau (Georges), « Etat » Universalis, p. 846.

21) غليون (برهان) المحنة العربية الدولة ضد الأمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 215.

22) Baudillard (Jean), «Modernité », Universalis, p. 554.

23) تراجع وزن مصر الإقليمي بشكل حاد أمام الدور التركي المتنامي، الهيمنة الايرانية، الصعود السوري والقطري، التهديدات الإسرائيلية.

24) Goulemot (Jean Marie),» La philosophie de Lumières»,Universalis,P336

25) Baudillard Jean, article «Modernitè», Universalis, p. 554.

26) Reinhard (Marcel) « Robespierre », Universalis, p. 434.

27) بار كر (كريس)، التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية، ترجمة علاء أحمد صلاح، مجموعة النيل العربية 2006، ص 57.

28) غليون (برهان)، المحنة العربية الدولة ضد الأمة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 218

29) المصدر نفسه، ص 218.

30) الزيدي (المنجي)، «المجتمع المدني والإصلاح في تونس»، نفس المرجع، ص 53.

31) بوطالب (نجيب)، «دور المجتمع المدني الوطني في تونس الرهانات والتحديات»، الحياة الثقافية، العدد 717 نوفمبر 2006ص 7
32) يسري (مصطفى)، المجتمع المدني وسياسات الإفقار في العالم العربي، دار ميريت، 2002، ص188
33) الزيدي (المنجي)، «المجتمع المدني والإصلاح في تونس»، نفس المرجع، ص 6.
34) خماخم (رضا)، الجمعيات في تونس، ص 288.
35) الزيدي (المنجي)، ثقافة الشارع دراسة سوسيوثقافية في مضامين ثقافة الشباب، مركز النشر الجامعي، 2007، ص 110.
36) المصدر نفسه، ص 23.
37) ياسين (السيد)، الحوار الحضاري في عصر العولمة، ص 297
38) المصدر نفسه، ص 297.
39) الزيدي (م)، ثقافة الشارع، نفس المصدر، ص 44.
40) هنتنقتون (ساموبل)، صدام الحضارات، ص 245.
41) مامغلي (شكري)، «المجتمع المدني ومجتمع المعرفة»، الحياة الثقافية، العدد 717 نوفمبر 2006، ص 36.
42) الزيدي (م)، ثقافة الشارع، نفس المصدر، ص 22.
43) بوطالب (نجيب)، «دور المجتمع المدني الوطني في تونس والرهانات والتحديات»، الحياة الثقافية العدد 717 نوفمبر 2006، ص 6.
44) المصدر نفسه، ص 10.
45) خماخم (رضا)، الجمعيات في تونس، ص 1.
46) بوطالب (نجيب)، «دور المجتمع المدني الوطني في تونس والرهانات والتحديات»، الحياة الثقافية العدد 717 نوفمبر 2006، ص 6.
47) الجراي (فتحي)، «العمل الجمعياتي والتضامن الوطني»، الحياة الثقافية، العدد 717 نوفمبر 2006، ص 29.
48) فيصل (عباس)، العولمة والعنف المعاصر، ص312.
49) من أشهر الخبراء العرب في الشؤون الأمريكية ويتميز بمعرفة واسعة للوسط السياسي والأكاديمي في الولايات المتحدة.
50) روبرت ساتلوف (R.Satloff) مؤرخ أمريكي وصاحب نظرية الفوضى الخلاقة وهو من أشهر المحافظين الجدد، ويعمل كمدير لمعهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى كما يعمل مساعدا في عدة مراكز دراسات أخرى. وهو صحفي مشهور في قنوات المحافظين كما يعمل في قناة الحرة الأمريكية ويتميز بكثرة التأليف والدعوة لإنهاء القضية الفلسطينية وتقسيم الدول العربية وإعادة احتلالها، وهو من أشد الموالين لإسرائيل.
51) سليمان (منذر)، «دولة الأمن القومي الأمريكي»، المستقبل العربي، العدد 325، مارس 2006، ص24.
52) ديبريه (ريجيس)، محاضرات في علم الإعلام العام، ترجمة فؤاد شاهين وجورجيت حداد، دار الطليعة 1996، ص 42.
53) الرزو (حسن مظفر)، ثورة الصورة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 72.
54) أومليل (علي)، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 249.
55) المصدر نفسه، ص 257.
56) Esquenazi (Jean Pierre) Television et Democratie, PUf, 1999, p. 289.
57) الرزو (حسن مظفر)، ثورة الصورة، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 69.
58) باركر (كريس)، التلفزيون والعولمة والهويات الثقافية، ص 121.

الإبداع الشّعريّ الشّبابيّ التّونسي : مجموعة «أسماء شرقيّة» للشّاعرة الشابّة عبير مكّي أنموذجا

سليمة الجوادي (*)

إنّ لحظة المواجهة النّقدية مع النص تبقى مخاطرة كبيرة، سيما إذا تعلّقت بنصّ يانع لا يزال صاحبه، ذاته، يختبر أولى خطواته في مسارب الإبداع. ولذلك، سنحاول النّظر في مجموعة «أسماء شرقية» للشاعرة التونسية الشابة عبير مكّي بقراءة قصائدها على ضوء المنهج الشمولي، وذلك بتجريب مفاتيح كثيرة علّ بواسطتها تتحقّق نشوة الظفر بهتك أسرار الإبداع فيها وتبيّن مقاصدها لما قد ترسّخ لدينا من أن تسليط المنهج الواحد على النص الإبداعي عامل رئيسي في تغييب أسئلة النصوص وجعلها مرتبطة بزاوية نظر واحدة.

تمسح مجموعة «أسماء شرقية» (1) مائة وأربعين صفحة. تضمّ اثنتين وعشرين قصيدة. وتحمل المجموعة عنوان إحدى قصائدها الواقعة بين الصفحة الثالثة والعشرين والتاسعة والعشرين مصدّرة بمقتطف من «ملحمة جلجامس»: **«في الأماكن التي رفعت فيها الأسماء سأرفع إسمي وفي الأماكن التي لم ترفع فيها الأسماء سأرفع إسمي» (2).** وقد حاولنا الدخول إلى حيث زوايا هذا النص عبر أولى عتباته وهي عنوانه. لكنّنا وجدنا أن العتمة قد تكثّفت عند مدخل النص فيما يبدو. فعبير مكي شاعرة يستهويها إرباك قارئها ومشاكسته حتى تستقرّ في وعيه، وتستفزّ فضوله في آن. ذلك أن العنوان قد ورد على هيأة تركيبة لفظية بسيطة (مركبا نعتيا) يشير إلى دلالة ما دون أن يستوفي مقاصدها، فأسماء الأشياء هي كينونتها، وأن تسمّي الأشياء هو أن تعطيها معنى لوجودها، وكلمة «الأسماء» هنا قد وردت نكرة لا شيئ يعيّنها سوى نسبتها إلى «الشرق». ولذلك فإن ولوج نص «أسماء شرقية» من أوّل ما وقعت عليه أعيننا بدا وكأنّه مجازفة كبرى في سبيل تبديد أدغال المعنى الذي تدور في فلكه قصائد المجموعة. ولهذا، ارتأينا النظر في القصائد ذاتها، علّ ذلك قد يسعفنا بالظفر بما لم يتحه العنوان.

وبمباشرتنا قراءة المجموعة أمكننا أن نرصد في البدء ما يلي:

– ثمة اهتمام بالأنا الشخصيّة ووقوف مطوّل عند عذاباتها وهواجسها وانفعالاتها

– ثمة انشغال بالهوية والمصير.

– ثمة وعي بالجانب الفنّي وبانزياحات القصيدة العربيّة الحديثة في مستوى إبدالاتها الفنية.

---

*) باحثة، تونس

«أسماء شرقية» هي عنوان إحدى قصائد المجموعة التي تقع بين الصفحة الثالثة والعشرين والتاسعة والعشرين، تقول فيها الشاعرة:

لامس الشرق فكرتنا

فاستبدّت بنا الكلمات

استندنا إلى ناسخ كان أن صرفته القرون على صمتنا

في ضمير الجماعة "كنّا"،

ولم يك فينا سوى علل لم يطأها العروض،

ولم يك في صمتنا غير صوت حبيس

يضجّ: "اكتفينا" فهلاّ فككتم عقال الحروف

لتسبح مثل الأجنة، في دمنا... (3)

بالرغم من هذا النزوع الظاهر نحو التذويت، تحتلّ القضية الجماعيّة موقعا هامّا في قصائد المجموعة، فإذا بالشاعرة ثائرة في وجه الصمت العربي وقد أصابت الأمّة العربية أربع نكبات تركت ندبا غائرة في الضمير الجمعي، هي نكبة انهيار الخلافة الإسلامية ونكبة سقوط الأندلس ونكبة فلسطين وضياع القدس ونكبة العراق مهد الحضارة العربية. ولذلك، تندسّ القضية الفكرية في ثنايا المجموعة، وإن لم تنل حظّها الأوفر من حيث الكمّ، فإنها أرست بثقل أهمّيتها على الذات الشاعرة بشكل صارخ، إذ تختزل قصائد مثل «قصائد شرقية» و«كائن في الصوت» و«الجذور»... مواقف الشاعرة من قضايا وقوميّة لم تلاق في فكرها ووجدانها قناعة ورضا. فأدانت فيها حضارة الاستهلاك والجشع، ورثت فيها فقر القلوب وضمأ الشعور. لكن الواضح أنها تنأى في التعبير عن تلك القضايا عن الواقعية المباشرة، وتسلك مسلك الإيحاء والترميز، ثم هي لا تغرق في الواقعية، وإنما تصنع لنفسها، بالموازاة، عوالم خيالية بديلة باحثة عن أمثلة الطهر والنقاء. ومن جهة أخرى، فإن التباين الواضح في المواضيع التي استقطبتها قصائد المجموعة يشي بأن الشاعرة قد لفظت تضاريسها في حالات شعورية مختلفة وفي مقامات شعريّة متباينة.

في شعر عبير مكّي نزوع ظاهر إلى التسريد narrativisation، ففي قصيدتها «عماء» توظّف الشاعرة الحكاية المرويّة، ولكنّها تتعمّد خرق السببيّة في سيرورة الأحداث. فهي في ما يبدو، تعي تمام الوعي بأن خرق الحكاية عن طريق الإيحاء والإيهام هو شكل من أشكال تشعيرها. كما تعي في المقابل، بأن السّرد والوصف قد فتحا أفقا جماليّا رحبا في الشعريّة العربيّة.

على أهبة الغيم،

كنا نلمّ البياض من الأفق

نستدرج القمر الأرجوانيّ

حتى يظلّلنا،

كانت الأرض تسبح فينا،

وترنو إلى ظلّها في السماء (4).

ومن أبرز السّمات الدالّة في شعر عبير مكي سمة «التقابل»، وهي تتجلّى في انتقال الشاعرة من معنى إلى آخر قد لا يرتبط به ارتباطا مباشرا أو منطقيّا. وقد ورد التقابل على هيآت تركيبية مختلفة متوازية ومتنوّعة في قصائد مثل «أضواء عمياء» و«ما يبدأ... ولاينتهي» و«ما الموت غير قصيدة لم تكتمل» و«الكهف» و«كائن في الصوت»..., وتنهض هذه الخاصيّة الأسلوبية بوظيفة تشتيت المعنى أو الوقوف ضدّ انحساره في نسق دلالي واحد لصالح تعدديّة الدلالة وقيام الحركيّة في التعبير، وهو ما تتطلبه الجماليّة في السّرد الشعري. وتنبجس الشعرية من عمق الصورة التي تنهض على دلالة هاربة تطال المعنى دون أن تستسلم لأحاديته. ذلك أن عبير مكي شاعرة تمتلك القدرة على إحالة القارئ على عوالمها المتخيّلة لأنها تبنيها على مقوّمات تواصلية سهلة تمتح من جمالية الغموض دون أن تتأسّس عليه.

ماذا عن لون الفجر

وعن ثبج الآفاق

إذا أدلجت وحيدا

ماذا عن سرّ الحرف إذا خانتك الرؤيا

ماذا لو يجهض ليل الحرف نهارك

ماذا لو تقصص رؤياك على الأزهار

فتذبل (5)

في هذا المقطع من قصيدة "الظلّ الممتدّ" تتعدّد الفواعل وتتصادم العوالم وتتكثّف الصور وتتقاطع المشاهد، فيكشف جلّ ذلك عن ديناميّة المواقف المعروضة. وفي المقطع ذاته، تستغني الشاعرة فجأة عن حركتها، وتقف عند فعل الرؤية، ويحتويها عالم الرؤيا، وتأخذ الدلالة في التوالد والتكاثف. وهنا تبدو قدرة الشاعرة على بناء أكوان تبدو مستحيلة، لكنّها واقعة في كون الشعر. ومن الجهة الأسلوبية، تسلم الشاعرة العنان لدفقة شعريّة متداعية في شكل أحداث مشتّتة لا تستمدّ ترابطها إلا من سياقها الدلالي. ولكن كما أوضحنا، شعر عبير مكي لا يغرق في الغموض بقدرما يمتح من جماليّته ويختبر قدراته على تفريع الدلالة الشعريّة.

تقول عبير مكي من قصيدة " **كائن في الصوت** ":

. . . في البدء

كنت تسير من أعلى المقام

إلى رتابتنا،

كوُجه طافح بالعطر،

كانت تحتسي قسمات الأمواج،

تقطر في سراب الورد (6)

تمضي الشاعرة في هذا المقطع باللغة وجهة السرد الشعري، ولكنها تمعن في تكثيف بؤر تركيز القارئ الذي يحاول من جهته اقتناص الدلالة السطحية فلا يكاد. ففي هذا المقطع يستدعي الخطاب الشعري المباشر قوة حضور للمفردات التي من شأنها أن تنقذ اللغة من المباشرة النثريّة وترتفع بها عن طائلة الكشف والإبانة. وعندئذ، فتسريد الشعر لم يكن يوما عائقا في سبيل تخريج الجمالية الشعرية، وإنما كلّه عائد إلى مدى قدرة الشاعر الإبداعية وحسّه الفني.

وتدخل بعض قصائد المجموعة في عتمة الصمت أو أن توتّر اللحظة الشعرية يلجم اللغة فتختار الشاعرة الصمت، وهو ليس الصمت المتعارف، إنما هو نمط من الكلام المحتجب. وقد تؤدّي الرغبة في الإفصاح والبوح إلى الإغراق في عتمة التّضليل، ترتبك اللغة، فإذا مقاطع ومشاهد متقاطعة وصور ورموز متداخلة تكاد أن تفقد اللغة معها منطق التداول المعروف. ولعلّ مبرّر استخدام مؤشّرات طباعيّة مثل نقاط التّتابع وظاهرة الحذف أن الشاعرة تضيق بالتفاصيل فتترك للقارئ مجال إتمامها أو تخمينها. تقول:

تسبح في لغتي كلّ الأسماء مشوّشة

تتراكض في الألوان مشاهد معتّمة

ومشاهد ريّا بالأسماء،

تتدافع في حلقي الأحرف

حصرم كلمات باهتة

أنا لست أرى، ، ،

أنا لست. . .

أنا، ، ،

. . . .

. . . . (7)

وتحضر في مجموعة «أسماء شرقية» مجموعة من الرّموز بمحيلاتها وبأسمائها في أحيان قليلة، تعيد الشاعرة تخليقها بمهارة عالية وطرق متلوّنة تمّحي معها أيّة شبهة في التكرار. فالشاعرة تستدعي بعض الرموز الأسطورية لكنّها تفرغها من حمولتها التاريخية، حيث تعمد إلى تقنية التوظيف فتبرز الجماليّة الفنيّة والدلالية من مدى تجاوز التاريخي والخاص خدمة للدلالة العامة للقصيدة. ذلك أن فاعليّة حضور الرّمز في القصيدة تبقى رهينة مدى الكشف والإضاءة التي يسلّطها على المعنى دون أن يكون إسقاطا عليه.

تـمـوز الـراعي،

لا راعي إلاه، إله

سيكون إلها

وسيخرج من مملكة الموتى

يرفعني أعلى من موتي

فلتغسل بالطيب أنامله

وليعط السّرّ الكامن في الوردة

وليعط حروفا تصنعني (8)

ولعل الشاعرة تعي، تمام الوعي، أن الرّمز قد أصبح مع الشعر العربي الحديث أحد أهمّ الظّواهر التي يشكل عبرها شعريّته. يلجأ إليه الشعراء لما استقام لديهم من أن لغة التعبير الشعري لغة تترفّع عن التحديد والوضوح، هي لغة – فوق عادية. لأن اللغة العاديّة تقصر عن تفجير ما في اللاشعور والإحاطة بالحالة الشعريّة. وبالتالي، تستحيل حاجزا أمام توالد الأفكار وخصوبة المعنى باعتبار أن القراءة الأحاديّة للنص الإبداعي نتاج طبيعي تؤدّي إليه اللغة العاديّة في تواضع سياقاتها.

تقول الشاعرة من قصيدة "**ما الموت غير قصيدة لم تكتمل**":

من أين أبدؤها القصيدة

هل بوسعي أن أطوّع الكلمات

كيما أستردّك من دروب الريح

كيما أستردّ من المتاه خطاك

من موتي خطاي،

لأستردّ الصوت من صمت الجمل

ما الموت غير قصيدة لم تكتمل (9)

لاشكّ في أن اللغة هي أداة تخليق الرؤيا وإعادة صياغة الكون، وعندما يصرخ الشاعر بأن اللغة تضيق كلما اتسعت الرؤيا، فإن هذا المفهوم النقدي للرؤيا يتجاوز مفهوم «ضيق العبارة»، ولو كان الأمر صحيحا، لمات الشعر بانحباس اللغة وموتها. فقط، ما تضيق بالشاعر هي اللغة التواصليّة المعتادة التي تنكسر وتعجز في حضرة الشعر. فالواقع أن أسباب البوح لا تنقطع بالشاعر، وإنّما هو يرتفع بالعبارة الشعرية ويرتاد بها آفاقا رمزيّة جديدة تتجاوز فضاء العبارة التواصلية وتهزأ بها.

وإذا كانت لا معقوليّة الدّلالة كثيرا ما ترهق القارئ العادي، فإنه بوسع العين الناقدة الثاقبة أن تصيب الكثير من اجتهادها في لمّ شتات المعنى وتمثّل الأكوان الشعريّة التي يودّ الشاعر ارتيادها. إذن فتشعير العادي يتطلّب ضرورة تجاوز الحسّي إلى المجرّد بكسر أطواق السياقات العاديّة للغة وإعادة ترتيب المفردات على نحو مخصوص وجمعها وفق منطق جديد يتعالى على المعتاد والمتداول واستدعاء آليات الترميز الشعري والاستغناء عن التكرار لتشتيت الذاكرة. ومن هذا المنظور، فإن، الشعر يظلّ حالة خاصّة ومميّزة في اللغة والتعبير على أساسها، لا يمكن أن يكون الشاعر إلا إنسانا استثنائيّا في شعوره ووعيه.

وفي نص «أسماء شرقية» تتجاوب عديد الأصداء والأصوات التي تكشف عن المخزون الفكري والثقافي للشاعرة. ففضلا عن ظاهرة التصدير التي لازمت أهم قصائد المجموعة، يسهل على قارئ شعر عبير مكّي أن يكتشف هذا التعالق بين بعض قصائدها وقصيدة «الأرض اليباب» لإليوت سيما في قصيدتها المطوّلة «المتاه»:

هاهنا، عند بدء السبيل استقرّت خطانا

ضباب **يلفّ المكان**

تماثيل دون **ظلال تفيئ إليها العصافير**

طفل **يقشّر أغنية للإله...**

ما الذي قادنا ها هنا، صوب بدء المتاه (10)

هذا التأثّر كان عبر وساطة بدر شاكر السّياب الذي لم يخفِ تأثيره هو الآخر في قصائد المجموعة سيما بالنظر في أشكال توظيف رمزيّة الماء. ولطالما تردّد ذكر عنصر الماء في قصائد المجموعة. ولعل أهم رمز اتّخذه الماء هو رمز الخصب والنّماء في كل الأساطير والأديان التوحيديّة والميثيولوجيا اليونانيّة. وقد تردّد ذكر الماء ثلاثا وستين مرّة في القرآن الكريم في سياقات مختلفة. ولا نخال مبدعا واحدا في أي حضارة لم يتناول موضوع الماء. ولكن الاختلاف كان في صنوف اختبار هذا الرمز وجعله في خدمة جماليّة المعنى.

تقول الشاعرة من قصيدة "**فليورق صوتك**":

اصرخ...

ليقال ولدت اصرخ،

ليقال خرجت من الأحشاء مضيئا

مثل رسول أعزل
يحمل في كفّيه الريح،
وآنية حبلى بالزهر (11)

إن الصورة الشعرية في هذا المقطع لا تستمدّ إشعاعها وقوّتها من قدرة الشاعرة على تصوير مدى اشتداد أزمتها، وإنّما في قدرتها على قلب المعنى ذاته عن طريق ما يسمّيه الفرنسيون بالفكاهة الساخرة (l'humour noir). ولا يخفى أن للسّخرية عموما مدلولا عميقا بوصفها فلسفة حياة تنطوي على رؤية مخصوصة للعالم و الأشياء.

وقد احتوى المقطع على جملة من النعوت المتقابلة، وهذا التنافر في النعوت قد أفضى إلى صور مربكة ومتوتّرة على أهبة أن تدخل في خبل التعقيد لولا أن الشاعر يسعفها بتوحيد السياق العام للقصيدة وتوحيد الموضوع الذي تدور في فلكه، وهو بذلك ينقذ قصيدته من الوقوع في ضبابية الرّؤيا وعدم القدرة على التّحديد.

إن مجموعة «أسماء شرقية» من خلال هذه القصيدة وغيرها تدفع متلقّيها، دفعا، لأن يتورّط في لعبة اللغة التي بدت الشاعرة بارعة في تمثّل قوانينها. فنصّ عبير مكّي ليس نصّا متاحا بقدرما يتطلّب طول تأمّل وإعمال نظر.

ولعوالم الطفولة وأجوائها في قصائد عبير مكي حضو باهت لكنّه مميّز من حيث لا تكاد الشاعرة تذكر الطفولة والصبا دون تحسّر. تقول:

كان أبيض عطر النجوم،
وبيضاء كانت أيادي الفراشات
من غير سوء
تقدّ من الرمل ضوءا لأحلامنا
وحين نمت بين أسناننا اللبنيّة
أولى الحروف المضيئة،
صرنا نحثّ الخطى نحو أجسادنا،
صارت الأرض تنأى
قليلا... قليلا (12)

وتقول:

ماذا أقول وكلّنا طفل،
إذا بلغ الفطام،
يخرّ يسجد...
للحجر (13)

وللشاعرة الشابّة قصّة مع الشاعرة الطفلة، كثيرا ما تنسلّ إليها وتندسّ في عوالمها باحثة عن أسرار الماضي السعيد، تحاورها في صمت وأحيانا تسقط عليها حالتها الراهنة، تسقط عليها أيضا أحلامها وهواجسها، وكأنّها في حالة مطاردة مع الزمن. ولأن الراهن عاجز عن إنجاب الشاعر، راحت الشاعرة تصيد اللّحظة الشعرية من الطفولة وعبثها، تقول:

كانت طيور الماء تدسّ مناقيرها في الثرى
تحفر النخل كي يغمر الماء أعذاقه
كان طفل صموت يشدّ المياه بأهدابه
ويغنّي بكل أصابعه:
لساني الذي لم يزل يتلهّى بلثغة
يتوكّأ فوق الأصابع
تنغل فيه البحار وأسماكها:
«يا إلهي، هب لي وزيرا من الطير
يبذر أغنيتي في المياه...» (14)

وفي هذا المقطع من القصيدة نفسها تبسط الشاعرة عبر جملة من الإشارات المكثّفة موجزا لرؤيتها لحركة الزمن. تقول:

تلهث الأرض خلف خطانا
وتلهث مع خطونا خلفها
إذ تدور ندور ونسكن إذ تنثني
تستبدّ بنا شهوة العشق:
أن نتضاعف مثل السنابل في حضنها
أن نضيع كما شهقة في الظلام بها (15)

ولعلّ التأمّل في قصائد مثل «عماء» و «جذور»

و «المتاه»... يشي بأن عبير مكّي شاعرة لا تجد في حاضرها ما يدفعها لأن تمثل أمام حضرة الشعر، ولذلك ظلّت تمتح أكوانها وعوالمها الشعريّة من قسمات الماضي البعيد هو تاريخ الحضارة العربية بمحيلاته التي اكتسبت حضورا مميّزا في المجموعة الشعرية، فالشاعرة تراجعها مرّة على اعتبارها نبراس الأمل الذي يضيء عتمة حياتها، وتراها مرة أخرى، حلما مستحيلا:

تقول من قصيدة «عماء»:

كان أبيض كالغيم
صوت المياه بداخلنا،
كان أبيض عطر النجوم،
وبيضاء كانت أيادي الفراشات
من غير سوء
تقدّ من الرمل ضوءا لأحلامنا (16)

ويذكّر استخدام الشاعرة لعناصر الطبيعة بالصدى الرومانسي باعتبارها تتّخذ من مظاهرها أداة للتعبير عن أحاسيسها وانفعالاتها وتقلّبات حالتها الشعورية. وإذا كانت العناصر الطبيعيّة تتكثّف بشكل لافت في المجموعة، فإن ذلك كان على حساب الرموز الدينية والتراثية التي وردت أقلّ كثافة وحضورًا، فأشار ذلك إلى طبيعة الذات الشاعرة النازعة نحو الطبيعة بشكل عام.

وتتعامل الشاعرة مع عناصر الطبيعة وتقلّباتها الجويّة تعاملا توظيفيّا دالاّ. وقد تواتر ذكر عنصر «الريح» في المجموعة الشعريّة بشكل لافت، فكان رمزا للثورة ونفض الغبار عن العقل واستيقاظ الوعي، فالشاعرة لا تتردّد من الحين إلى الآخر في تمرير رسالة إيديولوجية تنطوي على دعوة ظاهرة إلى الرّفض، فضلا عن أن الحضور القويّ لعنصر الماء حضور دالّ يمكن ولوج عوالم الشاعرة من خلاله:

لا شأن للشجر الذي ينمو بأرضك
قد يفيض على اللغات جميعها
بالماء إذ ينساب بين يديك يبتكر المشاهد والشاهد والحكايا
شاهق صوت المياه ينزّ من ثلمات صوتك كالنفس

والروح عارية تطير إليه، دون قصيدة،
وبلا جرس (17)

أما في مستوى الايقاع، فقد بدت عبير مكّي متمسّكة بالتفعيلة الخليليّة التي ظلت النواة الايقاعية الأساسية في قصائدها. كما يمثّل التكرار في قصائد المجموعة مولّدا إيقاعيّا هامّا، وقد تمثّل في تكرار كلمات بعينها وتكرار كلمات تتقارب أو تتطابق من حيث الدلالة. تقول من قصيدة «**نشيد الريح**»:

قالت نملة:
«إني أرى ما لا ترون،
إنّي أرى تحت الربيع،
وخلف أسوار النشيد
غلالة الصمت المهيب، شفيفة،
إنّي أرى جندا يغذّون الخطى،
أخشى عليكم يا بني قومي خطاهم
إذ أراهم يعبرون،
إنّي أرى ما لا ترون (18)

هذا فضلا عمّا توفّره مصادر إيقاعيّة أخرى كالتوازن الصوتي بين المفردات والتوازن الصوتي بين الأفعال والتوازن الصوتي بين الحروف. فشعر عبير مكي وإن كان يمثّل تحرّرا يكاد يكون جذريّا من الماضي من جهة الصياغة اللغوية، فإنّه، مع ذلك، لا يكاد يفلت من سطوة كثير من التقاليد الشعرية، فلاوعي اللغوي يدفعها لتمثّل طرق مستهلكة في الصياغة اللغوية شأن الجناس والتكرار. وإذن فما يسم شعر عبير مكّي من جهة الإيقاع عموما، احتفاؤها بالموسيقى في نطاق شعر التفعيلة، إذ هي تتقن لعبة الوزن دون أن يصير الوزن قيدا لإيقاع قصيدتها.

حاولنا في هذه الدراسة مقاربة مجموعة «أسماء شرقية» مقاربة شمولية تأخذ على عاتقها النظر في الكليات باعتبار غضاضة التجربة وعنفوانها. فاستقرت قراءتنا تلك عند لحظات مائزة تشير إلى انبثاق تجربة مهمّة في مسيرة الشعر التونسي تحاول أن تخطو خطوات واثقة. فهذه المجموعة تنبئ بميلاد صوت شعري تونسي

قادر – رغم غضاضته، على التموضع ضمن تجارب إبداعية هامّة لما فيها من ومضات شعريّة مدهشة وتكثيف إيحائي ورمزي. ذلك أن من خصائص اللغة في شعر عبير مكي عموما، أنها تبني كيانها من الحسّي وترتقي به إلى الرمزي، هي لغة العدول الجميل والانزياح الخفيف الذي يرتفع بك إلى حيث عوالم تخييلية جديدة، لكنه لا يقذف بك في متاهات الإغماض ومجاهله. كما تحقّقت الشعرية من استبدال عناصر الصورة الواقعية بعناصر مستمدّة من حقول دلاليّة أخرى تخرق الدلالة الشعريّة وتصل بها أحيانا حدّ الإدهاش.

و أما المضامين، فقد تراوحت بين ما هو اجتماعي وذاتي ووجداني ووجودي. كما جنحت الدلالة مرّة إلى التخفّي والتستّر حدّ الإغراب، وسارت في أحايين عديدة نحو البساطة والوضوح. وهي تختار سبلا مغايرة في طرق الإنساني بكيفية تندغم معها الفواصل والحدود بين الأنا والآخر، ذلك أنها تستقطب في قصائدها أزمة الإنسان العربي في اللحظة الراهنة وتحوّلها إلى همّ ذاتي ذي بعد وجوديّ.

لقد حملت هذه المجموعة أوجها من المغايرة والمغامرة في آن. حاولت فيها صاحبتها أن تكون صوتا شعريا مائزا. وتظل هذه العينة بمنأى على التماثل والتشاكل لانفتاحها على مختلف الهموم الفكرية والوجدانية لكنها تظلّ موثوقة إلى همّ إبداعي وفني واحد ما يزال بعد في مخبر التجريب.

وعموما، تبقى عبير مكّي من خلال مجموعتها الأولى «أسماء شرقية» صاحبة رؤية متفرّدة للذات والآخر، حاولت الإفصاح عنها من خلال رؤيا فنيّة مخصوصة تحاول ارتياد آفاق جديدة من الإبداع الشعري، ولكنّها فيما يبدو، في حاجة أكيدة لمزيد التمخّض، باعتبار أن الشاعرة ما تزال في بداية رحلتها إلى حيث معين الشعر وزلاله.

المصادر والمراجع

1) أسماء شرقية، مسكلياني للنشر، تونس 2008.
2) م. ن، ص 23.
3) م. ن، "أسماء شرقية"، ص 23.
4) م. ن، "عماء"، ص64.
5) م. ن، «الظل الممتدّ»، ص19.
6) م. ن، "كائن في الصوت"، ص79.
7) م. ن، قصيدة "ما يبدأ... ولا ينتهي"، صص 31__32.
8) م. ن، "ما يبدأ... لا ينتهي"، ص31.
9) م. ن، «ما الموت غير قصيدة لم تكتمل»، ص35.
10) م. ن، «المتاه»، ص 109.
11) م. س، «فليورق صوتك»، ص83.
12) م. ن، «عماء»، صص65-66.
13) م. ن، "كائن في الصوت"، ص 82.
14) م. ن، «المتاه»، ص 116.
15) م. ن، صص 123__124.
16) م. ن، «عماء»، ص65.
17) م. ن، «ما الموت غير قصيدة لم تكتمل»، ص38،
18) م. س،» نشيد الريح»، ص73.

ليس الشباب إلاّ كلمة

ترجمة عادل بالكحلة (*)

مقابلة آن-ماري ميتدّيه مع بيار بورديو ،ظهرت في الشبان والشغل الأول، باريس، جمعية الأعمار، 1978 (من صفحة 520 إلى صفحة 530)

سؤال: كيف يتناول عالم الاجتماع مشكل الشبان؟

- الارتكاس المهني لعالم الاجتماع هو التذكير بأن التقسيمات بين الأعمار تعسفية. إنها مفارقة باريتو القائلة إننا لا نعرف في أي عمر تبدأ الشيخوخة كما لا نعرف أين تبدأ الثروة. فالثغر بين الشباب هو في كل المجتمعات رهان صراع. أضرب مثلا، أنني قرأت، منذ بضعة سنوات مقالا في الروابط بين الشبان والوجهاء في فلورنسة بالقرن السادس عشر، بيّن أنّ المقترحات القديمة في الشباب هي «إيديولوجيا» الرجولة و«الفرتو» (1) والعنف، وقد كانت أسلوبا لحفظ الحكمة أي السلطة. كما أن جورج دوبي (2) بيّن جيدا كيف أن في العصر الوسيط كانت حدود الشباب موضوع تلاعبات من مستلمي التراث الذين كان عليهم أن يثبّتوا الشبان النبلاء القادرين على المطالبة بالخلافة في الشبابية، أي في حالة عدم المسؤولية.

نجد أشياء معادلة تماما بالمأثورات والأمثال أو ببساطة بالقوالب حول الشباب، أو بالفلسفة أيضا، من أفلاطون إلى الآن، الذي عيّن لكل عمر ولعه الخصوصي، فاليفاعة الحب، وبالعمر الناضج الطموح. فالتمثل الايديولوجي للتقسيم بين الشبان والشيوخ تمنح للأصغرين أشياء تجعلهم بالمقابل يتركون كومات من الأشياء للأكبرين. ونرى ذلك جيدا في حالة الرياضة، كما في الرقبي، مع تحميس «الصغار الجيدين» خامات جيدة، لينات العريكة، منذورة للتفاني المعتم للعبة بالخطوط الأمامية التي يثيرها المسيرون والمعلقون «كن قويا/ واصمت، لا تفكر». هذه البنية، التي توجد في الخارج (في الروابط بين الجنسين مثلا)، تذكر أن في التقسيم المنطقي بين الشبان والشيوخ، مسألة سلطة، أي تقسيم (بمعنى التوزيع) للسلطات. فالتصنيفات حسب العمر (ولكن أيضا حسب الجنس أو دون شك حسب الطبقة...) تعود دائما لفرض الحدود، وإنتاج نظام

---

*)جامعي، تونس

ينبغي لكل أحد المكوث به، حيث ينبغي لكل أحد أن يلبث بمكانه.

سؤال: ماذا تفهم من "شيوخ"؟ هل هم البالغون؟ هل هم الذين في حال الإنتاج؟ أو ذوو العمر الثالث؟

– عندما أقول "شبان" أو "شيوخ" أعتبر العلاقة في شكلها الأكثر فراغا فالمرء هو شيخ أحد أو شباب أحد. ولذلك كانت القطيعات، سواء بمراتب الأعمار أو الأجيال، متغيرات تماما، أو رهان المناورات، فنانسي مون (3) الإناسية، مثلا تبين أن في بعض مجتمعات أستراليا أن سحر الفتوة التي تستعملها بعض الشيخات لاستعادة الشباب تعتبر شيطانية تماما، لأنها تجعل الحدود بين الأعمار مضطربة فلا يدرك الشاب من الشيخ. فما أريد التذكير به هو ببساطة أن الشباب والشيخوخة ليسا معطيين، ولكنهما مبنيين اجتماعيا في الصراع بين الشبان والشيوخ. إن الروابط بين العمر الاجتماعي والعمر الحيوي معقدة جدا، فإذا قارنا الشبان من مختلف شرائح الطبقة المسيطرة، مثل التلاميذ يدخلون دار المعلمين العليا والمدرسة القومية للفلاحة أو المدرسة الخامسة، بالسنة نفسها، سنرى هؤلاء "الناس الشبان" يحملون أكثر صفات للكهل والشيخ والنبيل، وغيرهم، وهم أقرب لقطب السلطة. وعندما نذهب من المثقفين إلى الرؤساء المديرين العامين، نلاحظ ما "يصنع" الشاب، من شعور طويلة وجينز سيضمحل.

لكل حقل، كما بينت بصدد "الموضة" أو الإنتاج الفني أو الأدبي، قوانينه الخصوصية للتشيخ، فلكي نعرف كيف تنفصل الأجيال عن بعضها ينبغي أن نعرف القوانين الخصوصية لاشتغال الحقل ورهانات الصراع والتقسيمات التي يعالجها هذا الصراع (موجة جديدة، رواية جديدة، فلاسفة جدد، قضاة جدد، وغير ذلك)، ليس هناك سوى المبتذل جدا، ولكن ما يرينا أن العمر معطى حياة مناور عليه وقابل للمناورة، وأن الحديث عن الشبان باعتبارهم وحدة اجتماعية أو جماعة مؤسسة، ذات مصالح مشتركة، وربط هذه المصالح بعمر محدد بحياة [الإنسان] يؤسس بنفسه مناورة بدهية. فينبغي على الأقل شرح الاختلافات بين "الشبابات" أو لكي نمر سريعا بين"الشبابين". مثال ذلك أننا لكي نستطيع المقارنة النسقية بين شروط الوجود وسوق الشغل وميزانية الوقت، وغيرها، لدى "الشبان" الذين هم بالشغل بعد، وبين نظيراتها لدى اليافعين بالعمر (الحيوي) نفسه وهم طلبة، في الضغوط التي لا يكاد يخففها التضامن العائلي والعالم المعاشي الحقيقي، من جهة، وتسهيلات معاش المساعدين شبه اللعبي القائم على التعويض، مع غذاء ومسكن بثمن منخفض، وتذاكر دخول للمسرح والسينما بأثمان رخيصة، وغير ذلك. سنجد اختلافات متناظرة في كل ميادين الوجود، ومثال ذلك أن المراهقين سيّئي الملبس، ذوي الشعور الطويلة جدا، الذين في السبت مساء يصطحبون صديقاتهم الصغيرات على دراجة ذات محرك سيئة، هؤلاء هم الذين يضبطهم الدرك.

بعبارة أخرى، بإفراط من الكلام الباهر نستطيع الانتزاع، تحت المفهوم نفسه، الأكوان الاجتماعية للذين ليس لهم عمليا مشترك. في هذه الحالة ،لدينا كون يفاعة بالمعنى الحقيقي أي عدم المسؤولية الوقتي، فهؤلاء "الشبان" هم بمعنى ما "أرض اجتماعية دون ناس"، فهم كهول في أشياء ،وأطفال في أخرى، فيمارسون أدوارا بالركحين. ولذلك يحلم كثير من اليافعين البرجوازيين بإطالة يفاعتهم: إنها عقدة فريدريك بكتاب "التربية العاطفية" تؤبّد اليفاعة فـ«الشبابان» لا يمثلان غير القطبين، طرفي الإمكانيات الممنوحة "للشبان". وقد كان من الإضافات الهامة لعمل تيفينو (4) أن يبين أن بين المواقع القصوى هذه بين طرف الطالب البورجوازي وطرف الشاب العامل، الذين ليست لهم يفاعة مطلقا، فنجد اليوم كل الوجوه الوسيطة.

سؤال: من أنتج هذه الفصيلة من الاستمرار حيث ما كان اختلاف أكثر حدة بين الطبقات؟ أليس هو تبدل النسق المدرسي؟

– من عوامل تشوش التعارضات هذا بين "شبابات" الطبقات المختلفة أن مختلف الطبقات الاجتماعية انضمت بطريقة أهم للتعليم الثانوي تناسبيا، وإن بدفعة واحدة، ولم يدخل اليفاعة جزء من الشبان (بالمعنى الحيوي) إلى

ذلك الحين، فقد اكتشف هذا المقام الزمني "نصف الطفل" نصف بالغ، وأعتقد أن ذلك واقعة اجتماعية هامة جدا فحتى في الأوساط التي تبدو بعيدة عن الوضع الطالبي بالقرن التاسع عشر، أي بالقرية الريفية الصغيرة، مع أبناء الفلاحين والمحترفين الذين يذهبون إلى الـ CES المحلي يموقع اليافعون ،على مدى طويل نسبيا، بالعمر الذي كانوا فيه بالشغل، بأوضاع شبه خارجة عن الكون الاجتماعي محددة وضع اليافع، فيبدو أن من الآثار الأكبر على وضع اليافع، ما ينحدر من هذا النوع من الوجود المفصول الذي يجعل اليافع «خارج اللعبة اجتماعيا». فالمدارس السلطوية، وخاصة العليا، تموقع الشبان بمنعزلات مفصولة عن العالم بنوع من الفضاءات الرهبانية، حيث يعيشون حياة منشغلين فيها تماما بالاستعداد «للوظائف العليا»، أين يقومون بأشياء مجانية جدا، ومن هذه الأعمال التي يفعلونها بالمدرسة التمارين على بياض. ومنذ بضع سنوات، دخل كل الشبان تقريبا إلى شكل مكتمل، إن قليلا أو كثيرا ،وخاصة طويلا إن قليلا أو كثيرا، بهذه التجربة، التي حتى إن كانت قصيرة جدا أو سطحية جدا كانت حاسمة، لأنها تكفي لإثارة قطيعة عميقة، إن قليلا أو كثيرا، في هذا «المسلم به». إننا نعرف حالة ابن المنجمي الذي رجا النزول إلى المنجم بأسرع وقت ممكن لأن ذلك يعني الدخول في عالم البالغين. (واليوم ،أيضا، من الأسباب التي تجعل يافعي الطبقات الشعبية يريدون مغادرة المدرسة ودخول الشغل مبكرا جدا هو الرغبة في الدخول بأسرع ما يمكن إلى مقام البالغين وإلى القدرات المعاشية المرصودة لهم: أن يكون لهم مال، هامّ لتأكيد الذات أمام الأقران والبنات. ومن ثمة ليكون معترفا به باعتباره «رجلا». إنه من عوامل القلق الذي يوقظ لدى أطفال الطبقات الشعبية التمدرس الممدّد). فالتموقع بوضع «الطالب» يحث أكواما من الأشياء المقومة للوضع المدرسي: لهم حزمة من الكتب محوطة برغيف صغير ،وهم جالسون على دراجتهم ذات المحرك بصدد إغواء فتاة، خارج العمل، وإنهم معفيون بالمنزل من المهمات المادية باعتبار أنهم يدرسون (عامل هام، فالطبقات الشعبية تخضع لهذا النوع من العقد الضمني الذي يجعل الطلاب خارج اللعبة).

أظن أن لهذا الجعل الرمزي خارج اللعبة بعض الأهمية، فهو من الآثار الأساسية للمدرسة، وهو المناورة على الاجتذاب. إننا ننسى دائما أن المدرسة ليست مجرد موضع نتعلم فيه الأشياء والمعارف والتقنيات وغيرها، فهي أيضا مؤسسة تمنح الألقاب، أي الحقوق، وتخول بالدفعة نفسها المبتغيات. لقد كان النسق المدرسي القديم ينتج تشويشا أقل من النسق الراهن بشعب معقدة، وهذا ما يجعل للناس مبتغيات سيئة الضبط بحظوظهم الواقعية، في الماضي، كانت شعب واضحة نسبيا: إذا ذهبنا أبعد من السرتيفيكا ندخل درسا تكميليا، بـ EPS بكلاج أو ليسيه (5)، وهذه الشعب كانت تراتبية بوضوح ولا تشوش بعضها، أما اليوم، فهناك جمهرة من الشعب غير واضحة التمايز وينبغي أن نكون محترسين جدا لتجاوز لعبة خطوط المرأب [في سكة القطار] أو الشباك، وأيضا فخاخ التوجيه والألقاب ذات القيم المتدنية. هذا يساهم في تشجيع تراجع ما في المبتغيات بالمقارنة مع الحظوظ الواقعية. وقد كان الحال السابق للنسق المدرسي يدعم استبطان القوي جدا للحدود، فيدعم قبول الاخفاق أو الحدود باعتبارها صحيحة أو لا يمكن تفاديها. . . مثال ذلك أن المعلمين أو المعلمات كانوا ناسا منتقين ومكونين، بوعي ودون وعي، بطريقة تجعلهم مقتطعين من الفلاحين والعمال، مع بقائهم منفصلين تماما عن أساتذة الثانوي، فعندما نضع بمقام «اللّقيونيّين»، حتى بالتصفية، أطفالا ينتمون إلى طبقات كان دخولها إلى التعليم الثانوي غير ممكن ،يشجع النسق الراهن هؤلاء الأطفال وعائلاتهم على انتظار ما يضمن النسق لتلاميذ «الليسيات» زمن لا دخول لهم لهذه المؤسسات. فالدخول إلى التعليم الثانوي هو دخول إلى المبتغيات التي كانت منخرطة بواقع الدخول بالتعليم الثانوي إلى مرحلة أمامية، فالذهاب إلى «الليسيه» يعنى الاحتذاء، كلبس الجزمات، ومبتغى أي يصير أستاذ «ليسيه» أو طبيبا أو وكيلا أو شاهد عدل، وغيرها من المواضيع التي فتحها «الليسيه» ما بين الحربين. فلما لم يكن أطفال الطبقات الشعبية داخل النسق لم يكن النسق ماهو الآن. وبالدفعة نفسها، هناك تدنى قيم بأثر التضخم البسيط

وبواقع تغير «النوعية الاجتماعية» لحاملي الألقاب. فآثار التضخم المدرسي أكثر تعقيدا مما نقوله عادة، فاللقب له قيمة حامليه، وهو لقب يصبح أكثر الأحيان متدني القيمة، ولكنه يخسر من قيمته أيضا، لأنه يصبح قابلا لدخول ناس «دون قيمة اجتماعية».

سؤال: ماهي نتائج ظاهرة التضخم هذه؟

- هذه الظواهر التي كنت قد سردتها تجعل المبتغيات المنخرطة موضوعيا بالنسق كما كانت بالحال المتقدم، خائبة. فالتفاوت بين المبتغيات التي يحثها النسق المدرسي والحظوظ التي يضمنها واقعيا، هو بمبدإ الخيبة والرفض الجمعيين اللذين يعترضان على الانخراط الجمعي (الذي استدعيته مع ابن المنجمي) بالفترة السابقة، وعلى الخضوع المتقدم للحظوظ الموضوعية الذي كان أحد الظروف المقدرة لحسن اشتغال المعاش. إنها فصيلة قطيعة حلقة مفرغة تجعل من ابن المنجمي يريد نزول المنجم دون أن يطالب نفسه إن كان يستطيع فعله. فمن المسلم به ما وصفته هناك ممّا لا يصلح لمجمل الشباب، فهناك كتل من اليافعين، وخاصة اليافعين البورجوازيين، الذين هم داخل الحلقة كما في الماضي، يرون الأشياء كالماضي، فيريدون المدارس العليا والـ «MIT»، أو هارفارد بزنس سكول، وكل المناظرات التي نستطيع تخيلها.

سؤال: هؤلاء الصبيان بالطبقات الشعبية يجدون أنفسهم في تفاوتات بعالم الشغل. . .

- نستطيع أن نكون جيدين جدا بالنسق المدرسي لنكون مقطوعين بالوسط الشغلي، دون أن نكون جيدين جدا للنجاح في الوصول إلى عمل بالألقاب المدرسية (كان هناك مبحث قديم بالأدب المحافظ عام 1880 يتناول الباكالوريين العاطلين عن العمل، ويخشى بعدُ آثار قطيعة حلقة الحظوظ والمبتغيات والبداهات المضمومة لبعضها). فيمكن أن نكون بائسين جدا بالنسق المدرسي، وأن نشعر بأننا فيه غرباء، وأن نشارك رغم كل ذلك بهذه الفصيلة من «الثقافة الفرعية» المدرسية، بهذه العصبة من التلاميذ، المندمجين بما فيه الكفاية في هذه الحياة لكي يكونوا مقطوعين عن عائلاتهم (هم لا يفهمونها أبدا وهي لا تفهمهم: «الخط الذي كان لهم!»)، ومن جهة أخرى كانت لهم فصيلة من الشعور بالاضطراب، وخيبة الأمل أمام العمل. فهذا الانفصال بالحلقة ينضاف له أيضا، رغم كل شيء، الاكتشاف المبهم، حتى عبر الإخفاق، هو الذي يساهم به النسق المدرسي في إعادة إنتاج الامتيازات.

أظن، كما كتبت منذ عشر سنوات، أن الطبقات الشعبية لكي تستطيع اكتشاف أن النسق المدرسي يشتغل باعتباره أداة لإعادة الإنتاج، فينبغي عليها أن تمر بالنسق المدرسي. إنها في عمقها تستطيع الاعتقاد أن المدرسة كانت «تحررية»، كما يقول الناطقون باسمها، ولكنها بذلك لا تفكر، فلا شأن لها بها إلا بالمدرسة الابتدائية. وراهنا يعالج الاكتشاف بالطبقات الشعبية، لدى الكهول واليافعين، ولكن لم يجد بعد لغته لأن النسق المدرسي عربة امتيازات.

سؤال: . . . ولكن كيف نفسر ما نلاحظه منذ ثلاث سنوات أو أربع نزما للمدني يبدو متعاظما؟

- إن التمرد المرتبك، من مساءلة للشغل والمدرسة وغير ذلك، شامل فيسائل النسق المدرسي في مجمله ويعترض على ما كان تجربة الاخفاق في الحال السابق للنسق (وهو الذي لم يضمحل تماما، دون شك، فما علينا إلا الاستماع للمقابلات: «لا أحب الفرنسية»، «لست مرتاحا بالمدرسة»، وغير ذلك. . .). وهذا ما يعالج عبر الأشكال غير النسقية، إن قليلا أو كثيرا، أو الفوضوية، للتمرد. هذا ما لا ندركه باللفظة المعتادة، فالأجهزة معدة للتسجيل والتقوية. إنها مسألة أشمل وأكثر غموضا، نوع من القلق في الشغل، أمر غير سياسي بالمعنى السائد، ولكن يمكن أن يكونه، أمر يكاد يكون على بعض الأشكال من الوعي السياسي، هي بالوقت نفسه عمياء جدا تجاه بعضها، لأنها لم تجد خطابها، وذات قوة ثورية خارقة للعادة، قادرة على تجاوز الأجهزة، نعيد اكتشافها لدى البروليتاريين الأدنين والعمال من الجيل الأول ذي الأصل الفلاحي. لنفسر إخفاقهم الخاص، ولتحمّله، ينبغي على هؤلاء الناس أن يسائلوا كل النسق، ككتلة

واحدة، أي النسق المدرسي، والعائلة أيضا، التي في صلة جزئية به، وكل المؤسسات، من تعيين المدرسة إلى تعيين الثكنة، من تعيين الثكنة إلى تعيين المصنع. هناك ضرب من اليسارية العفوية يستدعي، علاوة على ذلك، خط خطاب البروليتاريين الأدنين.

سؤال: وهل لذلك تأثير في نزاعات الأجيال؟

- شيء بسيط، لا نفكر فيه، هو أن مبتغيات الأجيال المتعاقبة، مبتغيات الأولياء والأطفال، تتكون بالارتباط بأحوال مختلفة ببنية توزيع الخيرات والحظوظ للدخول في مختلف الخيرات، فما كان للأولياء امتياز خارق للعادة (زمنها لما كانوا في العشرين، على ألف ناس من سنهم ومن وسطهم كانت سيارة واحدة) أصبح مبتذلا، إحصائيا. وكثير من نزاعات الأجيال هي نزاعات بين أنساق مبتغيات مركوزة بأعمارٍ مختلفة فما كان للجيل 1 فتحا على كامل الحياة، أعطي منذ الولادة، مباشرة، للجيل 2. والتفاوت قوي في حال الطبقات التي في انهيار إذ ليس لها أكثر مما كان لها منذ عشرين عاما، في فترة حيث كل امتيازات سنواتهم العشرين (كالسكي وحمامات البحر) أصبحت «مشتركة». فليس بالصدفة أن العصبية العنصرية ضد الشبان (الواضحة جدا في الإحصائيات، حتى وإن لم نعرض شروحا حسب الطبقات) هي واقعة الطبقات التي بصدد الانهيار (كالمحترفين الصغار أو التجار) أو أفراد بصدد الانهيار أو شيوخ عموما. فكل الشيوخ ليسوا مضادين للشيوخ بداهة، ولكن الشيخوخة انهيار اجتماعي أيضا، وخسارة لسلطة اجتماعية، وبهذا الصدوف يشارك الشيوخ برابطتهم بالشبان، وهي من خصائص الطبقات التي في انهيار. بداهة، أن شيوخ الطبقات التي في انهيار، أي التجار الشيوخ والمحترفون الشيوخ، وغيرهم، يضمون بأعلى درجة كل الأعراض، فهم مضادون للشبان، ولكن أيضا مضادون للمثقفين، ومضادون للاحتجاج، فهم ضدّ كل ما يتغير وكل ما يتحرك، وغير ذلك، وإنما لأن ما يملكون من مستقبل وراءهم، لأنهم دون مستقبل، بينما الشبان يتعينون باعتبارهم مالكين لمستقبل، مثلما نعين المستقبل.

سؤال: . . . ولكن هل إن النسق المدرسي هو أصل النزاعات بين الأجيال باعتبار أن بامكانه أن يقرب بالمواقع الاجتماعية نفسها لدى الناس الذين تكونوا بأحوال مختلفة بالنسق المدرسي؟

- نستطيع الانطلاق من حالة عينية. فراهنا كثير من المواقع الوسطى بالوظيفة العمومية أين يمكننا التقدم بالتعلم على الكومة، فنجد بالمكتب جنبا إلى جنب، شبانا باكالوريين أو حتى مجازين، لهم نفقات مرهقة على النسق المدرسي، وناس عمرهم من خمسين إلى ستين عاما، انطلقوا منذ ثلاثين عاما، بسرتيفيكا الدراسات، بعمر من أعمار النسق المدرسي كانت فيها السريتفيكا نادرا نسبيا، والذين بالعصامية والأقدمية وصلوا إلى مواقع الأطر، والتي لا يمكن الدخول إليها إلا لباكالوريين. وما يتعارض هنا، ليس الشيوخ والشبان، وإنما عمليا حالان من النسق المدرسي، أي حالان من الندرة الفارقية للألقاب، وهذا التعارض الموضوعي تعاد ترجمته بصراعات تصنيفات، فلا يمكن القول إنهم رؤساء لأنهم قدامى، فالشيوخ يستندون إلى التجربة المضمومة إلى القدم، أما الشبان فيستندون إلى الكفاءة المضمونة بالألقاب. والتعارض نفسه يمكن أن نجده بالميدان النقابي (كما في نقابة FO للبريديين) تحت صورة صراع بين شبان يساريين ملتحين وشيوخ مناضلين باتجاه قديم هو STIO. ونجد جنبا إلى جنب بالمكتب نفسه، وبالمركز نفسه، مهندسين متخرج بعضهم من الفنون والحرف، وآخرون من المدرسة المتعددة التقنيات، فالهوية الظاهرة للمقام تخفي أن للبعض، كما أسلفنا، مستقبلا ولا يفعلون سوى المرور إلى موقع، هو لدى الآخرين نقطة وصول. في هذا الحال، تكاد النزاعات تعيد إكساء صور أخرى، لأن للشبان الشيوخ (باعتبار أنهم منتهون) كل الحظوظ لاستبطان احترام اللقب المدرسي تسجيلا لاختلاف في الطبيعة. لذلك، في كثير من الحالات، تعاش بنزاعات باعتبارها نزاعات أجيال تنجز في الحقيقة عبر أشخاص أو جماعات عمرية متكونة حول روابط مختلفة بالنسق المدرسي. فبعلاقة مشتركة بحال خصوصي في النسق المدرسي، وبالمصالح

الخصوصية، مختلفة عن مصالح الجيل المحدد بالعلاقة بحال آخر، مختلف كثيرا، بالنسق فينبغي (اليوم) البحث عن أحد المبادئ الموحدة للجيل، أي ما هو مشترك بين الشبان جملة، أو على الأقل بين كل المستفيدين ولو قليلا من النسق المدرسي، إذ انتزعوا منه تأهيلا أدنى. فإجمالا، هذا الجيل مؤهل أكثر للتشغيل المتساوي من الجيل السابق (بين قوسين، يمكن أن نسجل أن النساء، اللواتي بنوع من التمييز لا يدخلن المراكز إلا بثمن انتقاء مفرط، هن على الدوام بهذا الوضع، أي إنهن دائما تقريبا أكثر تأهلا من الرجال الذين بالمركز المكافئ). ودون شك، أنه بقطع النظر عن كل اختلافات الطبقة، للشبان مصالح جيل جماعية، إذ باستقلال عن التمييز «المضاد للشبان»، كانت الواقعة التي لها شأن بالأحوال المختلفة من النسق المدرسي، هي التي تجعل الذين يحصلون دائما على ما أقل من ألقابهم التي لم يحصل عليها الجيل السابق. فهناك سوء تأهيل بنيوي للجيل. وهذا هام لفهم نوع من فك السحر، وهو مشترك نسبيا بكل جيل. فحتى في البورجوازية، جانب من النزاعات الراهنة يفسر دون شك بهذا، بواقعة أن أجل الخلافة يتمدد، كما أحسن بيانه لوبرا (6) بمقالته في **السكان**، إذ أن العمر الذي ننقل فيه الإرث أو المراكز يصبح متأخرا أكثر فأكثر، وأن الأصغرين بالطبقة المسيطرة ينبغي عليهم شد مكابحهم. وهذا، بلا ريب، ليس غريبا عن الاحتجاج الذي نراه بالمهن الحرة (المعامير والوكلاء والأطباء وغيرهم)، وبالتعليم، وغيرها. كما أن للشيوخ مصلحة في رد الشبان إلى الشباب، وكذلك للشبان مصلحة في رد الشيوخ إلى الشيخوخة.

إنّ هناك فترات، حيث البحث في «الجديد»، به يدفع القادمون الجدد (الذين هم أيضا، الأكثر غالبا، الأكثر شبابا حيويا) «القادمين قبلا» إلى الماضي، إلى المتجاوز، إلى الموت الاجتماعي «لقد انتهى»، يتكثف، وحيث بإصابة واحدة تبلغ الصراعات بين الأجيال كثافة أكبر. إنها الأحيان حيث مسارات الأكثر شبابا والأكثر شيخوخة تتصادم، حيث «الشبان» يبتغون «عاجلا» الخلافة. هذه النزاعات تُتفادى طويلا، إلى أن يوفق الشيوخ إلى تسوية درجة سرعة الصعود لدى الأكثر شبابا، أي إلى تسوية آماد العمل وتراتبيته، ومراقبة سرعات العدْو بآماد العمل، وكبح الذين لا يعرفون كبح أنفسهم، هؤلاء الطموحين الذين «يحرقون المراحل»، الذين «يتدافعون» (في الواقع، بأكثر الأوقات، ليسوا بحاجة للكبح لأن «الشبان» -الذين يمكن أن يكونوا ذوي خمسين سنة - استبطنوا الحدود، أي الأعمال المقيدة، أي العمر الذي يمكن فيه «المطالبة الرشدية» بموقع، وليست لهم فكرة الاحتجاج قبل ساعته، قبل أن تحيّن ساعته»). فحين يضيع «معنى الحدود»، نشهد ظهور النزاعات بصدد حدود العمر، الحدود بين الأعمار، التي رهانها نقل الولاية والامتيازات بين الأجيال.

المصادر والمراجع

1) Virtu
2) G.Duby
3) Nancy Munn
4) Thévénot
5) ترجم العرب «Lukeion» الإغريقية: «لقيون» وهي أقرب من الترجمة الفرنسي «Lycée» للأصل الإغريقي.
6) Le Bras

تأسيس حركة الشّباب التونسيّ :
ثنائية النّضال الوطنيّ والمشروع التّحديثيّ

جمال الدين دراويل (*)

مدخل .

أعلنت بدايات القرن العشرين عن ميلاد جيل جديد أغلب عناصره من الدّفعة الأولى من خرّيجي المدرسة التحديثيّة (الصّادقية) التي تأسّست سنة 1875 بفضل جهود إصلاحيي القرن التاسع عشر.

نشأ هذا الجيل وترعرع في الحقبة الاستعمارية وعاين وطأة النفوذ الاستعماري وتغلغله الكامل في المؤسّسات الإداريّة والاقتصاديّة والتعليميّة، وذاق مرارة سيطرته التّامّة على إمكانيات البلاد، ووقف على الآثار الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة المدمّرة للتدخّل الأجنبي وما أدّت إليه من تفاقم التناقض بين أغلبيّة التونسيّين الذين فشا فيهم الفقر والجهل، وتمّ الاستيلاء على أراضيهم الخِصْبَة وضرب تجارتهم وصناعتهم المحلّيتين من جهة، والأقلّية الفرنسيّة والأوروبيّة من المتفوقين (Les prépondérants) من جهة أخرى.

وكان خطاب محمد البشير صفر(ت 1917) في افتتاح تكيّة العجّز بتاريخ 24 مارس 1906 الصّوت الذي عبّرت به النخبة التونسيّة الشّابة التي كان صفر من رموزها، عن وعيها بالحقيقة المرّة، ونقلت من خلاله الاستياء العميق للرّأي العام التونسي من دعوى «الحماية» الزّائفة.

فقد لاحظ صفر، معبّرا عن رأي الشباب التونسي الوطني، بنبرة جمعت بين الاتّزان والحزم «أنّ البؤس عمّ قسما كبيرا من مواطنينا بسبب تدهور تجارتهم وصناعاتهم، وانتزاع أراضيهم والكفّ عن تشجيع اليد العاملة المحلّية» (1)، كما أشار في الخطاب ذاته إلى الأوضاع المتردّية للمؤسسات التعليميّة وبُعْدِها عن مواكبة التطوّرات المعرفية والعلميّة.

وبشّر هذا الخطاب ببداية صدام بين جيل الوعي بمرحلة الانهيار من جانب والسّلط الاستعماريّة الفرنسيّة من جانب آخر، كما عبّر عن إدراك النخبة الفكرية والسّياسيّة التونسية ضرورة الرّد على المشروع الاستعماري، بالعمل

*) جامعي، تونس

على تكوين رأي عامّ يمكّن من تحويل وجهة النّداء من محدوديّة العدد والتأثير، كما لدى إصلاحيي القرن التاسع عشر، إلى تأسيس الوعي القاعدي الذي يشمل سائر الفئات الاجتماعيّة بغاية استنهاضها للدّفاع عن مصالحها الاقتصاديّة والسّياسيّة، والذود عن مقوّماتها الثقافيّة والحضاريّة وصيانة كرامتها الوطنية، عبر الانخراط في معركة التحرّر الوطني، بأن تتجاوز -وعيا وممارسة- مسيرة الإصلاح النّهضوي التي تحرّكت في إطار نظري وعملي محفوف بعوامل المنع والضبط.

ومن ثمّ تغيّر العمل النّضالي لدى هذه النخبة من مجرّد التعويل على مجموعة ضغط بلا أساس شعبيّ إلى مرحلة التشكّل داخل مؤسّسات حديثة تمتاز غالبا بتشبّعها بالمبادئ اللّيبراليّة وبدعوتها إلى الاقتداء بالتجارب الأوروبيّة، وتوظيفها لعناصر التقدّم في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، فتكون روحها الثقافية حداثيّة تقدّمية وغايتها وطنيّـة تحرّرية.

كما أدركت هذه النّخبة أنّ نشاطها الذي غلبت عليه الصّبغة الثقافيّة فيما سبق (جريدة الحاضرة 1888 / الخلدونيّة 1896 / جمعية قدماء الصّادقية 1905)، أصبح يتطلّب برنامجا سياسيّا صريحا ينقل الوعي العامّ من مسيرة الإصلاح النّهضوي بما تختص به من ضيق أفق التفكير ومحدودية التأثير، إلى مرحلة التحرّر الوطني الذي يستوجب انخراط مختلف الفئات الاجتماعية في المعركة التحريرية.

1 ـ تأسيس حركة الشـبـاب التونسي : من الإصلاح إلى التحديث :

يعدّ تأسيس جريدة «الحاضرة» حدثا بارزا في مسار الحركة الفكرية والسياسية التونسيّة الحديثة، إذ هيأت هذه الجريدة الأرضيّة لبروز نخبة انتقالية تطمح إلى إزاحة المعوّقات التي تقف حجر عثرة أمام تطوّر المجتمع التونسي أفرادا وهياكل، والرّفع من قيمة أداء مؤسّساته الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية أمام ضربات التحدّي الاستعماري، وضمّت جماعة الحاضرة الجيل الأوّل من الصّادقيين (البشير صفر/ محمد الأصرم/ علي بوشوشة) إلى جانب التنويريين الزيتونيين من بقايا إصلاحيي القرن التاسع عشر (سالم بوحاجب / محمد السّنوسي) فكانت ملتقى جيلين وتقاطع ثقافتين وجسرا إلى المستقبل.

أدّى نشاط جماعة الحاضرة إلى ظهور عناصر من الشبّان الصّادقيين الذين واصلوا تعليمهم في فرنسا، وأدركوا أنّ الرّدّ على المشروع الاستعماري، والعمل على تحديث مؤسسات المجتمع، أصبح يتطلّب إلى جانب النشاط الذي غلبت عليه الصبغة الثقافية، عملا سياسيا بيّن الأهداف متّزن الخطى.

ولئن قام بعض عناصر الشباب التونسي بمحاولات للتعبير مباشرة عن المطالب الوطنيّة التونسيّة في افتتاح تكية العجز سنة 1906 وفي المؤتمر الاستعماري بمرسيليا سنة 1906، فإنّ صدور جريدة (Le tunisien) الناطقة باللّغة الفرنسيّة بتاريخ 7 فيفري 1907، وإعلانها عن برنامج تسير على هديه، يعدّ الانطلاقة الرّسميّة للحركة التي ظهرت في ظرف تاريخي دقيق، تتجاذبه عوامل السيطرة الاستعمارية من ناحية، وبوادر حركة فكرية وسياسية وطنية ناشئة من ناحية ثانية، كما تزامن تشكّلها مع ظهور عاملين متداخلين.

أوّلهما : ظهور حركات سياسيّة ليبراليّة في بلدان عربية وإسلامية (تركيا الفتاة/ الوفد المصري).

وثانيهما: تحوّل في المشهد السّياسي الاستعماري تمثل في بروز جملة من التنظيمات السياسيّة والاجتماعيّة الجديدة (حزب المعمّرين والفيدرالية الاشتراكية وبعض المنظمات العمّالية).

فرض هذا الوضع على حركة الشباب التونسي معادلة صعبة تتمثّل في النهوض بدور القوّة السياسيّة الوطنيّة المضادّة لنفوذ المؤسّسات الاستعماريّة، ضمن

سياسة التشريك التي تقتضي التحرّك في إطار مؤسسات السلطة الاستعمارية وقوانينها.

على هذا الأساس، عُدّت حركة الشباب التونسي أوّل مجموعة سياسيّة وطنيّة تتكوّن على أساس برنامج سياسي مطلبي شمل المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والتربوية (2).

فعلى الصّعيد الاجتماعي، طالبت باحترام الأوقاف العامّة والخاصّة ودعت إلى حذف ضريبة المجبى التي أثقلت كاهل التونسيين وسنّ قانون أداء عقاري يوظّف على المداخيل بديلا عنها، وتأسيس نظام الإسعاف العمومي والطبّي، وتمكين صغار الفلاّحين التونسيين من اقتناء مقاسم من الأراضي التي كان المعمّرون ينوون الاستيلاء عليها.

وشدّد الشّباب التونسي على ضرورة الاعتماد على اليد العاملة المحليّة في الأشغال العامّة وجعل التعليم الابتدائي مجانيا وإجباريّا في جميع أنحاء البلاد، وتيسير مواصلة المراحل الثانوية والعالية، وإقرار حقّ التونسيين في الدخول إلى كلّ الوظائف الإدارية على قدم المساواة مع الفرنسيين، وبحسب الكفاءة، ردّا على ما كان للمتفوّقين الفرنسيين والأوروبيين من امتيازات، ورفضا للمكانة الدونية للتونسيين.

وعلى الصعيد الاقتصادي طالبت حركة الشباب التونسي بردّ الاعتبار للفلاحة والصّناعة المحلّيتين وتنظيم التعليم المهني والصّناعي لتحسين أداء اليد العاملة التونسيّة ومجابهة المنافسة الأجنبيّة التي ساهمت إلى حدّ بعيد في تدهور القطاعين الصناعي والتجاري.

وفي المجال السياسي، طالب برنامج حركة الشباب التونسي، بمشاركة فاعلة للتونسيين في المؤسسات السياسيّة ضمن احترام الرؤية الحديثة لحقوق الإنسان التي تقضي بحقّ الشعب في المساهمة الفاعلة في تسيير الشأن العامّ.

في هذا الإطار دعا البرنامج إلى ضرورة إصلاح «**العدلية التونسية**» وإحداث نظام قضائيّ مستقلّ عن الإدارة الاستعماريّة على أساس مبدإ الفصل بين السّلطات، دفاعا عن حقوق الأهالي وحماية لمصالحهم من المظالم المسلّطة عليهم بسبب هيمنة الإدارة الاستعمارية وغطرسة المعمّرين (3).

وكذا احتلّت حركة الشباب التونسي موقعا وسطا بين حركة المقاومة الثقافية التي نهض بأعبائها الرعيل الأوّل من خريجي المدرسة الصّادقية يُعاضدُهم من تبقّى من إصلاحيي القرن التاسع عشر وبعض تلاميذهم من جانب، ومرحلة الكفاح السّياسي الوطني العصري، الذي سيتبلور تدريجيّا إثر الحرب العالميّة الأولى مع الحزب الحرّ الدّستوري التونسي من جانب آخر.

2 ـ إصلاح التعليم أو صياغة الوعي الحديث :

مثّل النّظر في المنظومة التعليمية والتربوية، أفكارا ومؤسسات، مناهج وأطرا، أولى أولويات التيار الإصلاحي في القرن التاسع عشر.

ويعدّ تأسيس المكتب الحربي بباردو سنة 1840م والمدرسة الصادقية 1875م والجمعية الخلدونية 1896م، من أبرز الإنجازات في هذا المجال، وعيا بأنّ هذه المؤسسات هي القادرة على تشكيل الوعي النهضوي المنشود وإعداد النخب الجديدة ونحت المستقبل الأفضل.

من هذه المؤسسات، تخرّج لاحقا، أبرز عناصر النخبة التونسية الشابة، التي نهضت بأداء مهمّة مزدوجة تتمثل في الردّ على المشروع الاستعماري من خلال النضال الوطني والبناء التحديثي.

ويندرج مقال البشير صفر «أسباب النجاح» الصّادر بجريدة «الحاضرة» في 22 جانفي 1889، ضمن الدعوة الملحة والمبكّرة من النخبة التونسية الشابة إلى

الأخذ بناصية العلوم والمعارف الحديثة باعتبارها ممرّا إجباريا للدّخول في معترك العصر، إذ «تقود صاحبها إلى الخير وتدلّه على طرق السعادة وتحبّب له العدل، وتقف به عند واجباته، فلا يتنازل عمّا له، ولا يهمل ما عليه، وتبعث بفكره إلى رياض المعالي، ومنازل العوالي، فيجدّ لقطف أزهار السعادة والتبسّط على بساط النعيم» (4).

وشدد صفر، في المقال نفسه، على أنّ انتشار المعرفة الحديثة وشيوع الفكر التحرّري بين التونسيين مطيّة لتشوّف النفوس إلى الحرّية والاستقلال وإحراز الحقوق «إذ تنشط (الشعوب) من عقالها وتطالب بحقوقها، وتفرض إرادتها» (5).

وعلى أساس برنامج واضح المعالم، محدّد الأهداف وضعته حركة الشباب التونسي في عددها الأوّل الصّادر في 7 فيفري 1907، معلنة من خلاله عن النشأة «المنظمة» للحركة، كانت مسألة إصلاح التعليم وتربية الأجيال على عقلية تحررية وروح وطنية، أبرز المحاور والمطالب.

فكان نشر التعليم على أوسع نطاق، وإعادة هيكلة مؤسساته وبرامجه وإعداد القائمين عليه، في مقدمة القضايا «التي يتوقف عليها حياة أو موت التونسيين» (6).

وأبدت حركة الشباب التونسي في برنامجها اهتماما خاصّا بإصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وطالبت بتحديث برامجه وإعادة النظر في هيكلته ليضطلع بالدور المنوط به في عملية التحديث.

وكان علي باش حانبه (ت 1918) ورفاقه من الشبان التونسيين، على وعي تامّ بأن الهدف الأساسي المراد بلوغه من إصلاح المنظومة التعليمية والتّربوية، هو تشرّب الأجيال النّاشئة «روح الفكر الحديث وبثّه في مدارك المواطنين وأفهامهم»(7).

وعبّر علي باش حانبة في أوج الحركة الاضرابية للطلبة الزيتونيين سنة 1910 عن مؤازرته لمطالبهم وفتح جريدة «التونسي» لنشر كلّ ما يتصل بقضيتهم وخَطَبَ في اجتماعاتهم المنعقدة بالجامع، لحفزهم على مزيد النضال من أجل الارتقاء بمؤسستهم وتطويرها (8)، كي تكون قادرة على إعداد متخرّجين ذوي كفاءة عالية وهمّة طمّاحة إلى المعالي، سيعوّل عليهم المجتمع التونسي بعد حين في بناء دولة الاستقلال والحداثة.

وفي ذات المناسبة، بيّن الشيخ عبد العزيز الثعالبي (ت 1944) «أنّ تفشي الجهل يهيء الأرضية الملائمة للظلم والطغيان وأنّ انتشار التعليم يقوّض أركان الاستبداد» (9).

وخلص الثعالبي في كتابه «**روح التحرّر في القرآن**» إلى «أنّ نشر التعليم وتخليص العقلية العربية الإسلامية من شوائب الجهل والأوهام والتعصّب، هو السبيل الوحيدة التي يتسنّى للمسلم عبرها أن يستمدّ العناصر القادرة على تغيير عقليته وتحويله إلى إنسان جدير حقيقة بهذا الاسم، أي إنسان حرّ ومتعلّم ومتأثر بكل ماله علاقة بالإنسانية والرّقي والحضارة»(10).

على هذا الأساس كانت حرية التعليم وإلزاميته وتحديث برامجه ومقرّراته أبرز المطالب التي عملت حركة الشباب التونسي على رفع لوائها من أجل الارتقاء بالتونسيين إلى مستوى الشعوب القادرة على أن تتخلّص من ربقة الهيمنة الاستعمارية وتحكم نفسها بنفسها.

فبناء الشخصية المتحرّرة والعقل المتنوّر كفيلان بتغيير ذهنية الشعب وجعله قادرا على اكتساب الإمكانيات الذاتية للحياة الكريمة والمساهمة في تنشيط الحركة الحضارية، والانخراط القويم في بناء العالم.

والملاحظ أنّ حركة الشباب التونسي التي تعلّم معظم عناصرها في المدارس التونسيّة الحديثة وأتمّوا دراستهم في فرنسا على وجه الخصوص، استوعبت الدّرس التاريخي الذي أفاد أنّ قوّة أوروبا العلمية والصّناعية وما تولّد عنها

من ازدهار اقتصادي وتفوّق عسكري، هي التي أتاحت لها أن تجعل البلاد التونسية في قبضة نفوذها الاستعماري. فما من سبيل أنجع في محاربة الاستعمار الفرنسي، من التغذي بلبان الفكر الحديث والتوسّل بمكتسبات العلم، ضمن إطار اجتماعيّ يعي فيه التونسي، وتعي المؤسسات التربوية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية، الدّور المطلوب في طرق استثمار المعرفة العلميّة نظريا وعمليّا، إخراجا للمجتمع التونسي من السّبات والسلبية وإعداده للبناء والفعل وتحقيق الحياة الكريمة.

3 – حركة الشباب التونسي وتحرير المرأة:

ولّد نشاط جماعة «**الحاضرة**» الذي انطلق في آخر القرن التاسع عشر وبدا «محتشما» في موقفه من القضيّة الاجتماعيّة عامّة ومسألة تحرير المرأة خاصة، حركة سياسية بلغت قدْرًا من النّضج هي حركة الشباب التونسي.

وأصبحت جريدة «**التونسي**» منبرا سياسيا وثقافيا للنّخبة التّونسية الوطنية من خرّيجي المدرسة الصّادقية أو من الجامعات الفرنسية، اتّجه إلى الدفاع عن الهويّة التّونسية والدّعوة إلى مشاركة التونسيين في الحياة السياسية والاجتماعية وتمثيلهم في المجالس النيابية، من أجل استرجاع مكانتهم في بلادهم وأداء الدور المنوط بهم للحفاظ على وجودها.

ضمن هذا التوجّه، أقدمت حركة الشباب التونسي، على معالجة إشكالية تحرير المرأة التونسية على أساس الاتجاه اللّيبرالي الذي تميّز به معظم عناصرها.

وعلى نحو أكثر وضوحًا وجرأة من جريدة «**الحاضرة**» التي ركّزت اهتمامها بالمرأة على مجرّد تنمية قدراتها وتحسين مهاراتها بما يؤهّلها لإدارة شؤون المنزل بكيفية أفضل ممّا عليه المرأة التقليدية، ذهبت جريدة «**التونسي**» إلى ضرورة تغيير الذهنية والوعي من خلال «تربية الزوجات والأمّهات والأخوات على أصول الحياة العصرية درءًا للاعتقاد السّيئ الذي يدعو إلى ترك البنات بعيدات عن المدرسة» (11).

فمسألة تحرير المرأة، ارتبطت لدى النخبة الليبرالية التحديثية المؤسّسة لحركة الشباب التونسي بالوعي الوطني التحرري، إذ أدركت هذه النّخبة أنّ النّجاح في «تربية المرأة على أصول الحياة العصريةمشروع وطني وإنساني... وبذلك نكون بدفاعنا عن تربية البنات المسلمات قد قمنا بتعضيد عمل وطني شريف» (12).

ويتبيّن من الاقتران بين قضيّة تحرير المرأة، وقضية التحرّر الوطني لدى حركة الشباب التونسي، إدراكها أنّ أساس الإشكالية في قضية المرأة هو الوعي بأن تحريرها ممرّ لا غنى عنه لتحرير المجتمع.

وكشف التقرير الذي قدّمه الصّادق الزّمرلي (ت 1983) في مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد بباريس في 10 أكتوبر 1908 عن الحقيقة السالفة، إذ جاء فيه أنّ «المرأة متساوية في الحقوق والواجبات مع الرجل وأنّها مطالبة بأن تتلقّى التربية والتعليم على قدم المساواة مع الرجل، وأرجع الزمرلي تأخّر المرأة إلى التأويلات الخاطئة والمتعسّفة للنّصوص الدينية وإلى العادات المستحكمة التي لبست لبوس الدين وليست من الدّين» (13).

ومن منطلق اعتبار المرأة رمزا للشخصية الوطنية التونسية، وجّه الزمرلي في تقريره نقدا لبرامج التعليم بمدرسة البنات المسلمات، إذ استحوذت الكتابة العامّة للحكومة الاستعمارية على توجيه برامجها وأوكلت إدارتها إلى سيّدة فرنسية جعلت حظّ اللغة العربية والتاريخ العربي الإسلامي ضعيفا بما يؤشّر على اتجاه يقصد إلى مسخ الشخصية التونسية ويقضي على التاريخ الوطني ويدمج السكان عامة والناشئين خاصة في «الوطن الفرنسي» فتكون الهوية فرنسية والثقافة أوروبية غربية، ويسهل على الإدارة الاستعمارية وضع الشعب التونسي في قبضة نفوذه الاستعماري.

بناء على ذلك دعا الشبان التونسيون بشدّة إلى إصلاح عميق لبرامج مدارس البنات وفق أسس تنمّي الروح الوطنية وتحفظ مقوّمات الهويّة وتوجّه البنات توجيها عصريا، يتسنّى من خلاله انخراطهنّ بوعي ومسؤولية في العمل الوطني والبرنامج التحديثي.

4 – الشباب التونسي والمسألة العمالية :

لم تكن حركة الشباب التونسي حركة عمالية أو حزبا يساريا، بل كانت حركة شبابية ليبراليّة في توجهها العام، ذات طابع مطلبي، عملت على أن تكون القوّة المضادة لمؤسسة الحماية الفرنسية التي استطاع المعمرون الفرنسيون إلى حدّ بعيد السيطرة على أجهزتها وتوجيه اختياراتها.

وفي هذا السّياق، عمل الشّبان التونسيون في إطار سياسة التشريك على تأسيس نمط من الكفاح السياسي والقانوني لم يألفه التونسيون من قبل، تمثل في جملة من المطالب التي يتيحها القانون الحديث وتسوّغها منظومة حقوق الإنسان والحريات العامّة، كقضايا الفقر والمجاعة والجهل وانتزاع الثروة من أيدي التونسيين وإسنادها إلى المعمّرين.

ومن ثمّ دعوا إلى تحرير أصحاب الأرض، والعمّال من مختلف مظاهر الاستغلال والعسف من خلال التركيز على الرفع من قيمة أداء اليد العاملة التونسية بـ «نشر التعليم الصناعي والزراعي بين طبقات العملة لأنّ بلادنا يجب أن تكون لأهاليها المرتبة الأولى في إيجاد المصنوعات وغيرها، وبذلك يتأكّد البدء في تهيئة اليد العاملة لمباشرة الاشتغال بالمصنوعات العصريّة» (14).

ومن منطلق الوقوف على عمق الفجوة الفاصلة بين العملة التونسيين الذين سُلّط عليهم الحيف والظلم وفشا في أوساطهم الجهل والفقر والمرض من جهة، والمعمرين الذين كانوا يتمتعون بكل المساعدات ويحظون بمختلف الامتيازات الإدارية والمالية لاقتناء الأراضي الخصبة وإنجاز المشاريع الصناعية في كل جهات البلاد من جهة ثانية، انبرت جريدة «التونسي» تلحّ على «عدم جواز حرمان الأهالي إداريا من الحقوق المدنيّة مثل ممارسة الوظائف العمومية واعتبرت أنّ «منع التونسي من تولّي بعض الوظائف «السامية» في تونس يعني تجريده من حقّ المواطنة والحكم عليه بالقصور» (15).

ففي مقال بعنوان «الاستقراض والعملة الوطنيون» شدّد أحمد الصّافي (ت 1935) على أنّ الأولوية لليد العاملة التونسية في الأشغال العامة، ودعا إلى أنّه يتحتّم على مقاولي الأشغال العامة استخدام العنصر الوطني (16).

وفي سياق الرّد على تهمة عدم الكفاءة التي يتذرّع بها المعمّرون وتستند إليها الإدارة الاستعمارية لإقصاء الموظفين والعمّال التونسيين، أو الحطّ من شأنهم، لصالح التعويل على العمالة الفرنسية خاصة والأوروبية عامة، بيّن الصّافي أنّ تدنّي الكفاءة التونسية ليس حالة طبيعية متأصّلة، بل هو راجع إلى الحرمان من فرص التعليم والتكوين، وأنّ التجربة أقامت الدّليل على «أنّ التونسيين الذين يزاولون الأشغال الزراعية والعمل في المناجم والمعامل، متى وجدوا معلّمين مخلصين ومساعدين، يمرّنونهم، يتعلّمون بغاية السهولة مثل أي فرد من العملة الأوروبيين» (17).

وعالج عبد الجليل الزاوش (ت 1947) في مقال «البروليتاريا الإدارية» مسألة غلاء المعيشة وانخفاض أجور العمال التونسيين مقابل الامتيازات التي يتمتع بها غيرهم من الفرنسيين خاصّة والأوروبيين عامّة.

واستنكر هذا التمييز الذي لا مسوّغ له، ذلك أن العمال والموظفين التونسيين «يؤدون خدمات ممتازة ويقودون باقتدار أعقد الآلات .... إلاّ أن أولئك التعساء لا يتقاضون سوى فرنكين أو فرنكين ونصف في اليوم (18).

وبيّن الزاوش أن هذا التفاوت بين الأقلية الاستعمارية والأغلبية الوطنية، فتح الباب للفرنسيين والأوروبيين للاستيلاء على إمكانيات البلاد الاقتصادية وثرواتها الطبيعية، وأزاح التونسيين عن امتلاك مصادر الثروة الزراعية والصناعية «إذ أصبحنا نشاهد عائلات برجوازية (تونسية) تراجعت مداخيلها، ففوّتت للأوروبيين في مساكنها وأراضيها (19).

وكتب محمد باش حانبه (ت 1920) مقالا بعنوان «l'esclavage» «الاستعباد»، بيّن فيه ما يسلّطه المعمّرون من أنواع النّكاية وأصناف الحرمان والاستغلال على العمال التونسيين، دون أن يسمح لهم برفع أصواتهم والمطالبة بأبسط الحقوق، فالعمال التونسيون «مكمّمو الأفواه دون أدنى مظهر من مظاهر الرأفة والتسامح معهم، وليس لهم منظّمة أو ممثّل يدافع عنهم، يرزحون تحت نير العبودية في أقبح مظاهرها»(20).

كذا يتّضح أنّ المسألة العمالية بما تستوجبه من تحرير الطبقة العاملة التي تمثّل قطاعا عريضا من الشعب التونسي، كانت حاضرة لدى حركة الشباب التونسي، وعيا من عناصر هذه الحركة بأن الحركة العمالية مثّلت في تاريخ حركات التحرّر الحديثة رافدا أساسيا للعمل الوطني، ومقدمة ضرورية لبناء المجتمع الذي قام في العصر الحديث على رفض النزعة التراتبيّة، وعلى حشد مختلف طاقاته ومواهبه -ضمن مفهوم المواطنة- من أجل البناء والإعمار وصناعة التقدم.

خـاتـمـة :

نهضت حركة الشباب التونسي في مطلع القرن العشرين بدور نضالي متمثّل في الرّد على المشروع الاستعماري الذي استهدف تقويض مقومات الهوية العربية الإسلامية لتونس، وإرباك الشعور الوطني لدى الأهالي وامتصاص خيرات بلادهم، ولزّهم إلى السّلبية والخمول.

مقابل ذلك، عمل الشباب التونسي على أن تسترجع الشخصية التونسية توازنها وثقتها بنفسها، وأن تستعيد المؤسسة التونسية حيوتها ونشاطها وترفّع من قيمة أدائها بالاستفادة من منتجات العلم الحديث.

وبالتوازي مع الدور الكفاحي ضدّ المستعمر، قام الشباب التونسي بدور لا يقلّ أهمية، وهو نشر الوعي الحديث وإخراج المؤسسات التربوية والاجتماعية والاقتصادية التونسية من أسر الفكر التقليدي والأساليب القديمة، بغاية امتلاكها القدرة على مواكبة المستجدات ودخول العصر، ضمن رؤية إيجابية تنفتح على العلم الحديث في شتى مجالاته واختصاصاته وتوظّف مكتسباته النظريّة والعملية للنهوض والتقدّم، واستئناف المسيرة الحضارية.

فكان للنشاط الكفاحي والتحديثي للشّباب التونسي في بداية القرن العشرين أثر كبير في نشأة الحركة الوطنية التونسية، ودخول البلاد التونسية منعطف التحديث الفعلي.

وقد أثبتت وقائع التاريخ التونسي الحديث والمعاصر أنّ الشباب، هم المؤهلون -قبل غيرهم- للقيام بالأدوار الصعبة والمهامّ الجليلة التي يعوّل عليها في إحداث المنعطفات الكبيرة والتحوّلات الأساسية نحو المستقبل الأفضل.

المصادر والمراجع

1) انظر المحجوبي (علي) جذور الحركة الوطنية التونسية، بيت الحكمة، تونس 1999 ص 136-137 .

2) الدّقي (نور الدين)، حركة الشباب التونسي، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية تونس، 2005، ص9.

3) انظر «notre programme» جريدة «le tunisien» ; 7 février 1907

4) صفر (البشير)، مقالات في الإصلاح، جمع وتحقيق على العريبي، مركز الاتصال الثقافي، تونس 2004، ص 65.

5) المصدر نفسه ص 72

6) جريدة «التونسي» عدد 1، السنة الأولى نوفمبر 1909، ص 1

7) جريدة «التونسي» 18 أفريل 1910

8) جريدة «التونسي» 9 ماي 1910، ص 3

9) المصدر نفسه

10) الثعالبي (عبد العزيز)، روح التحرر في القرآن، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص 118

11) مقال «تربية البنات المسلمات» جريدة «التونسي» 30 جوان 1910

12) المصدر نفسه

13) ابن مصطفى (خير الله) le mouvement évoluotionniste tunisien. tunis 1958, p17

14) Le tunisien 7 فيفري 1907

15) Le tunisen 13 أوت 1908

16) «التونسي» 26 ديسمبر 1910

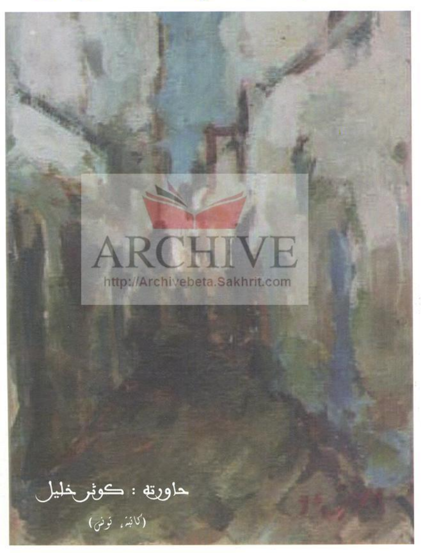
17) المصدر نفسه

18) «التونسي»، 26 جوان 1911

19) المصدر نفسه

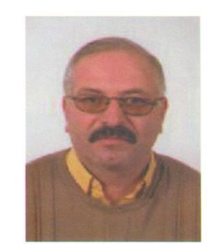
20) مقال «l'esclavage» in Revue du Maghreb. 5 mai 1916, p 86.

لقاء مع رسّام اللّمسة الواحدة، المبدع التّونسيّ محمد الرقيّق



حاورته : كوثر خليل

(كاتبة، تونس)



الرسام محمد الرقيق

يبدو الرسام التونسي محمّد الرقيّق عازفا على قيثارتين، يجمع الرؤية من الداخل ونقيضتها من الخارج. يعشق المدينة العتيقة فيلامسها بريشة طائعة تارة متمنّعة طورا، يحاور الأصالة، يحاول الحداثة. ينبثق بين أصابعه الضوء واللون في حركة موتورة بدءا حتى يتوجه إلى الأعلى البناءُ ورَغَدُ السماء، تُسائله عن هويته فتجده منفتحا على كل هوى، يعشق الألوان هي مبتداه ومبتغاه وفي اللوحة حلبة صراع من الذات إلى الذات إلى الآخر حيث يقوم التبادل على أساس.

ك.خ: الأستاذ محمد الرقيّق، ما علاقتك بالألوان؟

م.ر: الألوان شُغلي الشاغل في الفن، حين أضع الألوان على القماشة يظهر الضوء والظل وكذلك المساحات، اللون هو الذي يوحي بالموضوع بل هو موضوع في حد ذاته وقادر بمفرده على خلق المعنى في اللوحة، فألوان المدينة مثلا هي الألوان الرمادية التي تحمل معنى القِدَم، والمزجُ بين الألوان يُغني المدينة العتيقة بأبعاد جديدة ويعبر عن تاريخها اللامتجانس فكأنّ كل لون يحكي حكاية ويُعمّق فكرة كما أنّ جدلية الظل والضوء تشبه التكامل في الحياة بين مختلف الأضداد.

ك.خ: هل تميل إلى الرسم الساكن أم إلى الرسم الحركي؟

م.ر: أهتمّ بحركة المدينة، حركة المارّة والسوق كما أميل إلى المناطق الساكنة كالسطوح والأزقة الخالية وأفنية البيوت فذلك يُمكّنني من التركيز على الزخرفة والمعمار وتنوع الأشكال من أبواب ونوافذ وقناديل وخزف.

ك.خ: ما هي المدارس الفنية التي تأثرت بها؟

م.ر: تأثرت بالتشخيص في البداية ثم بالانطباعية (سيزان ومونيه) وأميل الآن إلى التجريد فهو يعطي للمتلقي حرية فهم اللوحة حسب مخزونه وثقافته، ففكرة العمل غير المكتمل هي التي تخلق هامش الحرية للرسام لخلق لوحة جديدة كما أن التركيز على التفاصيل الصغيرة يقتل في المتلقي الخيال ويحدّه في جغرافية اللوحة.

ك.خ: ماهي التقنيات الجديدة التي أدخلتها على عملك:

م.ر: أسلوب مزجي للألوان وطريقة وضعي للّطخات تمثل بصمة خاصة بي.

ك.خ: كيف تقدم لوحاتك؟

م.ر: لكل لوحة شخصيتها، هناك لوحة يغلب فيها اللون الأزرق وأخرى الأحمر وأخرى الأخضر فاللوحة القديمة يتماشى معها الأخضر والبنّي وهكذا..

ك.خ: لماذا تستعمل الألوان المتضادة في نفس اللوحة، ألا يعبّر هذا الأسلوب عن ثورة؟

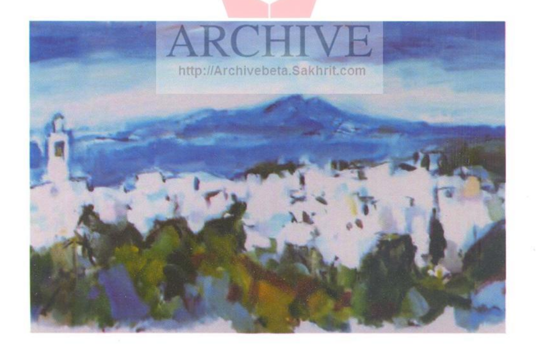
م.ر: أنا لا أرسم دون ان أكون في حالة ثورة ما، حين أرسم الموسيقى أرفع الموسيقى وأضع الألوان بقوة، الثورة فعل حضاري وأنا أتوق إلى التقدم والرقي مع المحافظة على المعمار القديم واستيحاء المُحدَث منه ففيه ذوق رفيع وحِسّ خاص بكل حضارة، والحداثة تُخلق من الأصالة وليس من التغريب وهكذا يتعرف الآخر عليك من خلال بصمتك في التاريخ، فالفن الإفريقي والمتوسطي والإسلامي مطلوب في أوروبا كما أن الحضارة الأوروبية لا تحتاج إلى من يعبّر عنها من أهل الحضارات الأخرى.

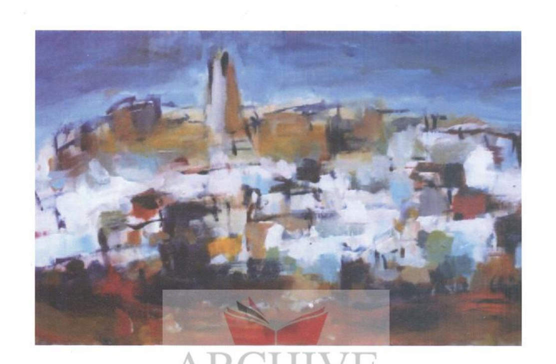
ك.خ: هل استفدت من الفن الإفريقي؟

م.ر: الفن الإفريقي يتقاطع أحيانا مع المتوسطي إلا أنّ ألوانه قوية ولديه تركيز على الرسم الساذج.

ك.خ: أشعر في أغلب اللوحات أن الجزء الأسفل من اللوحة يبدأ بالأشكال المحطمة والألوان الثائرة ومن الأسفل إلى الأعلى تتضح فكرة اللوحة ويصفو اللون فكأنها انطلاقة من اللاشعور إلى الفكرة ومن الغموض إلى اكتشاف الذات.

م.ر: هذا صحيح، في الأسفل أبدأ بالحركة ثم أجد الراحة في الفضاء. نظرا لأنّ موضوعاتي حركية، أهتم بالحركات والأضواء والظلال، هناك تراسل بين مختلف أشكال اللوحة في إطار البحث المتواصل في الذات يظهر في القيم الضوئية المتعددة والألوان المتراكبة. هناك زخم ينطلق من مخلفات العصر ومن الأفق الخَلقي للفنان. أتأثر أيضا بالتلوث والاختناق في المدينة لكن في الأعلى تتنفس اللوحة ويصير اللون انسيابيا.





ك.خ: هل يمكن تقسيم تجربتك إلى مراحل؟

م.ر: تكويني كان في مركز الفنون الحية بـ«رادس» حيث درست الرسم الزيتي والنحت والحفر ولكني في النهاية اخترت الرسم. كنت بدأت إنجاز أعمال عن معمار المدينة والسمات التراثية فيها ثم أقمت سنة في باريس (1995) حيث اهتممت بالمعمار الأوروبي: برج إيفل، قوس النصر، حي مونمارتر، نهر السين، الجسور الممتدة.. تعرفت هناك على الألوان الداكنة بسبب المناخ وعلى الفرق في مساحة الضوء بين بلدي وفرنسا، رسمت كنيسة «نوتردام دي باريس» وهناك أدخلت تقنية الباستيل الزيتي التي هي أسرع من الطريقة القديمة التي تعتمد الألوان الزيتية. لقد اكتشفت في باريس وهي مدينة الفنون تقاليد جديدة في الرسم من خلال المتاحف والفن العالمي ومعارض التحف القديمة.

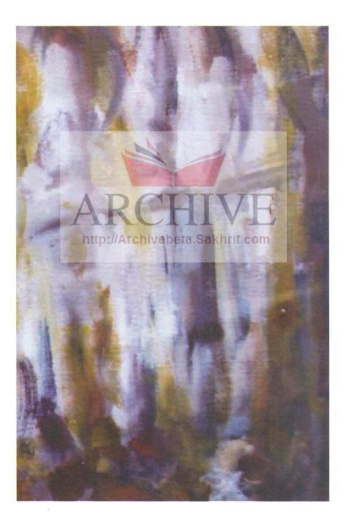
بعد باريس واصلت أعمالي في تونس، دخلت مرحلة التجريد وأقمت سنة أخرى في مركز الفنون الحية بـ«رادس» حيث تحصلت على الجائزة الثانية لاتحاد الفنانين التشكيليين (2003) وأقمت عدة معارض كان أحدها في أسيوط قمت فيه مع مجموعة من التشكيليين بالتعريف بالفن التونسي. وقد تأثرت بالحضارة الفرعونية التي تتميز بفنّ النحت عند زيارتي للمتاحف والأهرامات ومنطقة الأقصُر، وقد وجدت زخما ثقافيا واختلافا في الأسلوب إذ يركز الفنانون المصريون على التراث الفرعوني من جهة ومظاهر الحياة اليومية من جهة أخرى غير أن سوق الفن التشكيلي صغيرة هناك والأروقة قليلة والاهتمام بالأدب أكثر بروزا. وقد أنجزت عند عودتي من مصر بعض الأعمال عن المعمار المصري.

مؤخرا زرتُ الصين ولاحظت تغيرا في الألوان واختلافا في طريقة التعامل مع الموضوع، تأثرت

بالروح الصينية بألوانها الصارخة واكتشفت اللون الأحمر واعتمدته في تجربتي وهو لون التفاؤل لديهم. وأنا أشتغل حسب الفترات منتقلا من التجريدي إلى الانطباعي إلى التشخيصي ولديّ في هذه الأثناء موضوع بحث في كيفية جديدة لتجريد أشكال المدينة سأستخدم فيه الباستيل.

ك.خ: متى ترسم؟

م.ر: لم أرسم منذ ثلاثة أشهر. عادة أعمل من الساعة الثانية بعد الزوال إلى السابعة مساء لأني أحب ضوء النهار لكني لا أرسم في الصباح. أعمل على الباستيل أحيانا في الليل وقد أشتغل من الثامنة ليلا حتى الثالثة صباحا ولكني لا أحب هذا الايقاع لأنه مُرهق.





ك.خ: هل تشتغل وفق برنامج؟

م.ر: أشتغل على لوحات عديدة في نفس الوقت إذ تتخمّر الأفكار بين لوحة وأخرى فأنا أشتغل بتقطع ولا أبدأ اللوحة وأظل عاكفا عليها حتى أتمّها فتطوير العمل يتطلب الذهاب والعودة واللوحة بالنسبة لي فكرة جمالية إشكالية تتطلب معالجة وقد تتطلب محاصرة الفكرة أياما وليالي وكل لوحة قد تعطيك فكرة جديدة أو حَلّا لمعضلة فنية في لوحة سابقة أو لاحقة.

ك.خ: لماذا تركز على المعمار، ألا يكون ذلك هروبا من مواضيع أخرى؟

م.ر: ربما لأني أردت ان أكون معماريا وفشلت. في الصين مثلا يحافظون على التوازن بين المناطق الخضراء والمعمار، أحيانا أودّ لو تكون لديّ حرية إزالة بعض المعمار الذي ليس في مكانه المناسب ويقضي على جمالية المكان. أحبّذ السكون، ربما يكون ذلك هروبا، أنا لا أركز على الأشخاص.

ك.خ: لماذا لا ترسم الجسد؟ لماذا ترسم المرأة التي ترتدي السفساري (الحايك) فقط؟

م.ر: الجسد موضوع يحتاج إلى بحث وهو مبرمج في القادم من الأيام. أنا أرسم السفساري لأنه يخلق جمالية والمرأة التي ترتدي السفساري تتداخل مع التراث، مع المدينة العتيقة في اللوحة ولا تمثل نشازا ثم إن المرأة التي ترتدي السفساري والرجل الذي يرتدي الجبة يخلقان سحرا خاصا.

ك.خ: هل هناك مواضيع محظورة في الرسم؟

فيما يخص الجسد هناك أعمال مرفوضة، يوجد رفض للحركة الجنسية قد تشهد أروقة الرسم الخاصة حرية أكثر في هذا الموضوع لكن ليس في القطاع الثقافي العام. هناك رفض للكاريكاتير السياسي والرمزية السياسية كالكتابة على مواضيع الرسم. أو صور النساء اللائي يرتدين الخمار الأسود.

ك.خ: ما هو اتجاه الرسم في تونس؟

م.ر: التجريد والتحديث هما السمتان الغالبتان ولكن هناك رجوع للتشخيص بسبب عزوف الجمهور عن الرسم التجريدي فالجمهور متشبث بأسماء قليلة معينة مثل عمار فرحات، القرجي، زبير التركي، محمود السهيلي، رفيق الكامل، عادل مقديش والجمهور يحبّذ الرسم الاستهلاكي الذي يميل إلى الصناعة التقليدية أكثر منه إلى الخلق فَرُوحُهُ تقليدية تحب الزخرفة في المعمار والبورتريه.

ك.خ: من هم أبرز النحاتين في تونس وما رأيك في النحت؟

م.ر: يتطلب النحت الوقت والمساحة ولا يؤمّن مردودا ماديا، من أهم الأسماء في تونس: زبير التركي، الهاشمي مرزوق، بشير الزريبي، الصحبي الشتيوي، عبد الحميد الحجام.

ك.خ: هل هناك سوق للفن التشكيلي في تونس؟

م.ر: السوق غير منظمة والجمهور لا يتابع الفن التشكيلي فالمتابعة تخول له اختيار الأعمال الجيدة والتي يكون لها مستقبل وهناك جمهور يشتري أعمالا غير جيدة بأسعار باهظة فهو في الغالب يشتري الأسماء المعروفة واللوحة لديه استثمار وليس متعة جمالية فمن يمثل اليوم اسما قد لا يكون كذلك بعد خمسين عاما. فيما يخصّني أقتصر على لجنة الشراءات وبعض المبادرات الفردية لعدم اتجاهي إلى الأروقة الخاصة في الوقت الحاضر.

ك.خ: ما هو دور الأروقة الخاصة؟

م.ر: دور الأروقة ليس التعريف بالفنان بل أساسا خلق سوق للأعمال الفنية لكنها لا تلعب هذا الدور بل صارت تتجه إلى وزارة الثقافة في حين أن على الرواق الخاص البحث عن المقتني وزيادة نسبة الربح المئوية للفنان وعليه أن يقوم بالإشهار لأعماله وهذا غير متوفر كما ينقص الأروقة المواظبةُ على العمل فالأروقة تعمل بصفة متقطعة وهذا يُبعد الجمهور عنها.

ك.خ: هل كان لطفولتك دور في تشكيل تجربتك؟

م.ر: كنت أرسم منذ الطفولة والنظام التعليمي القديم لم يكن يشجع الفنون ولم يكن يحفز أصحاب الطاقات الجمالية فتقدير العمل الفني ثقافة تقع تربيتها منذ الصغر واللوحة تكمّل الإنسان. الرسم طريقة تعبير عن الذات واللوحة وعاء المشاعر والأحاسيس والأفكار وهو أسلوب للهرب من اللافهم ومختلف أشكال العنف الموجود في المجتمع.

ك.خ: لو لم تكن رساما؟

م.ر: ربما كنت بائع أبقار (ضاحكا) لا أتصور نفسي غير رسام، كنت أفضّل أيّ نوع آخر من الفنون لكنني لست بارعا فيها. ربما أفكر في التجارة لكن مزاجي الفني يمنعني من فعل شيء غير الرسم.

ك.خ: ما هي الفنون التي تؤثر فيك وما رأيك في المنتوج الثقافي التونسي؟

م.ر: أحب الموسيقى الصينية والتونسية والفرنسية القديمة والمعاصرة فأنا لست ضد التطور ومحبّ للتنوع لكني أكره الأغاني الصاخبة.

أحب السينما خاصة فيلم «عصفور سطح»

و«السيدة» والحقيقة أن الأفلام التونسية الجديدة لا تمثل الثقافة التونسية وهي تقدم مواضيع لا تهمّ التونسي رغم أنها تجد الدعم أفضل من الأفلام القديمة. يقول الكثيرون إن هناك أزمة نص ولكن السينما التونسية لا تتناول مثلا النصوص الروائية التونسية كنصوص محمود المسعدي وغيره من الروائيين المُهمين بسبب رفض المخرجين إعطاء الحقوق المادية للكتّاب أو وَرَثتِهم فهذا هو السبيل الوحيد لتتصالح السينما مع جمهورها ولتصل إلى العالمية وإلا فستظل متأخرة ومفتقرة للموضوع.

بالنسبة للمسرح التونسي: أظن أن عرض الممثل الواحد «وان مان شو» غير ناجح فنيا وإن نجح جماهيريا وإذا كان هذا الأسلوب الفني مرحلة انتقالية لجمع المال وصنع مسرحيات حقيقية في المستقبل فذلك جيد أما إذا واصلنا على هذا المنوال فلن يكون لدينا مسرح بعد عشر سنين. لكن لا يمكن نفي تجارب مثل مسرح فاضل الجعايبي، مسرح فو، مسرح محمد الجبالي..

ك.خ: ماذا أضاف لك الرسم على المستوى الإنساني؟

م.ر: يبرز الرسم المشاعر الإنسانية، يطوّر، يهذّب، ويصنع ذائقة خاصة. لا أظن أن شخصا خبيثا يصنع لوحة، ربما ستكون سوداء.

ك.خ: لمن ترسم؟

م.ر: أرسم لنفسي أولا، الفنان يرفه عن نفسه قبل أن يرفه عن الآخرين. ماذا لو قام كل المغنين بإضرابات وامتنعوا عن الإنتاج؟ سيقع بث التساجيل القديمة وهكذا يصير القديم جديدا وبعد مدة تبلى التسجيلات ولكن حين تتراجع الأروقة ويعزف الناس عن الرسم ليس على الرسام أن يتوقف حتى وإن لم يوجد من يموّل عمله.

ك.خ: هل عندك طقوس في الرسم؟

م.ر: حين أرسم أتكلم مع اللوحة وأناقش تفاعلات الألوان والصور والإشكاليات الجمالية التي تطرأ عند الرسم بصوت عال ولا أرسم على رافعة لوحات بل على طاولة كبيرة وهكذا أرى علاقتي باللوحة.

ك.خ: ماهي أحسن عاداتك؟

ركوب الدراجة والمشي.

ك.خ: وأسوأ عاداتك؟

م.ر: النوم باكرا.

ك.خ: ما رأيك في؟

الحرية: لا بُدّ منها، لكن هناك سقف لكل شيء فليس علينا أن نطالب بما يوجد في أوروبا فنحن لسنا أوروبا ولكل بلد تاريخه.

الديمقراطية: لا أفهمها حقيقة، لا أقدر على تفسيرها. الانتخابات؟ العدل؟ لا بدّ منها لكن هناك من الناس من لا يقدمون الكثير ويطالبون بنفس الامتيازات كما أن العدل بين المناطق يخضع لأسباب تاريخية.

المركزية: العاصمة تظل عاصمة ومن يريد أن يأتي فمرحبا به.

ك.خ: لماذا لا نُخرج الناس العاديين ونقصرها على الفنانين فقط ؟

م.ر: حينها تصير صحراء.

الجيل الجديد من الرسامين: موجودون، عليهم بالمواصلة، ينقصهم الدعم ولكن من الطبيعي أن لا يعتمدوا على الرسم كمصدر للرزق، أغلبهم لا يفضل خدمة التراث بل يحبون التحديث، يهتمون بالتدريس غالبا ولا يواصلون هذا الطريق الشاق.

التسامح: الصراعات الدينية لم تكن موجودة من قبل بهذه الحدّة، هناك فراغ في التفكير والهوية استغلته وسائل الإعلام كما أن العقلية المادية صارت هي

الطاغية، العالم صار يهاجم الإسلام لأنه دين الاعتدال ولأنه يحرّم الأشياء التي تشكل ضررا على الإنسان وفي هذا ضرب للاقتصاد العالمي.

الزواج والعائلة: الاستقرار ضروري ولكني أؤمن بالحظ في الزواج.

جيل اليوم: غير مستقل، يعتمد على أبويْه ويظل كذلك حتى عمر متقدم، لا يحب العمل ومتعود على الأخذ، في الأغلب.

التراث: يعطينا نَفَسًا جديدا وهو الذي يُسبغ الروح والبصمة على العمل الفني لأنه مصدر الإلهام.



قراءة في كتاب : «في سيرة جرير وشعـره» لأحمد الخصخوصي : الهجـاء عند جريـر مدخلا للقـراءة السّـاخـرة

علي البوجديديّ (*)

صدر كتاب : **في سيرة جرير وشعره**، للدّكتور : **أحمد الخصخوصيّ (1)**، ضمن سلسلة **كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة جامعة تونس (2)**. وهذا الكتاب الذي نتناوله بالتّقديم، ونعرضه على القارئ الكريم يهتمّ بعلم من أعلام الشّعر العربيّ القديم هو **جرير بن عطيّة الخطفيّ (حذيفة) بن بدر** (توفّي سنة 110 للهجرة). وقد حبّر الباحث كتابه هذا على فترات متفاوتة، ونشر أغلب فصوله بحوليّات الجامعة التّونسيّة، فكان صفوة زمن أمضاه يعاشر نصوص **جرير** ويقرأ سيرته قراءة المتأنّي فكانت صدى نفسه ورجعها **(3)**. وقد جعله صاحبه في أربعة أبواب، وفصل تمهيديّ وخاتمة، وذيّله بفهارس متنوّعة ثريّة تفيد الباحث المتأنّي، والطّالب المتلبّث.

وقد عمد الباحث إلى نظام مخصوص من الإحالات والحواشي التي جاءت دقيقة ثريّة بالجداول الإحصائيّة والنّسب المئويّة، وهي جداول تنمّ عن طول معاشرة لنصوص **جرير** ومقارنتها بنصوص **الفرزدق والأخطل**، ولذا فلا غنى عنها، لأنّها بمثابة التّوسعة لنواة النصّ الأصليّة.

وقد استنّ الدّكتور **أحمد الخصخوصيّ** منهجه بالاستناد إلى النّصوص والعودة إليها دون جفاء ولا قطيعة، أو تنكّر لما يحفّ بالنصّ من أخبار ونصوص تنير النصّ ولاشكّ، وتكشف عن مقاصد الشّاعر من قوله الشعريّ. وهذا المنهج قد أثبت جدارته وجدّته وطرافته، رغم ذهاب العديدين إلى أنّ النصّ وحده بُغية الدّارس، وأنّه وِحدَة مغلقة لا تحتاج إلى غيرها لتقرأ.

إنّ تجربة الباحث قد كشفت لنا من جديد أنّ القضيّة لا تزال رهن الدّرس، وأنّ الأمر لا يُبتّ فيه بمثل هذا اليسر والجزم القاطع، ولذلك كلّه رأى مقدّم الكتاب الأستاذ **محمّد اليعلاويّ** أنّ «التّعريف **بجرير** وعصره وخصومه وخصائص شعره، هو من حسنات **أحمد الخصخوصيّ** يسدّ ثلمة، ويستدرك حيفا وينصف مظلوما» **(4)**.

*) باحث، تونس

لقد خصّص الباحث فصله التّمهيديّ في سيرة **جرير** وآثاره. وقد عدّ فيه **جريرا** من الشّعراء الثّلاثة الأعظم شأنا زمن الأمويّين. بل يتبيّن لدارس شعره أنّنا «أمام خلَف أصيل للشّعراء البدو والقدامى، بما في كلّ إنتاجهم من مظاهر الجودة ومواطن الضّعف» (5).

وقد عرف **جرير** بشظف العيش، فكان «شكس الطّبع حادّ المزاج نزّاعا إلى الجدال ميّالا إلى الخصام» (6). كما اشتهر بميله الفطريّ إلى المجادلة ونزوع نفسه إلى الخصام، وهو الذي قيل عنه قديما إنّه «جرو هراش» (7).

وكان جرير كما رُوي عنه : «ينهشه أكثر من أربعين شاعرا، وكان ينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحدا واحدا» (8). ولذا فالمتتبّع للمصادر الأدبيّة التي عرض لها الباحث يلاحظ أنّ الاهتمام بشعر **جرير** وسيرته «لم ينقطع على مرّ الحقب الزمنيّة المختلفة، وإن كان الاهتمام به متفاوت الدّرجات من حين لآخر» (9).

وتناول الباحث بالدّرس في الباب الأوّل النّسيب عند **جرير** في مبناه ومعناه. بينما عالج في الباب الثّاني غرض المدح، فاهتمّ باتّجاهات المدح عند جرير، موجّها الاهتمام كلّه إلى صورة **جرير** المادح المتكسّب، وصورة المادح المعجب بممدوحه.

وخصّص الباب الثّالث من أبواب الكتاب لدراسة الهجاء عند **جرير** كاشفا عن دلالاته وأبعاده، مهتمّا بمعاني الحمق في قصائد **جرير** الهجائيّة. والحمق مبحث أثيل عند **الخصخوصيّ** درسه وفصّل فيه القول في دراسة مفردة. كما لم يفته أن يتناول أثر هجاء **جرير** في مهجوّيه من خلال نقائض جرير والفرزدق وجرير والأخطل.

وعن اختياره للحمق في أهاجي جرير، يقول **الخصخوصيّ** في خاتمة كتابه، مبرزا دواعي ذاك الاختيار : «وقد اخترنا معنى واحدا من معاني الهجاء، وهو الحمق وما يدخل في حقله من الدّلالات المختلفة، وحاولنا تقصّي المدى الذي وصل إليه هذا العنصر والصّور التي خرج فيها المهجوّ فردا كان أو جماعة» (10).

وهكذا يكون الحمق عنصرا لازما مهيمنا، وسمة أسلوبيّة، لأنّه اخترق «بمضامينه السلبيّة أنسجة الحقول المتباينة سواء منها ما اتّصل بالشّكل والهيئة والأعمال وردود الأفعال، أو ما تعلّق بالحسّ والإدراك والذّوق والأخلاق والعقيدة» (11).

وربّما بدت القصيدة الهجائيّة لهذا وغيره مكمن إبداع **جرير**، أطال فيها وسخر، بل «تهكّم في ثلبه، وتهزّل على طريقته التي لخّصها قائلا : إذا هجوت فأضحك» (12). ولقد نجح الباحث في الكشف عن مكامن أدبيّة قصيدة الهجاء عند **جرير**، الذي قال عنه : «لم يترك موضعا حسيّا دقيقا إلاّ نفذ إليه فوصفه كشفا وقوّمه فضحا، ولا محلاّ معنويّا حسّاسا إلاّ سرّب إليه وصفا لاذعا وتعبيرا مؤذيا» (13).

ويخلص الباحث، وهذا مكمن من مكامن طرافة البحث، وجدّة التّناول، إلى نتيجة هامّة جدّا، حين عدّ عنصر الحمق «يقوم في غرض الهجاء عند **جرير** مقام البنية المركزيّة المصغّرة لمعاني المهجوّ، ويمثّل النّواة الجوهريّة لأساليبه في هذا الغرض المخصوص» (14).

ومن هنا حاول أن يستخلص من خلال دراسة أهاجي جرير، أهمّ الوسائل الأسلوبيّة والمعجميّة المستخدمة، وذلك «ليقصي خصومه استخفافا وتحقيرا وإزراء، ولاشكّ أيضا في أنّه استثار المعاني الهجائيّة من مراقدها بحثا ونبشا فعيّر شانئيه بوضاعة النّسب ووصمهم بمستقبح الأفعال ومستهجن الأخلاق» (15).

ومن مظاهر السّخرية في هجاء **جرير**، وهو مبحث وددنا لو أولاه الباحث عناية لما يساعد على استكناه أدبيّة القصيدة الهجائيّة عند **جرير**، ما نجده من وصف اضطراب وتشوّهها خلقة المهجوّ، فهو غليظ الخلقة، قصير القامة والرّقبة، أمّا بدنه فقصير الأطراف، يقول **جرير** في وصفه ذاك : [**الطويل**]

لَقَـدْ وَلَدَتْ أُمُّ الفَـرَزْدَقِ فَاسِقًا
وَجَاءَتْ بِوَزْوَازٍ قَصِيرُ القَوَائِمِ

بل هو نحيف الهيكل، دقيق العظام، بادي الضّلوع، يقول في هذا الصّدد :

أَخُو البُؤْسِ أمّا ما بَدَا مِنْ عِظَامِه
فَبَادٍ، وأمّا مُخُهُنَّ فَـرِيرُ

ولئن ردّ الباحث هذه الصّفات، إلى لوازم الحمق، فهي عندنا من تجلّيات الخطاب السّاخر القائم على آليّة التّحقير والتّشويه الخِلقيّ، يقول **جرير** في وصف مجاشع: [الطّويل]

وَيُفَايِشُونَكَ والعِظَـامُ ضَعِيـفَةٌ
والـمُخّ مُمْتَـخَرُ الهُـنَانَةِ رَارُ

كما يُوصف المهجوّ من خلال قصائد **جرير**، فيلفى «ضخما ثقيلا عريضا منتفخ الجنبين كبير البطن كثير اللّحم» (**16**). وأمّا صورة المرأة، فهي عنده «كثيرة اللّحم مسترخية» (**17**). وإن كان ذلك دالاّ عند الباحث على الحمق، فإنّه إلى ذلك قائم بلاغيّا على التّضخيم والتّصوير الكاريكاتوريّ (**18**) ، وهما من أبرز آليّات السّخرية الأكثر اِستخداما. يقول **جرير** مستخدما في ذلك التّصوير الكاريكاتوريّ السّاخر : [الوافر]

مَتَى تَغْمِـزْ ذِرَاعَ مُجَاشِعِـيٍّ
تَجِـدْ لَحْمًا ولَيْسَ على عِظَامُ

ففي هذا الرّسم الكاريكاتوريّ تشويه لذراع المجاشعيّ، ومسخ كاريكاتوريّ يتحوّل معه جسم المهجوّ ضخامة وقبحا، بل يصير كتلة لحم، فينتفخ «جوفه ويكثر لحمه، ويبين ثقله وثقل حركته، ويظهر بطؤه ويضعف نشاطه» (19). وهي ملاحظة دقيقة دعّمها الباحث بأمثلة كثيرة تمّت عن معاشرته لنصوص المدوّنة المدروسة، وتأمّل لا يخفى على باحث خبير بوعث أرض جرير ومسالكها الوعرة، وشعابها الملتبسة.

وهكذا تضافرت عناصر تركيبيّة ونحويّة وبلاغيّة وإيقاعيّة عديدة وتآلفت «وتكاملت لتكسب شعر **جرير** اِنتشاره وتمنحه سيرورته التي أقرّ بها خصومه فضلا عن سائر معاصريه، وتجعله يخترق أنسجة العهود المختلفة، على اِمتدادها وتباعدها، بقاء ودواما» (**20**).

وكانت وقفته في الباب الرّابع مع **جرير** بين المحافظة والتّجاوز من خلال تسليط الضّوء على مراثي جرير، وعلى أثر القرآن في شعره، وقد كان للقرآن أثر بالغ في إنتاجه الشعريّ، إذ اِستمدّ من النصّ القرآنيّ «قدرا لا يستهان به من العناصر المعنويّة والصّور البلاغيّة والأشكال التّعبيريّة بعد أن اقتنع بمحتواه وأعجب بمعانيه الصّريحة منها والحافّة وافتتن بأسلوبه لاسيّما، وقد اكتشف في كلّ ذلك مجالا مواتيا اِفترصه اِفتراصا ذكيّا وألفى فيه حقلا فسيحا اِقتطف معانيه المدحيّة والفخريّة والهجائيّة، واقتبس من صوره ما أبرز به ممدوحيه ووسّع على نفسه، وضيّق على خصومه» (21).

وما هذه المحطّات التي، وإن بدت متباعدة، إلاّ منارات رام الباحث أن يسلّط من خلالها بعض الضّوء على جرير وشعره، شاعر قال عنه بعض المستشرقين هو: «أحد شعراء الهجاء الثّلاثة الأعظم شأنا زمن الأمويّين. ويمكن أن يعتبر واحدا من أعظم الشّعراء العرب المسلمين على الإطلاق» (22).

وربّما يحصل قارئ هذا الكتاب لهذا وغيره على متعة القراءة، واستكشاف تراث شعريّ قديم بروح الباحث الأكاديميّ المتأنّية الصّبورة.

الهوامش والإحالات

1) أحمد الخصخوصيّ باحث جامعيّ مختصّ في الأدب القديم، صدر له : الحمق والجنون في التّراث العربيّ من الجاهليّة إلى أواخر القرن الرّابع، طبعة 1، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، 1993. إضافة إلى مقالات عديدة بحوليّات الجامعة التّونسيّة وبالكرّاسات التّونسيّة.

2) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، تونس، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة جامعة تونس، 2007.

3) وهذا الكتاب كما يقول صاحبه عنه : «هو في الأصل عبارة عن مجموعة بحوث نشرت متفرّقة. وقد جمعناها لاحقا، في إطار عمل أكاديميّ». أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، ص 27.

4) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 13.

5) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 38.

6) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 238.

7) أبو الفرج الإصبهاني، كتاب الأغاني، طبعة 6، بيروت، دار الثّقافة، 1983، ج 8، ص 32.

8) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 17.

9) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 20.

10) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 323.

11) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 324.

12) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 324.

13) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 324.

14) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 325.

15) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص ص 167، 168.

16) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 176.

17) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 176.

18) علي البوجديديّ، السّخرية في أدب علي الدّوعاجيّ : تجلّياتها ووظائفها، طبعة 1، تونس، دار الأطلسيّة للنّشر، 2010. ص ص 208، 218.

19) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 176.

20) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 329.

21) أحمد الخصخوصيّ، في سيرة جرير وشعره، طبعة 1، ص 330.

22) أ. شاد. أ. كاتج، «فصل جرير»، طبعة 2، دائرة المعرف الإسلاميّة.

أسئلة الدّراما العربيّة
من خلال مغامرة رأس المملوك جابر
لسعد الله ونّوس

محمّد الغزي (*)

تنهض هذه القراءة على محورين اثنين في المحور الأول سنتناول بالدّرس العتبة التي تتصدّر المسرحية والموسومة «بهوامش للعرض والاخراج».

أمّا في المحور الثاني فسنَستطْقي أهمّ خصائص المسرحيّة الفنية والدّلاليّة.

وقد انطلقنا في قراءتنا من العتبة واستقراء دلالاتها لاعتقادنا أنّها تسْهم في استجلاء غوامض المسرحيّة، وفَضّ مغالقها. فهي من النصّ المسرحي بمثابة المقدّمة التي تكشف عمَّا استسرَّ من معانيه، وما أشكل من رموزه. والواقع أننا حاولنا، من خلال هذين المحورين، أن نُصغي إلى نبض النص، ونستقرئ، أهمّ أسئلته فمن أخصّ خَصائص مسرح سعد الله ونّوس بحثُه عن أفق للكتابة مغاير، أفق يضَعُ كلّ شيء موضع مساءلة. فالمَسرحُ، في نظر ونّوس، أكثرُ من فرجة تنتهي بانفضاض المشاهدين عن القاعة بعد أنْ تطهّرت أرواحهم من الانفعالات. المسرحُ في نظره خطاب يثيرُ سؤالاً ويخلقُ انتظارًا.

يفتتح مؤلّف سعد الله ونّوس «مغامرةُ رأس المملوك جابر» بنصّ نظريّ موسوم بـ «هوامش للعرض والإخراج». وهذا النّص، كما يشيّرُ إلى ذلك العنوان، ينطوي على جملة من الملاحظات تُوجّه طرائق عرض المسرحيّة، وأساليب إخراجها. فما يشُدّ اهتمام سعد الله ونّوس ليسَ النصّ مفردًا وإنما «العرضُ» الحيّ، حسبَ عبارته، وهذا العرض هو عبارة عن بناء معقّد تدخل في تركيبه نُظُمٌ علاميّة شتّى، تعمل كلّها بشكل عضويّ، على إنتاج دلالته. فالعرض المسرحيّ لا ينهض على الدوالّ اللّغوية فحسبُ وإنّما ينهض على دوالّ غير لغوية أيضا مثل الموسيقى والأضواء وقطع الدّيكور. هذه الدوالّ تنخرط، على اختلاف طبائعها، في حوار يؤلّفها بعد اختلاف ويجمعُها بعد افتراق.

*) جامعي، تونس

ما هو مضمون هذه الهوامش التي أصرّ سعد الله ونّوس على تنزيلها منزلة المقدّمة من الكتاب؟

ذلك هو السؤال الذي نَنْشُدُ الإجابة عليه في ما يلي من فقرات.

1 ـ دلالة مسرح التسييس :

نسب سعد الله ونّوس مسرحيّته «مغامرة رأس المملوك جابر» إلى ما سمّاهُ «بمسْرح التسييس» الذي يختلفُ، في نظره، عن المسرح السّياسي اختلافا بيّنا ولئنْ تنكّب الكاتب، في هذا التّصدير، عن إبراز الفوارق القائمة بين هذين المسرحين فإنّنا نستطيع، بالعودة إلى تاريخ المسرح الحديث، أنْ نُحدِّدَ أهمَّها.

والمسرح السياسيّ، كما استتبّت مقوّماته مع بسكاتور، هو مسرحُ الشحْن والتّحريض يجعلُ النّصّ بالبيانات المسرحيّة أوثق صلةً. أمّا مسرحُ التّسْييس فهو مسرح الحوار ينعقدُ بين الممثّلين والجمهور لا سلطة فيه إلاّ لسلطة الوعي الذي يتحرّر ويعلّم التحرّر على حدّ عبارة جابر عصفور.

المسرح الأوّل يَدّعي تقديم حُلولٍ لجمهور ينتظرها ويتوق إليها، أمّا مسرح التسييس فهو مسرحُ الأسئلة تستَدرج المشاهد إلى وضع الواقع المألوف موضع نظر وتأمّل. المسرح السياسيّ إمْعان في استلاب المتفرّج، وفي الاستحواذ على وعْيِه ولاَ وعيه في آن، أمّا مسرح التّسييس فهو مسرح الجدل ينعقدُ بين رؤى فكريّة وفنيّة ابتغاء الظّفر بإجابة ممكنة على أسئلة اجتماعيّة وسياسيّة حارقة. بعبارة أخرى نقول، مستأنسين بلغة ونّوس، إنّ مسرح التّسييس هو المسرح الذي يدفع المتفرّج إلى كسْر محارتِه، ويُوقظ انتماءهُ إلى الجماعة، فيخرجه من كآبة وحدته، ويشبعُ جوعه للحوار.

ومن أهمّ خصائص هذا المسرح إلغاء المسافة القائمة بين الخشبة والقاعة، بين إيقاع الفنّ وهدير الحياة.

فالخشبة، في هذا المسرح الجديد، لم تعد منفصلة عن القاعة، ملفّعةً بالسحر والغموض. الخشبة، في هذا المسرح. اتّسعتْ لتشمل القاعة كلّها، والقاعة تمدّدتْ، من جهتها، لتستغرق الخشبة بكلّ ما تحويه من عناصر ومفردات. فالكلّ باتَ ممثّلا، والكلّ باتَ متفرّجًا فالحدث المسرحي احتفال، وفي هذا الاحتفال لا يكتفي الفَرْدُ بالمشاهدة والنّظر وإنّما يتحوّل إلى شريك يتواطأ مع الممثّلين في إنجاز العمل الدّرامي.

فكرة هدم الجدار الرّابع الذي كان يفصل الممثلين عن الجمهور ويقيمُ بينهما حاجزا سميكا لا يُمكن تجاوزه استَلْهَمَها سعد الله ونّوس من المسرح الملحمي.

فهذا المسرح ألغى ثنائية الخشبة والقاعة ودعا إلى تشكيل فضاء واحد للعرض والاحتفال.

ومن أهداف هدم هذا الجدار:

ـ كسرُ الإيهام بواقعيّة الأحداث**:** لقد ظلّ المسرح، إلى وقت قريب، قائما على الإيهام، الإيهام بواقعيّة الأحداث. إذ كانت إستراتيجيته تتمثّل في استدراج المتفرّج إلى تصديق الأحداث التي تجري أمامه. وكأنّ الخشبة جُزءٌ من الواقع، والمسرحيّة امتدادٌ لحياة. والغاية من تحطيم الجدار الرّابع كسرُ هذا الإيهام وتذكير المتفرج بأنّه يُشاهد عالما متخيّلا.

ـ **درءُ الاندماج مع شخصيات المسرحيّة:** إنّ كسر الإيهام بواقعيّة الأحداث يُفضي بالضّرورة، إلى اتّقاء المشاهد التعاطف مع شخصيّات المسرحيّة والاندماج معها ومن ثمّ يستعيدُ القدرة على تأمّلها تأمّلا فاحصًا. فإذا كانت الدّراما الأرسطيّة تسعى إلى إقناع المتفرّج بأنّ ما يحدث فوق الخشبة إنّما هو الحقيقة، عين الحقيقة فتبني، على حدّ تعبير بعض النّقاد، جدرانا ثابتة يعيش داخلها الأبطال ويتحرّكون فيها، وتؤثّث الفضاء بأشياء مستجلبة من العالم الواقعي فإنّ مسرح التّسييس هو المسرح الذي يعرضُ الأشياء على

المشاهد ويمنعه، في الوقت ذاته، من الاندماج فيها، فغاية مسرح التّسييس حملُ المتفرّج على الاقتناع بأنّ ما يشاهده فوق الخشبة ليس إلاّ لعبة مسرحيّة، لهذا وجب أن يقف منها موقف المراقب المتأمّل لا موقف المشارك المنفعل.

إن المسرح يقوم في أصل جوهره، على الحوار. وهذا الحوارُ متعدّد متنوّع. «فثمّة حوار يتمّ داخل العرض المسرحي، وثمَّةَ حوار مضمر بين العرض والمتفرّج، وفي مستوى أبعد ثمّة جوار بين الاحتفال المسرحيّ عرضًا وجمهورا وبين المدينة التي يتمّ فيها الاحتفال» (انظر البيانات).

غاية هذا المسرحُ أنْ يُشبع جوع «الإنسان للحوار» فإذا قصُر عن أداء هذه الوظيفة يكون قد تخلّى عن أهمّ وظائفه وأولاها بالاهتمام.

غير أن الحوار الذي يسعَى إليه سعد الله ونّوس ويصبُو إليه يظلّ صعبا، وذلك لأنّ التقاليد المسرحيّة قد ألغت الحوار واستبعدته. وهذه التقاليد إنّما ترتدّ، في الواقع، إلى المسرح الأرسطيّ حيث كان المتقبّل يكتفي باستقبال الرّسالة دون أن يسهم في إنجازها. فهذا المسرحُ قد حكمَ على المتفرّج ان يظلّ قابعا في الظّلام ساكنًا صامتا يُتابع العمل الدّراميّ مأخوذًا بالوقائع تتعاقب أمامهُ. لكنّ التقاليد وحدهَا ليْسَتْ وحدها، في نظر ونّوس، من معوّقات هذا الحوار، وإنما هناك طبيعة المتفرجين أنفسهم. فهؤلاء قد تعوّدوا كلّما دخلوا المسرح، الصمتَ لا الحوار، الانسياق وراء الأحداث الدّراميّة يتفاعلون معها لا الوقوف خارجها. لهذا كان الدّخول إلى المسرح شبيهًا بالدّخول إلى معبد حيثُ الصّمت والسكينة والوقارُ من طقوس المكان وشعائره الأولى. لكن المسرح، في نظر ونّوس، ليس معبدًا وإنّما هو مؤسّسة، والمسرحيّة ليست صلاة وإنّما هي حدثٌ اجتماعي...

وغاية مسرح التّسييس تتمثّل في استبدال مسرح بمسرح. استبدال مسرح التقاليد الأرسطية بمسرح الوعي الضدّي «حيثُ لا مكان للمطلق بل للنسبيّ، ولا وجود للثابت بل للمتحوّل، ولا اقتناع بحدود الإجابة المطلقة بل بالمدى المفتوح للسؤال» على حدّ عبارة جابر عصفور.

في الاحتفاء بالمتفرّج :

إنّ المتأمّل في كتابات ونّوس النظرية يُبادهه احتفاؤهُ بالمتفرّج. فهو، في نظره، الأصل في الحدث الدّراميّ، وسواهُ (المخرج، والكاتب ومصمّم الدّيكور) روافد لا يؤدّي غيابها إلى نفي الظّاهرة المسرحيّة بمعناها الأساسي. الاحتفاء بالمتفرّج عُدول عن تراث مسرحيّ عريق اهتمّ بالخشبة ولم يُلْقِ بالاً للقاعة، تُراث أولى النّص والعرض كلّ اهتمامه ولم يلتفت إلى الجمهور تعفّفًا أو ترفّعًا أو بحثا عن سلامة موهومة. مسرح التّسييس سعى في كلّ نماذجه إلى تسليط الضوء على المتقبل الذي ظلّ في الدّراما الأرسطيّة صامتًا، تفصله عن الخشبة مساحة بيضاءُ لا يجوز له عبورها، بل سعى إلى استدراجه إلى داخل الحدث الدّرامي.

وإنّه لأمرٌ ذو دلالة أن يعرّف ونّوس المسرح بأنّه «متفرّج وممّثل» في المقام الأوّل مساويًا بين هذين الطرفين في إنجاز العرض المسرحيّ، مستبعدًا أطرافا أخرى كانت إلى وقت قريب تحظى باهتمام رجال المسرح وعنايتهم.

في هذا السياق عمد سعد الله ونّوس إلى تبديد الهالة التي كانت تحيط بالنصّ المسرحيّ والتي جعلته على امتداد قُرون عديدة يحظَى بقداسة كبيرة حظرتْ على الممثّلين الخروج عنه.

لكن هذا التّراتبُ اهتزّ بتأثير مُباشر من الحركات المسرحية الحديثة التي حوّلت النصّ إلى مفردة من جملة مفردات عديدة تكوّن العرض المسرحي. فالمسرح، في

نظر ونّوس "فنٌّ مركّبٌ لا يمكنُ تقليصه إلى مجرّد نصّ" إنّه تشابك علائق كثيرة، وتفاعل عناصر كبيرة وإذا عمدْنا إلى تقليص العرض إلى نصّ مستغن بنفسه غير مفتقر على غيره نكون قد أطفأنا جمرته، وحوّلنا لألاءَ ناره إلى رمادٍ. وقد أفضى هذا الفهمُ الحديث للفنّ الدّرامي إلى اعتبار النصّ، على حد عبارة ونّوس، "مجرّد مشروع" لا يمكن أن يكتمل إلاّ إذا توافرت عناصرُ أخرى تخرجه من حال السّكون إلى حال الحركة، ومن حيّز الأدب إلى حيّز المسرح والتمثيل، أي إنّ النصّ لا يكتمل إلاّ إذا تحوّل إلى عرضٍ مع كلّ ما تنطوي عليه عبارةُ العرضِ من معاني الفُرجة والاحتفال وتعدّد الأصوات.

لهذا تعمّد ونّوس الإبقاء على «مساحات بيضاء» في نصّه تتيحُ للمخرج أنْ يتسلّل منها إلى المسرحية يطوّعها لايقاع تجربته.

فالإخراج إنّما هو إبداع على إبداع سابق ومع كل إبداع إخراجي جديد ينبثق النصّ بألقٍ وبهاءٍ جديديْن...

مستأنسين بهذه الآراء التي تصدّرت المسرحيّة نَلِجُ فضاء نَصّ «مغامرة رأس المملوك جابر» متأمّلين بعض خصائصه الفنيّة والدّلاليّة.

ولعلّ أوّل ما يطالعنا في المسرحيّة عنوانها الذي جاء غريبا يثيرُ فضول القارئ، ويشدّ انتباهه. فهذا العنوان قد نسبَ المغامرة إلى الرأس لا إلى جابر. وكأن مغامرة الرأس غير مغامرة جابر.

هذا العنوان يُمكن أن نتَأوّلَهُ تأويلين اثنين فربّما استخدم الكاتب، متوسّلا بالمجاز المرسل، الجزء (الذي هو الرّأس) للدّلالة على الكلّ (الذي هو جابر) وربّما أراد أن يومئ إلى أحداث المسرحيّة التي قلّصت المملوك إلى رأس يحمل رسالة...

وإنّني إذْ أجدُني أميل إلى التّأويل الثّاني لأنّه أبلغ في التعبير عن مضمون المسرحيّة فلا أستَبْعِدُ، مع ذلك التّأويل الأوّل.

ازدواجية الخطاب المسرحي:

إنّ أوّل ما لفت انتباهنا ونحن نلج فضاء المسرحيّة ازدواجيّة خطابها فالدّخول في فضاء هذه المسرحيّة دخول في فضاء نصّين متباينيْن لغة وطرائق أداء:

ـ النصّ الحافّ: وهو نصّ الإشارات الركحيّة تحيل على مجموعة من الأنظمة العلاميّة غير اللّغويّة تسهم في تفاعلها مع النص المنطوق في إنجاز العرض وتحقيق مقاصده الجماليّة.

ـ النصّ المتن: وهو نصّ الحوار الذي ينعقد بين مختلف الشخصيات والذي يتلقّفه المتقبّل عن طريق جارحة السّمع.

هذان النّصان متداخلان، على اختلافهما، متشابكان يُضيءُ أحدهما الآخر. ويخْلَعُ عليه النّظام والمعنى. النّص الأوّل يحيل على لغات غير كلاميّة مثل الدّيكور والأضواء والموسيقى وحركات الجسد. وهذه اللّغات لا تقلّ فاعلية، في المسرح، عن لغة الكلام، أمّا النصّ الثاني فيحيلُ على رسائل لغوية تتفاعل، مع الرّسائل غير اللّغويّة داخل المسرحيّة لتشكّل مجتمعة الحدث الدّرامي. النّص الحافّ هو النصّ الذي يشير إلى حضور المؤلّف يوزّع المشاهد، ويشكّل الفضاء وينسّق مفردات الدّيكور، أمّا نصّ الحوار فهو النص الذي يُشيرُ إلى انسحاب الكاتب من نصّه ليفتحه للشخصيات الدّراميّة تسكنه.

النصّ الحاف وتأثيث الفضاء:

ومن العناصر القارّة التي يُحيلُ عليها النّصّ الحافّ الفضاء الدّرامي، وقطع الدّيكور التي تؤثّثهُ...

نقصد بالفضاء الدّرامي المكان الذي تدورُ فيه أحداث النّص المسرحيّ وتتحرّك شخصياتُه، والذي يقوم القارئ، معوّلاً على النصّ، بتمثّله وتخيّله.

والمتأمّل في المسرحيّة يَلْحَظُ أنّ هذا الفضاء قد تشكّل على نحو مخصوص. فالخشبة فيها قد تحوّلت إلى خشبتين: خشبة أولى تمثّل المقهى يضمّ الزّبائن يَتَحلّقُون حول الحكواتي. والخشبة الثانية تمثّل مدينة بغداد تستشري فيها الفوضى. الخشبة الأولى تحيل، من خلال العديد من الإشارات اللغوية وغير اللغوية (الأغاني، المذياع) على العصر الحاضر، أمّا الخشبة الثانية فتحيل من خلال الكثير من العلامات الدّالة على العصر العبّاسي- الخشبة الأولى تعرضُ حدث سرد الحكواتي لقصّته على الزبائن، أمّا الخشبة الثانية فتعرضُ حدث الخلاف الذي نشبَ بين الخليفة ووزيره.

على هذه الهيئة جمع ونّوس بين مكانين متباعدين في فضاء واحد وزمنين مختلفين في وقت واحد ممّا جعل المسرحيّة تتحوّل إلى مسرحيتين اثنتين: فضاء المسرحية الأولى الدّرامي: المقهى، وزمن أحداثِهَا العصر الحديث، أمّا المسرحيّة الثانية ففضاؤها الدّرامي بغداد، وزمن أحداثها العصر العبّاسي وشخصياتها: جابر ومنصور وياسر والخليفة والوزير...

لكنّ الحدود بين هاتين المسرحيتين تظلّ مع ذلك واهية، فربّما تسرّب الماضي إلى الحاضر، متخطّيا كلّ الحواجز التي تفصل بينهما، فتتّحد المسرحيتان بعد تفكّك، وتتداخلان بعد انفصال.

ومن الأمثلة الدّالة على ذلك إقدام الممثّلين في آخر المسرحيّة على إلقاء رأس المملوك إلى روّاد المقهى متجاوزين بذلك حدود زمانهم، ومكانهم، منتهكين حدود زمنٍ ومكان آخرين.

ومن الأمثلة الدّالة الأخرى مُخاطبة الموتى في آخر المسرحيّة أيضا، روّاد المقهى خطابا مباشرا متخطين بذلك قرونًا عديدة ومسافات طويلة.

هذا الفضاء الدّرامي تُؤثثه إلى جانب الممثلين، قطع الدّيكور بوصفها علاماتٍ محمّلة بالمعنى، مفعمة بالرّموز.

والدّيكور، في مسرح التسييس، لا يهدف إلى محاكاة الواقع، أو نقله غفلاً إلى الخشبة. الدّيكور في هذا المسرح يقتصرُ على التلويح لهذا الواقع تلويحًا خاطفًا مستبعدًا كلّ تطابق مع أشياء الواقع ومفرداته.

هذا الدّيكور قد يلمحُ في هذه المسرحيّة للعالم الخارجي عنْ طريق بعض الصّور والأشكال (يدخلُ الممثلون الخشبة... وهُمْ يحملون بعض القطع التي يمكن أن تُوحي. بمنظر شارع عامّ... يمكن هنا كما. في كل المشاهد الاستعاضة عن ذلك بالبَانُوهاتِ المرسومة).

وقد يحيل هذا الدّيكور على الواقع عن طريق الإلماح إلى بعض عناصره (يدخل ممثّلان يحملان قطع ديكور بسيطة تمثّل ما يشبهُ رواقًا في قصر ببغداد)... فالرواق في هذا النصّ يُحيل على قصر.

الدّيكور الأوّل ينهض بوظيفة التشبيه في البلاغة التقليدية، أمّا الدّيكور الثاني فينهض بوظيفة المجاز المرسل.

لكنّ الذي نُريد أن نلفت الانتباه إليه أنّ ونّوس قد رفضَ مقتفيا أثر بسكاتور الدّيكور الثابت السّاكن واستخدم الدّيكور المتنقّل تُغَيّرُ قطعه أمام النّظارة لا خلف الستارة على حدّ عبارة بعضهم...

ولا شكّ أن هذا الدّيكور الذي يُفكّك أمام الجمهور ثمّ يُعَادُ تركيبه وسيلة من وسائل التغريب يُريد من خلالها سعد اللّه ونّوس فضح اللّعبة المسرحيّة، وانتهاك أسرارها، والكشف عن خباياها. ممّا يكسر الايهام بالواقع، ويحولُ دُون إقبال المتفرّج على الاندماج مع الشخصيّات.

النصّ المتن :

أ ـ المسرحيّة واستلهام التّراث

أشار سعد الله ونّوس في أحدِ حواراته أنّه عثر على حكاية «المملوك جابر» صدفةً عندما كان يقلّبُ الطبعة الشعبيّة من سيرة «الظّاهر بيبرس» وهذه الحكاية، كما أوضح الكاتب، كانت مرويّةً في صفحة أو صفحة ونصف، لكنّها، على قصرها، كانَتْ قد شدّت انتباهه بما انطوت عليه من أحداثٍ غريبة لهذا أقبل على إستلهامها، معرضا عن جذورها التّاريخيّة فإذا بشخصيّاتها تنمُو، كما قال «لا كحقائق تاريخيّة، وإنّما كشخصيات حيّة... تعيش في الواقع، وتطرحُ مشكلات هذا الواقع «مُردفا» في اللّحظة التي بدأتُ فيها الكتابة كانت الحكاية تاريخيّة انتهت، وبهذا المعنى أقول كنتُ أحسّ حين كتبتُ المملوك جابر أنّي «أكتب مسرحيّة معاصرة».

هذا الجزء من الحوار إنما يُفصح عن أسلوب سعد الله ونّوس في الكتابة المسرحيّة. فَنُصوصه، وإن استمدّت مادّتها من التّاريخ فإنّها ليستْ نصوصا تاريخيّة، التّاريخ مجرّد قناع يتوسّل به الكاتب «ليعبّر عن موقف يُريدهُ أو ليحاكم نقائص العصر الحديث» حسب تعبير احسان عباس، التّاريخ الذي استحضرهُ سعد الله ونّوس مُفعمٌ بهواجس الحاضر مثقل بهمومه. فهو من هذه النّاحية يختلف اختلافا بيّنا عن التّاريخ الموضوعي، إنّه تاريخ مقروء من موقع معيّن في الحاضر من أجل تحقيق غايات وأهداف تكمن في الحاضر. فعودة سعد الله ونّوس إلى التّاريخ لا تبطن أيّ حنين إلى الوراء ولا تُخفي أيّ شوق لاستعادة مرحلة سابقة الماضي، على العكس من ذلك، لم يُعْد يمثّل أنموذجا للكمال أو قدسيّة مطلقة فالماضي، إذا أخذنا بعبارات أدونيس صار يهمّ المبدع بقدر ما يدعوه إلى الحوار معه، وبقدر ما يضيئنا فيما نواجهُ عتمات الحاضر، لكن ونّوس لمْ يسترفد كتب التّاريخ فحسب بل استرفد الأشكال المسرحيّة القديمة ومنها على وجْه الخصوص شخصيّة الحكواتي، والحكواتي شخصية كانت تختلف إلى المقاهي تروي السّير والملاحم الشّعبية معوّلة على تعابير وجهها ونبرات صوتها.

لكن الذي يلفت الانتباه أن سعد الله ونّوس قد عدل عن الصّورة النمطيّة للحكواتي في التّراث العربيّ. فإذا كان الحكواتي في هذا التّراث لا يكتفي بالسّرد وإنّما يتفاعل مع الأحداث التي يرويها حيث كان يسرد القصّة معوّلا على ملامح وجهه ونبرات صوته للافصاح عن معانيها ودلالاتها، فإنّ حكواتي ونّوس رجلٌ مُحايد «التعابير في ملامحه ممحوّة حتّى ليُحسّ المرءُ أنّه إزاء وجه من شمع اغْبر، عيناه جامدتا النّظرة، توحيان بالحياد البارد» وإذا كان الحكواتي في القص الشعبي مستجيبًا، لرغبه المستمعين «لأنه رجلٌ يرتزق من غناء القصّ الشّعبي، ولا يسعه إلاّ أن يلبّي رغبة الذين سينقدونه المال». كما اشار الناقد محمّد البدوي فإنّه في المسرحية يتصدّى لرغبة الزبائن يريدون سماع سيرة الظاهر بيبرس ملاحظا أنّ الحكايات مترابطة «متعاقبة» فلا تأتي واحدة قبل الأوان. وإذا كان الحكواتي في القص الشّعبي يجنحُ في خواتم قصصه إلى النّهايات السعيدة فإنّ الحكواتي في هذه المسرحيّة اختار نهاية تراجيديّة وهذا النّمط من النّهايات لا تروق للسّامع الذي ينتظر «خاتمة مفرحة» فيها الحقّ ينتصر على الباطل والعدل على الظلْم...

كلّ هذا يتيح لنا القول إنّ سعد الله ونّوس لم يكتف باستدعاء الحكواتي القديم بل إنّه أعاد تشكيل ملامحه بما يتلاءم وفهمه لوظيفة المسرح. فالحكواتي في مسرح ونّوس ليس مجرّد راوٍ يسردُ قصّة بل إنّه ينهض بوظائف أخرى لعلّ أهمها.

ـ التواصل مع المتفرّج: لقد كان سعد الله ونّوس دائم البحث عن الوسائل التي يمكن أن تشدّ المتفرّج إلى هذا الفنّ الوافد، وتجعله أكثر إقبالاً عليه، وقد

وجد في شخصيّته الحكواتي التي لها حضور قويّ في الذّاكرة الشعبيّة وسيلة من وسائل تحقيق هذا التّواصل وتوكيده.

- كسر الايهام وجعل المتفرّج يندمجُ عقليًا وليس وجْدَانيًا مع الحدث المسرحي.

ـ إلى جانب كتب التاريخ والأشكال المسرحيّة القديمة استرْفد ونّوس التراجيديا الاغريقية فمسرحية ونّوس قد تشربت، عن وعْي منها أو عن غير وعي، قوانين التراجيديا الاغريقية وتشرّبت على وجه الخصوص خصائصها الفنيّة والفلسفيّة. والتراجيديا في التراث اليوناني هي تصوير قصّة بطل تنتهي حياته بفاجعة «والفاجعة التي تحلّ بالبطل هي نتيجة خطإ ارتكبهُ أو لعيب فيه لا يدركه في بادئ الأمر» وأساسها كما أوضح أرسطو هو الصراع غير المتكافئ، صراع الإنسان مع القوة الغيبية بوصفها قُوّى أكبر منه من ناحية، وقوّى يُغلّفها الشّعور الدّيني من ناحية أخرى...

إن هذه الخصائص، خصائص التراجيديا الأرسطية هي نفسها خصائص مسرحيّة ونّوس وإن اختلفت المقاصدُ، وتباينت الأساليبُ.

الصــّراع :

إن هذه المسرحيّة، تقوم على وصف الصّراع يخُوضه جابر ضدّ «وضعه الاجتماعي» جعله أسير العبودية والفقر. هذا الوضع بدا قرينَ القدر اليوناني الذي لا يمكن الانفلات منه أو الانتصار عليه. لكن ونّوس أفرغ هذا القدر من معانيه الغيبيّة وملأهُ بمعان اجتماعيّة، أنزله من السماء إلى الأرض جعله من صنع الإنسان لا من صنع الآلهة. لقد كانت جريرة جابر تتمثّل في محاولة الحصول على "كيس من ذهب" يُمكّنه من "عطر زمرّدٍ وعلوّ المقام" لكنه لم يدر أنّه أسيرُ قدره الاجتماعي لا يمكن الخروج عليه أو التنصّل منه لهذا تحوّلت رحلتُهُ إلى أرض العجم التي ظنّها انتصارًا على هذا القدر انتصارًا للقدر عليه.

بسبب من هذه النهاية كانت شخصيّة جابر، كشخصيّة الأبطال اليونانيين، مثيرة لشفقة المتفرّج وعطفه حتى أن الحكواتي فقد، في آخر المسرحيّة، حيادهُ، والتحق بالجوقة يخاطب الجمهور موجّهًا ومحذّرا في آن. لقد آنحرط جابر، مثله مثل الأبطال اليونانيين في صراع خاسر، وسعى إلى الانتصار على خصم أشدّ منه بأسًا وأكثر قوّة.

صحيح أن البطل التراجيدي لم يعدْ يتحدّر من سلالة الأمراء والملوك وأنصاف الآلهة وإنّما باتَ يتحدّر من طبقات المجتمع الدّنيا، وصحيح أنّ الصّراع الذي يخُوضُهُ هذا البطل لم يعد صراعًا مع القوى الغيبيّة وإنما أصبح صراعًا مع القوى الاجتماعيّة ولكن جوهر التراجيديا ظلّ مع ذلك واحِدًا لم يتغيّر. وهو الصراع غير المتكافئ يخوضه الإنسان ضدّ قوّى أكبر منه وأشدّ بأسا. وكما الحالُ في التراجيديا الاغريقيّة فإن الكاتب يهدف من وراء هذا الصراع تصوير الإنسان ذي القُوى الروحيّة الكبيرة يتعالى على ضعفه وهشاشته لهذا أثارتْ هذه المسرحيّة في نفوس المشاهدين، كما التراجيديا اليونانيّة، الشفقة على البطل والخوف عليه من مَوْتٍ يتربّص به في آخر الأحداث.

لكن هذه المسرحيّة لا تصوّر صراعًا واحدا وإنّما تصوّر وجوها من الصراع شَتّى منها: الصّراع النّاشب بين الخليفة والوزير فكلّ منهما يريد إزاحة الآخر، درءًا لخطره فإذا كانت الجيوش والأعوان أداة الخليفة في هذا الصّراع فإن المكر والحيلة والاستنصار بالعجم هي أداة الوزير للتصدّي له لكنّ أكثر وجوه الصّراع لفتًا للانتباه الصّراعُ النّاشب بين الرّجل الرّابع وعامّة النّاس. فهو ما فتئ يناوئ سلوكها، ويسعى بطرائق عديدة إلى تقويمها. لكنّ صوته ظلّ ضعيفا وسط جوْقَة الرّجال آثروا مهادنة السّلطة.

لا شيء نعرف عن هذا الرّجل سوى أنّه قضّى فترة ليست قصيرة في السجون وأنّه عرف سجون بغداد وسياط جلاديها. والمسرحيّة لم تسع إلى تسليط الضوء على هذه الشخصيّة التي أرادت أن تسير في طريق غير التي سار فيها الجميعُ لكأنها تقصدت أن تتركها غامضة مهمّشة تصرخُ فلا يصغي إلى صُراخها أحد وتثور فلا أحد يعير ثورتها اهتمامًا.

الخـــاتمة :

من خلال هذا العرض الذي قدّمنا يمكن أن نَسْتَصْفِيَ النّتائج التّالية:

1 ـ أن ونّوس قد حرص، من خلال مسرحيّة، مغامرة «رأس المملوك جابر» على تقديم عرض مسرحيّ يتحوّل فيه المتفرّج إلى شريك فاعل لا يكتفي بالمشاهدة والاندماج مع الشخصيات وإنّما يسهم في الحدث الدّرامي، ويخلع عليه النّظام والمعنى. وقد توسّل، من أجل تحقيق هذه الغاية، بالعديد من الصّيغ الدّراميّة التي من شأنها أن تستدرج المتفرّج إلى الحوار، وتدفعه إلى الانخراط في العمل الدّرامي والمساهمة فيه.

2 ـ أنه قد عمل على جعل المتفرج في حال يقظة وانتباه حتّى يتأمّل العرض المسرحي، ويقوّم ما انطوى عليه من مواقف ورؤى الحقيقيّة.

3 ـ انّه قد سعى إلى تأصيل مسرحيّته في أديم الثقافة العربي فاستمدّ مادّتها من التراث وَبعث، من أجل تجسيد أحداثها، أشكالا مسرحيّة قديمة كاد يطويها النّسيان.

4 ـ أنّ السؤالين الاجتماعي والسياسي كانا من أكثر الأسئلة استقطابا لاهتمام الكاتب. بينما اختفت الأسئلة النفسيّة والحضاريّة اختفاء واضحًا.



الحَلـزُون

فتحي شبيـل (*)

أضاءت غزالة الكون، وظهرت باحتشام بعد اختفاء أيّام وراء الأنواء العاتمة والسّحب الدّاكنة القاتمة، لطخة صغيرة بيضاء مشعّة، ترسل دفءًا ناعمًا يشعْشع من ذبالة ضوئها، وسط لطخة سوداء أوسع وأكثر انتشارا تغشّي أكبر رقعة من السّماء،، كفّت الأمطار،،، ولم يبْق غيْر هدير الماء في المزاريب والسّواقي،، وانشقّت السّماء عن قوس قزح بديع تعلّقت الأبصار شاخصة به . . .

خرج النّاس من منازلهم وبيُوتهم رغْم برودة الطّقس، ثلاثة أيّام مرّت كأنّها دهُور والنّاس قابعُون، لا شغْل ولا مشغلة،، ملّوا السّجْن ومُراقبة الأمطار الغزيرة التّي كانت تسُحّ سَحّا من وراء النّوافذ. إنّ ملازمة البيُوت لُمدّة ثلاثة أيّام أمْر مُحْبط. . . الأمطار والسُّيُول أعاقت الحركة. . توقّف الوقْت داخل المحلاّت رغْم أنّ عقارب السّاعة ما تزال تدقّ ترقّص على إيقاع المطر،،، وتوقّفت كلاب الحيّ عن النّباح ونامت متقوّسة الظّهُور بحْثا عن الدّفء، ولم يملأ الفضاء غيْر نثيث الماء وقصْف الرّعُود المتتابع . .

قالت الجدّة بصوتها الهادئ : «أمطار بالقبَب، ربّي يعْطينا قدّ قُوّتنا. كبُرت شوكة الشّتاء هذا العام !».

وكانت في بداية كلّ فصْل شتاء تُخْرج الأغطية وتعلّق صنْدوقها القديم في معْلاق غليظ مثبّت إلى الحائط في زاوية علويّة من زوايا البيْت لا يكاد يُرى لأنّه طُلي هو الآخر مثْل الحائط بالكلْس الأبيض،،، وكانت تقُول :

«لا بُدّ من المحافظة على عقارب الصّنْدوق يا بُنَيّ،،، عقارب الصّنْدوق لا تمُوت !!»

وسمعْنا عبْر الأثير أنّ هذه الأمطار قد عصفت بالبيُوت الهرمة وحصدتها حصدا، وأغرقت ما فيها ومن فيها.

خرج النّاس مثْل أسْراب النّمْل المتدفّق ليتفقّدوا المنازل المتهدّمة ويعاينُوا ما أصابها من أضْرار وليغيثُوا من داهمهم السّيْل المنهمر إلى بيُوتهم وعبث بأغراضهم وممتلكاتهم .

وخرجْت أنا مع لداتي إلى الحقُول القريبة من حيّنا لجمْع الحلازن،، كان الماء قد غمر مساحات شاسعة من الحقول، وكنّا نتبع ما ربّما

*) كاتب، تونس

مـن الأراضـي ويبسـت تربتـه . . . تعـوّدنا إثْـر تسـاقـط الأمطـار أن نهـرع زرافــات ووحْـدانًا لجمْع الحلازن التّي تخـرج هي الأخـرى من سباتها على وقْـع زخّـات المطر .

أمْـر فـي غايَـة المتعـة أن نجمـع الحـلازن،، ونرجع بها إلـى بيوتنـا لنسلقهـا بالمـاء والملْح، أو لنطبخهـا بالفلافـل والفُـول الأخضـر .

كانت الظّروف الاقتصاديّة لعائلات حيّنا عصيبَة قاسية، نعيش علـى الكفاف والشّظف،، وكنّا بالفعْل نعتبر الحلزون في مقام اللّحْم «نحسبـو البيّـوش زهـومـه!»،، كـانـت منـازل الحيّ صغيـرة المساحـة، حقيـرة الشّـأن، لا يشرّفهـا غيْـر أصحابهـا ومـا يتحلّـون بـه من طيبة نفْـس، وحسْـن دعـابـة، وإحسـاس عـال بالعـزّة والكـرامـة.

كنّا نتسابـق،، من يجمـع عددا أكبـر مـن الحلازن التّي كنّـا نصنّفها إلَى صنفيْـن : ذكـر وأنثى. ولم نعلم بأنّنـا مخطئون في هـذا التّصنيـف إلاّ حينمـا وصلنا إلى التّعليـم الثّـانـوي وعرفْـنـا مـن أستـاذ العلوم الطّبيعيّة ألاّ وجود لذكـر وأنثى في الحـلازن.

وكنّا نعْـجـب مـن ذكور الحـلازن لكبَـر حجمهـا ولأنّهـا تنغرس تحْت الرّمل وتغطّي نفسها بـه فـلا تشاهد غيْـر كومة صغيـرة مـن التّـراب الغضّ.

و تطوّر السّباق البريء إلى تخاطف وتدافع، يسلب القويّ ما جمع الضّعيـف،، والكبير ما جمع الصّغير ...

والتقـت عينـاي بكُومة تـراب لحلزون ذكر، فأسْرعْـت لالتقـاطه، وفـي الحـال يلمحنـي أحـدهـم فيـركض نحْـوي،إنّـه نجيب، قيـل عنْـه إنّـه سـارق دجاج! معظم سكّـان الحيّ يكْرهـونـه،،، والحقيقة أنّـه ما كان لي أن أحْمل لـه ضغينة لأنّنا قد ربّينا الدّجاج في منْزلنا ولم يأت لسَـرقتنا... وهاهو الآن يركض ورائي ليخطف الحلزون عوضًا عن الدّجاج!!...

أصبح السّباق عَـدْوًا، إلـى أن شارفـنـا علـى العَـودة إلى الحيّ . . .

هـا هـو جـارنـا الهـادي قـادمًا على درّاجته، فلأتـوجّـه نحْـوه قصد الاحتمـاء بـه . . .

ومـا إن قاربْـت علـى الوصول إليْه لأطلب المساعـدة والمطـارد يجْـري ورائي يكـاد يمسـك بتلابيبي، حتّـى صاح عمّـي الهـادي فـي وجهـي صيحة فـزع :

«عقْـرب. عقْـرب»

فرميْـت بمـا فـي يـدي علـى الأرض، رمية واحـدة سَـريعـة وقويّة، فإذا به عقْرب أصفر اللّون في حجْم الشّبْر يتحفّـز للهجُـوم بذيلـه البنّيّ المنحني إلَى الأعلـى وشـوكته السّـوداء،، جـرى العـقْرب فـي شكْل دائري كأنّـه ضُرب على رأسه يحـرّك بكلاّبتيْـه علـى غيْـر هُدى، يتحسّس ما سيعترضـه،،، أو لعلّـه يتنفّس الصّعداء وقـد نجا مـن سجْـن أصابعـي الذّي ضيّقته عليْه بقدر حرصي على إبقـاء الحـلـزون فـي يدي.

اقشعرّ جلْد بدني للمشهد. وانعقد لساني، غيْر أنّ العقْرب لم يمسسْني بسُـوء. قال عمّي الهادي: إنّ سُـمّ هذا العقْرب النّاقع كفيل بأن يقضي على جمل!

لقـد نجا مـن لدغـه بأعجُـوبـة !

-*-

حيـن توفّيـت جدّتي وكنْتُ فـي ربيعـي الثّـامـن، فتـح والِـدي الصّندوق القديـم،، وكنْـت حاضـرا وجـلا مـن أن تخـرج منْـه العقـارب فتمْـلأ الفنـاء،،، لكنّ أبـي لم يجد غيْـر أوراق هُـويّـة ومستنـدات ملكيّـة علمْـت منْه بعْـدهـا أنّهـا عقـارب الصّنْـدوق !

وطني، يا مرفأ الأحزان !

علي القاسمي (*)

قال لي أبي وهو يودّعني في مطار بيروت :

ـ «ستعبر إلى الضفة الأخرى، يابُنيّ...»

ثم سكت فجأة وأشاح بوجهه بعيدا عني، مصوّبا نظره إلى الشمس الغاربة وراء المطار وكأنّه يحاول أن يدفن دمعة مكابرة في الأفق النائي، أو يلقي بها في أعماق البحر السحيقة دون أن ألحظ ذلك. وبعد هنيهة عادت نظرته من السماء إلى الأرض مثل قوس قزح واستقرّت عليّ، واستأنف كلامه قائلا:

ـ «ستعبر، يا بنيّ، إلى الضفة الأخرى، وسترى وجوها جديدة، وأشجارا مورقة، وستناديك أصوات متنوّعة. ولكن، ولكن لا تنس أهلك ونخيلك على شاطئ الفرات. لتبق ظلال سعف النخيل على عينيك كأهدابك، ولتبق أهازيجنا على شفتيك كريقك. واعلم أنّنا سنظلّ نناديك على البعد، وسنذكرك كلّ يوم عند انبلاج الفجر، وابتسام الصباح، وضحكة الشمس، وزغردة الطيور الطليقة. سنذكرك كلّما استمرأنا طعاما واستسغنا شرابا. سنذكرك مع الشمس الغاربة والنجمات الطالعة، وسنرى صورتك في وجنة القمر. سنحمّل النسيم سلاما إليك. سنردد اسمك في صلواتنا داعين الله أن يحفظك ويردّك إلينا سالما...».

وقطع كلامه مرة أخرى وأشاح بوجهه عني نحو الأفق البعيد، ثم اختنقت الكلمات، ولم يسعفه صوته، فضمّني إلى صدره.

لم أفه بكلمة، لم أنظر في عينيه، بل أخذت كفّه اليمنى بين يديّ، وضعتها على موضع القلب منّي، ثم مرّرتها على وجهي، قرّبتها من فمي، لثمت أصابعها واحدة واحدة، نفذت رائحة المسك منها إلى رئتيّ. ما أطيب رائحتك يا أبي، وما أطيبك. كنت تحنو عليّ طفلا، فأحببتك. وعلّمتني وناظرتني فتى فاحترمتك. كيف أنسى يا أبي تربة أهلي، وماء الفرات، ونخلة أمّي. فقد تشرّبت بها روحي، وسرتْ في دمي، ونبض بها قلبي. وهل يحيا المرء بلا قلب؟ كيف أنسى يا أبي وطني، ليتني كنت أستطيع ذلك لحظة واحدة لأستريح، فهو يسكن كياني، ويملأ أحلامي.

ألا تعلم، يا أبي أنّني، منذ ذلك الفجر الذي احترفت فيه الرحيل، والشمس تشرق كلّ صباح في عيني من العراق، وتغيب كلّ أصيل في العراق، وأنّ ساعتي

*) كاتب، عراقي يقيم بالمغرب

أدمنت توقيت بغداد، أينما ذهبت، لأنّ هذه الساعة التي أهديتها إليّ، ذات يوم، تعمل بالنبض، بنبض قلبي الذي تجسّه في معصمي. وقلبي ينبض بحبّ الوطن.

تخشى، يا أبي، أنني قد أنسى وطني حينما أعبر إلى الضفة الأخرى، وأنت على يقين، يا أبي، أنني في أيّ المحيطات أبحرتُ، وفي أيّ البحار نشرت أشرعتي، فإنّ بوصلة القلب ستبقى متجهة دائما نحو منائر وطني، وأنّ سارية الروح ستظل أبدا ملفّعة بشال أمّي وضفائر أختي. وسأستنشق عبير بستاننا في نسيم البحر. وسوف يغتسل طيف بلادي في مجرى مركبي، وأرى خيال أعناق نخلاتنا في الغمائم فوق السفن. وسيجري ماء الفرات، على الدوام، في عروقي وأوردتي وشراييني ودمعي. وسألبث صاديا ظمآن لن أرتوي إلا ببلّ شفتيّ ببضع قطرات من ماء الفرات الفرات.

وطني هو ذاك النهر المنساب برقّة في أحضان قريتنا الوديعة. وطني هو النخلات التي تحنو على النهر ويتدلّى سعفها الطويل في مجراه، فتمتزج خضرتها بزرقة السماء على صفحة مائه. وطني هو سرب البجع الذي كان يسبح مع مجرى التيار قادما من أعالي النهر، فكنت، في طفولتي، أعوم نحوه جذلا، أطلق صرخات الفرح، أطارده بمرح، ترفرف أجنحته، يرتفع طائرا على سطح الماء، فأنبهر به.

وطني هو حكايات أمّي والنعاس يداعب أجفاني في دفء فراشي في المساء. وهو قبلة أمّي على جبيني وضمّة أمّي إلى صدرها وهي توقظني في الصباح. وهو خلطة الحليب بالعسل التي كنت تسقيني في الفطور، وهو جدائل أختي الكبرى المترنحة على كتفيها وهي تقودني إلى المدرسة.

وطني هو الراعية الصبيّة، عيدة، ذات الوجه الأسمر المليح المتناسق التقطيع، والجسم الناحل الصغير، والذؤابتين المنفلتتين من عصابة رأسها السوداء. عيدة التي كنت، في صغري، أجري خلفها وهي مسرعة إلى عملها في المروج، وأنا أنادي: «عيدة، عيدة» فتلتفت إليّ، ملوحة بعصاها مهدّدة، وهي تقول: «وجعة شديدة، وأسش تريد من عيدة؟» فكنت أضحك للهجات البدويّة، وللحزم البادي على وجهها الأسمر.

هل كنت أعبث، ياعيدة، حين كنت تعملين بجدّ، فاستحققت لعنتك؟ إذن، الآن وقد أدركت معنى العمل بعد هذا العمر، أعذرك وأطلب منك العفو. أتدرين، يا عيدة، أنّ ذاكرتي ظلت موشومة بملامحك التي لوحتها شمس بابل بسحرها، موشومة بعينيك اللامعتين مثل نجمتين، بشفتيك المكتنزتين اللتين قبّلتهما عشتار، وببريق أسنانك اللؤلؤية. ما تذكرت طفولتي، ياعيدة، إلا كنت أنت تركضين في مروجها الخضراء بهمّة وحزم، تردين نعجة شاردة إلى القطيع، أو تنحنين لتحتضني حملا صغيرا لم يستطع مجاراة القطيع، أو تعدّين غنمك بالعصا قبل العودة إلى المراح، وتركضين وتركضين وكلبك يجري خلفك دوما كما لو كان مشدودا بخيط إلى أذيال ردائك ذي القبّ المطرّز والسلهام الطويل.

ولكن، قولي لي، ياعيدة، أين أمسيت اليوم؟ هل عدا عليك الزمن الذي لا يرحم كما عدا عليّ؟ هل غزا الشيب مفرقك؟ هل أقعدتك الشيخوخة فلا تستطيعين المشي، بله الركض؟ أم أنّ يد الموت قطفتك قبل الأوان كما كنا نقطف التفاح في بستاننا؟ وكيف مرّت حياتك؟ هل كنت سعيدة؟ أم أنّ الناس في القرى والأرياف لا يعرفون معنى السعادة؟ حسنا، هل تزوجت؟ وهل كان زوجك رجلا طيّبا؟ هل عاملك برفق؟ هل أنجبت أطفالا بمثل ملاحتك، وسمرتك، وحدّة لسانك؟ وأين هم الآن؟ هل أتيحت لهم فرصة التعلّم في المدرسة؟ هل مارسوا أعمالا أقل عنتا من الفلاحة والرعي؟ أم التهمتهم نيران الحروب التي دمّرت وطني؟

أتذكرك، ياعيدة، فأضحك من أعماقي. أنا الذي نسيت طعم الضحك في فمي منذ سنوات. أضحك من كلماتك التي كنت تنطقينها بنبرة حادّة: «وجعة شديدة، وأيش تريد من عيدة؟» هل كنت تعدّينني طفلا يبتغي إضاعة وقتك فتردعيني بأقسى الكلام، وبتلويح من عصاك الطويلة؟

أتذكّر أن أمي ذات يوم طلبت من قارئة كفّ ألمّت بقريتنا أن تقرأ كفي وكنت يومها صبيًا. أخذت المرأة كفّي، بسطتها بين راحتيها، أطالت النظر إليها، ثم تحوّل نظرها تحديقا، اكفهّر وجهها، زمّت شفتيها، لوت عنقها، أدارت وجهها نحو اليمين ونحو الشمال، كأنّها تبحث عن مهرب. لم ترد أن تنطق بما رأت، لم تشأ أن تصدم أمّي. تُرى هل رأت تلك المرأة فعلا دمي يسفح في غربتي؟ أم بلغ أذنيها صدى بكائيات السومريّة.

رفعت رأسي لأنظر في وجه أبي. لمحت احمرارًا في عينيه. قرأت فيهما غضبا يخفيه مثل جمر تحت الرماد، أحسستُ أنّه يدثّر قلقا عميقا بكبرياء جريحة، كما يقلق أسد مكبّل في قفص وهم يقتادون شبله بعيدا عنه، لا يدري إلى أين. بدت على ملامح وجهه تلك الهيئة التي استحوذت عليه يوم أخبروه باستشهاد ابنه البكر أحمد في معركة جنين في فلسطين.

ولكي أغيّر الموضوع، سألته :

ـ «وكيف خلّفت أمّي وراءك، يا أبي؟

قال بإباء :

ـ «كم كانت تودّ مرافقتي لرؤيتك. ولكنّي أعلم أنّ قلبها لا يحتمل ساعة الوداع فأقنعتها بالبقاء».

تمنيت في تلك اللحظة أن أعود إلى قريتي وأن أسافر إلى أمريكا. تمنيت أن أعود وألقي ببقايا روحي المبعثرة في أحضان أمي، أطوّق عنقها بيديّ، أقبّل وجنتيها، وألثم يديها، وأشمّ رائحة الحناء في ذوائبها البدويّة. ولكنّني غادرت البلد مكرها نزولا عند رغبة أبي وإلحاح أمي وحثّ الرفاق لي. وجئت إلى بيروت مع رفيق لي حفاظا على حياتنا. ولكن ما معنى حياتي وأنا بعيد عن أهلي ونهري وبستاني ونخلاتي وجوادي ومروجي الخضراء. وهل يبقى معنى لذاتي مجرّدة من أحاسيسي؟ كلّ الكائنات في قريتي تتشبث بجذورها شامخة حتى الموت، فأشجار النخيل في بستاننا تموت وهي واقفة؛ وأسراب البلابل تموت وهي محلّقة؛ إلا أنا، فها أنا ذا أسير، بخنوع مطأطئ الرأس، أبحث عن منفى موحش الدرب لأدفن فيه خوفي وجبني.

لم أحمل معي شيئا يذكر قريتي، مجرّد أشياء صغيرة ليست ذات شأن ولكنّها كانت تعني لي الكثير الكثير. وضعت في حقيبتي حفنة تراب من بستاننا، وخوصة خضراء انتزعتها من إحدى سعفات نخلتنا برفق وبيد مرتعشة وشفتين واجفتين كأنني أعتذر لها عمّا أفعل أو أتلو عليها بكائيات الوداع، وريشة من ريشات بطتي الأثيرة كانت ملقاة على حافة الحوض في حديقة المنزل، وشالا أسود لأمّي أخذته من صندوق ملابسها دون أن أخبرها، طويت فيه نايي وخبأته وسط ملابسي في الحقيبة. ولكنّ قصدي الحقيقيّ منه أن ألفّ به رأسي إذا ما داهمتني الحمّى يوما ما لعلّ رائحة أمّي العالقة به تشفيني مثل تميمة أو بلسم سحريّ. وارتديت بذلتي السوداء كما لو كان لون الفراق أسود. وعبرت باحة الدار في اتجاه الباب، ولكنني توقفت في وسط الباحة عند البئر. رفعت الغطاء عنها، نظرت إليها، حدّقت فيها، رأيت القمر منعكسا في مائها العميقة، وعادت إليّ القصة التي سمعتها عن بئري هذه، رمز الحياة والموت لي ولأمّي.

التّبُّولة

زهير جبّور (*)

سيُباغتها بحضوره وقد تعبّر بعفوية حركاتها عن فرحتها... وتوحي له أنها كانت في انتظاره، وكعادتها تدخل أناملها بشعرها الأسود الطويل وتقذفه إلى الوراء، مرحبة به بعد الغياب، وستسأله ملهوفة مغتبطة.

ـ ماهي أخبارك ؟

ـ لم تبتعد ذكراك لحظة، كنت في البال دائما يمشي (الميكرو) ببطء، والثلج غطى أجزاء الأمكنة التي يتجاوزها بصعوبة، والبرد يخترق العظم، وهو يأسف لحظّه، فالطقس عاكسه، وقد خطط للزيارة منذ زمن، وصمم على تنفيذها تحت كل ظروف التحديات، صحيح أن علاقته بها كانت متأرجحة، خاضعة لمزاجيتها، وكثيرا ما اختلفا حول المفهوم، لكن ثمة مشاعر غير معلنة ربطتهما مع انحيازها التام للشاب المغرور الذي ترافقه باستمرار إلى (الكافيتيريا) وكثيرا ما رآهما يأكلان (السندويش) تحت ظل أشجار الحديقة.

هي تعرف أنه معجب بها، ولم تمنحه فرصة البوح والتعبير، فاكتفى بنظراته مستغربا تقربها من يساريّ عابث بالرزانة، تاركا ذقنه وشعره بفوضوية مقيتة، مرتديا ثيابا لاتليق ببهاء صبية جميلة مثلها، وحين رآها حاملة صورة (غيفارا) رغب أن يصرخ :

ـ اتركي الصورة فأنت التحقت طلبا للعلم، وليس لقتل الوقت بهذه الأفكار.

يومذاك تجاهلته، وعبرت بمحاذاته كأنها لا تعرفه أبدا، وإلى جانبها شابها، مضى هذا... وينبغي أن تثق الآن بأنه الوفي، العائد إخلاصا.

لم تستقبله كما تخيل، بل علت وجهها تعابير دهشة، مسترجعة كالبرق السنوات الماضية بكل ما فيها، ترددت في فسح مجال لدخوله، واقفة مبهوتة مرددة بآلية مستحضرة:

ـ كيف عرفت مدينتي وبيتي؟ كيف وصلت؟.

كانت تفرم (البقدونس) لتحضر (التبّولة) فهو دورها لاستقبال زميلات التدريس، وقد لملمت شعرها تحت منديل كي لا يعيق حركتها، مرتدية كنزة صوفية، وجرابا إلى ما فوق الركبة، مهملة وجهها إلى حين الانتهاء من عملها، لم تكن تفكر (بغيفارا) ولابشبابها، كان همها -قبل أن تسمع صوت قرع الباب- أن تكون (التبّولة)

*) كاتب، سورية

ناجحة، وتحظى بإعجاب ضيفاتها اللواتي سيضحكن كثيرا وهن تروين (نكاتا) محظور سماعها بالعلن.

ـ ما الذي أتى بك ؟ تفضل

قالتها دون اكتراث، وبما ينسجم وطبيعة ثلج الخارج.

تردد بالدخول. لكنه تحمل مخاطر السفر والبرد، وقطع المسافة الطويلة لهذا الهدف.

ـ أنهيت خدمتي العسكرية منذ عدة شهور، التحقت بعد تخرجنا مباشرة.

ـ تفضل

دخل غرفة، جلس، راح يحدق بلوحة لخيول متراكضة فوق العشب الأخضر، ثم لصورة رجل كان يبتسم حين التقطت له، قد يكون جدها أو والدها، أين صورة (غيفارا)؟ ينبغي أن تبرز هنا انعكاسات لما حمّلها إياه ذاك الشباب من أفكار، وكان لون المقاعد خمريا باهتا، يوحي بقدمها.

لا يجوز أن تستقبله وهي على حالها، مشطت شعرها، أتراه جاء ليعترف بحبه ؟ أم خطبتها؟ قديما لم تمنحه فرصة التعبير عن مشاعره، أو التدخل بشؤونها، ستسقيه القهوة وتصرفه.

وضعت القليل من (مكياج) مقررة رفض أي حوار مهما كان.

نهض بتهذيب مبالغ فيه، فطلبت منه الجلوس.

– كيف البرد؟

– جليد تام

– حولتها الجملة إلى كتلة جماد ففقدت إحساسها، مما جعل نظراتها فارغة فاقدة لأي معنى.

قالت:

– لا أستطيع أن أتفرّغ لك طويلا، فعندي مناسبة خاصة، زميلات وتبولة، ونحن نكرم ضيوفنا المستعجلين بفنجان قهوة مع الهال.

– أشرب قهوتكم، ويسرني مشاركتك بالمناسبة الخاصة.

– لا . . . أرجوك . . . أكتف بالقهوة فقط، كيف أمضيت الخدمة العسكرية؟

وجد في السؤال فرصة لسرد بطولاته في الحرب، تثاءبت عدة مرات، تحركت بما يوحي بحرجها وضجرها، تململت، حركت رأسها بعدة اتجاهات، مدركة نوع العقاب الذي جرته لنفسها، ثم انتفضت غاضبة، صارخة، حين قال:

– ماذا عن غيفارا؟

– انسَ ذلك، انسه تماما، كانت مرحلة وانتهت، عائلتي لا تعرف أي شيء عن الموضوع، اشرب قهوتك وانصرف قبل حضور أخي المتشدد، فهو سيرحب بك، ويعاقبني بعد مغادرتك.

رآها تجري بين ممرات الجامعة، متحررة، ترتدي ما تشاء من ثياب تظهر مفاتن جسدها، فمن أين لهل هذا الأخ الغيور.

قال:

– اكتشفت إذن بأن كل شيء كان مجرد سراب؟

– لا لم أكتشف، ولا أظنك قدمت لتعيدني إلى ماض قطعت صلتي به.

هز رأسه بما يوحي بالعتب

– حاولت أن أرشدك مرارا

وبشراسة صرخت :

– أكنت ضالة حتى ترشدني ؟ اسمع . . . لم أقتنع بقوميتك، ولا تذوقت نعيم يساريتي التي وعدت بها، وأنت وأنا وهو غرقنا في الخيبة الكبرى.

كما عرفتها تماما. العنيدة. الرافضة. التي لم تمنحه فرصة للبوح عما في داخله. ولن يهزم.

– لماذا اتيت ؟ وضّح .. وهذه قهوتنا مع الهال

نقدمها للعابرين من الضيوف، وانصرف قبل مجيء أخي .

لم يعر انفعالها أية أهمية، وتجاهله تماما، وهي بأعلى مراحل الغضب المكبوت أخذ رشفة من فنجان القهوة، وأعاده إلى مكانه.

- سأنتظر حضور أخيك، لأنني أرغب بالتحدث إليه، هذا من إحدى تقاليدي.

سلطت نظراتها النيرانية في وجهه، وهي تعلم بأنه صلد وبليد، ولا يريد أن يفهم.

- أنا غير مؤمنة بتقاليدك، وحريصة أن لا تراه.

- لا زالت مرتبطة بذلك الشاب المهووس.

وقفزت عن مقعدها بهيستيريا كاملة، وبلهجة فيها خطابية ممسرحة، وبإيقاع صوتي حاد ومميز، قالت:

- يا أخي أفهم، لقد انتهى كل شيء، مات غيفارا... والشاب ... وخسرت لأمضي بقية حياتي بأكل التبولة، التبولة فقط ولا شيء سواها.

- لأنك غاضبة سوف أؤجل الموضوع الذي حضرت بسببه.

- ومن طلب منك الحضور ؟

- لأن الوقت ضيق، وحياتك تبولة، فسوف أنتظر حضور أخيك.

قررت المقاومة حتى اللحظة الأخيرة، وبعدها ستطرده بشكل علني، وتطلب إليه عدم العودة.

قال:

- سأقدر انشغالك بزميلاتك والتبولة، وقررت أن أتزوجك بشكل تقليدي، ولن ترفضي، اعلمي أفراد أسرتك بالموضوع، وقد أعجبت بقهوتكم التي تقدمونها للعابرين، وسأعود غدا لأشربها دون هال، انتظري قدومي حتى لو أغلقت جميع المنافذ المؤدية إلى بيتكم.

كانت تحدق به صامتة منفعلة ثائرة وكان ثلج الخارج يتساقط غزيرا.

لماذا طرقت اللّيالي ؟

سعاد الخرّاط (*)

لماذا طرقتَ الليالي
وقد أو صدتْ مزاليجَها الصاخبةْ
وفاض على مقلتيها الرحيلْ

لماذا طرقتَ الليالي
وقد نسي القلب أفراحه
وعلّقها في جفون القمرْ

لماذا طرقتَ الليالي
لماذا فتحتَ المنافذْ
فأنّتْ مزاليجها الصاخبةْ

لماذا تقيم على ضفّة للحنينْ
وتقطف زهرا
نما خطأً في حقول السنينْ
وقد سافر العمر عبر الزمن
فأذوى الخطى
وأذوى الرحيلْ

لماذا طرقتَ الليالي
لماذا وخزتَ السكون
لماذا أزحتَ الرمادْ
وألهبت نار السهادْ
لماذا أنختَ الربيعْ
على ضفّةٍ للرحيلْ
فصار السكون وداعا
وغاب رقاد السهرْ

*) شاعرة، تونس

لماذا طرقت الليالي
لماذا سكنت الجفون
لماذا أقمتَ حصارا
وأضرمت في الصدر نارا
تبيح التشرّد بين الصوَر
تبيح التسكّع بين السطوز

لماذا طرقت الليالي
وأحرقت كلّ الوصايا
وجادلت شكل السهاد
وأنبتّ شكل الفراغْ

لماذا طرقت الليالي
لماذا أنخت الربيغ
على ضفّة للرحيلْ
لماذا طرقت السنينْ
وهل ينبتُ الحبّ بين الصقيغ

سأفتح نافذتي من وراء السنينْ
وألقي رداني على نسمات الرحيلْ
وأستقبل السحبَ مثقلةً بالغيومْ
لتنجب ثرثرةً ممطرةْ



قلتُ : نغيب ...

الزبير بالطيب (*)

عدتَ ...

لماذا عدتَ ؟

ألم يكُ قد غيّبكَ اللّيلُ ؟

و أقسمتَ بدفء الشّعر و رونقه ألاّ تشتاقُ ؟

عدتَ ...و عاودني الوجعُ المزمن والذّكرى

كم تقسو الذّكرى

لم أفتح قلبيَ منذ رحلتَ ... ولم أكتبْ شعرا

لم أنسخ إيقاع الماضي أغنيةً

لم أشرع نافذتي للشّارع / للمزدحمين على عتبات الصّحو

فقط آويت – وبي حزن أخرَس – للكلمات

بحثت طويلا عن صـــــورتها

عن صــــوتي

عن لغتي الأخرى

خانتني لغتي ذات لقاء ... فبكيْت ...

الطّفل بكى فيّ ...

و آلمني – حين مسحت دموعا –

أنّ الدّمع يخالطه الخوف

سألتُ :

لماذا الخوف ؟ ألم نوصـــد أبواب العمر ؟

لماذا الخوف ؟ ألم نكنس أشـــلاء الأمس ؟

لماذا الخوف ؟ ألم نقرأ آخر تعويذات الليل ؟

الحزن سيمضي ذات وصول

و الصّور الباهتة الكسلى تتلاشى قريبا

والليل إذا طال تكون ثوانيه مرافئ للحبّ

هذا ما علّمني الصّمت ...

*) شاعر، تونس

أتعرف ما علّمني أكثر ؟
علّمني البوح بحزني كي لا يكبر
علّمني نسيان إساءات المزدحمين على أبواب رحيلي
علّمني كيف أحبّ سكوني
يـا هذا الطفل السّـاكـن فـي قلـبـي
فـي لـغتي الحُبلـى بالوجـع
في كوني المكتظّ بوجه لا أعرفه / لا يعرفني

** ** **

عدتُ إلـيّ أخـيرا ...
ها عدتُ إليّ فلا تبك
إن نفد الوقت و حان الموعد الكلمه
لا تخرس
إن شئت تكلّم أو فاصرخ
إن شئت فعيّرني أو شئت فغنّ
ولتوقد حزنك أحلاما ورحيلا آخر
و مدينه نسكنها حين يطوّقنا العدم
إن شئت تسلّح بالآتي سيكون جميلا ...
....
....
ولكن أين نقيم وكيف لنا أن نشرع للدّفء ثوانينا ؟

حيّرني البعد وهذي الوحشه
أتعبني البحث عن الطّرقات الموصلة إلى عالمنا الـ...دافئ
كنت أواري الشّوقَ سرابا وأفرّ
فيتبعني ... و الدّرب طويل
لم أعثر عليه ولا عليّ
لم أعرف ذاك الوجه و لم يعرفني
حدّق فيّ قرأت سؤالا في عينيه :...
"مـــن أنت ؟"
أجبتُ : ......
"أنا المنسيّ على عتبات الرّيح... فمن أنت ؟"
أجاب الوجه المكتظّ بلغز وكوابيس ...:
– "أنـــا الـ..."
– "من أنت ؟"
– "انـــا الـ....."
– "لماذا الصّمت ؟" سألتُ ...
– "أنا البحر
أنا مدن لا تعرفها
أنا وجع يأتي فجر الرّحله
صحو يبدو / صحو ينأى ...
و أنا انت ....
................................."

أفاق الطفل تساءل عن هذياني ماذا يكون :

أهي الحمّى ؟

أم هي أحزان الذّكرى ؟

وبكى

بكى الطّفل إذ ابتعدت نجمة كانت تونسنا

قلت : أتبكي ؟ و الليل أحاط بهذا القلب

هل عاودك الخوف ؟

أتراك رأيت خيالات / صورا / ونهايات ؟

يا هذا الممعن في حزن كالليل طويل

لماذا الدّمع تخالطه الحيره ؟

أهي الذّكرى ؟......

** ** **

وجه أعرفه أو يعرفني كان قريبا تلك الليله

كان وديعا كالنّسمه أو عذبا أخرس كالزّهره

و ابتسمت زهره

لم أحفل بكلام قلناه ... عن الأصحـــاب ...

عـن العمـــــر ...

عن هذا الوجع السّاكن في لغتي ...

عن الليل الأوّل و الشّعر ...

عن تعب البحر ...

ضحكنا و تساءلنا عن مأتى الرّيح ...

....

و مـــــضـــــى ....

سأل الطّفل السّاكن فيّ : أوحدك ؟ تهذي ؟

أم هي أحلام الأمس تعاودنا ؟

أم تستحضر بعض الكلمات تمكّننا من قول حقائق تخجلنا ؟

نبوح بها للمزدحمين على عتبات مرافئنا ؟

هل نطردهم ؟

فالليل طويل و الكلمات هي الكلمات

لم تورق لم تثمر لغة نجهلها

لتسمّي النّائم فينا يا طفلا عذبا يسكُنني

أم ندعوهم لوليمتنا

أم نقرأ شعرا لتجمهرهم ... ثمّ نغـيـــب ؟

قلت : نـ..غيـ..بْ..

البحث عن سماء زرقاء

ماجدة غضبان (*)

قال الغريب..

لا تزرعي..!

فهذه الأرض......

لا تنجب سوى التنهدات......

قال الغريب..

ومضى ..

لكن ما قال......

نبت على أرضي....

وتنهدت.....

ينبوعا من دموع....!!

****

أين المفر..؟

من الرمال.....؟

من لوني الأسمر......؟،

من الضلال ....

في بلقعها.....؟

من حصاري....

بالبيد والنضوب.....؟

من صديدها.....

المسكوب......

على جرحي....؟

أين المفر...............؟؟؟

****

صمت ...

ونافذة...

*) شاعرة، العراق

وسجائر..،
وشاعر في سقيفة
من رمال!،
يتململ في جسده
الصلصال!،
يسافر من موطئ قدمه
حتى مقتل قصيدته الأولى!،
يتحرك بينه..
وبين ما بقي منه،
النبتة الاستوائية
على الكثيب الرملي
تعرف كيف يحزُّ الليل
رقبة طيّعة،
وخارج سقيفته
تدبر عساكره
في حرب..
لا يُعرَف كيف استعرتْ
سوى خرير دم
يتدفق..........

****

كفّ حضنت جرحا،
كفّان على مهد رضيع،
أربع كفوف حول عناق،
عشرون كفا تقسم،
آلاف كفوف تزرع
موتا،
ملايين منها.......
بين أصابعها...........
تنساب جداول دجلة......
ويبتل الشاطئ............
برضاب الشهداء...........!!

****

ليلة ندا القوم
عند النافذة المُختـــلَسة
اشتاقوا إليه
أبصروا العروق
كأفاعٍ
على ظاهر كفيه
أبصروا حدقتيه
تبرقان
كسحاب خُلّب
إنما لا تشهدان
رفاقا
هدّوا أسوارا تنمو

على أشفار عينيه

وأرخوا جفنيه
كي يقتنص
سماء زرقاء...!

****

اقطفني!
فذبولي حدّ
يقام على الزهر
كل شتاء
ولسنا نمنع زمنا
من عبث نشأته الأولى

نحن لانبني
صروح حب
بل صروح طغاة
يقتطفون كلينا
ليلة عرس
لا نملك نجمتها

****

يعبرون الشواطئ الأخرى
حاملين اللآلئ
والعشق
يجدّفون بالحزن
ويشربون الدمع
ترياقا

ما ودعوني
لم أرافقهم

كانت مراكبهم
ترسو على هالة الأطياف
بعيدا عن الآثار
التي بعثرتها الريح
على صفحات الرمل

****

العشق...
يحب الهجرة..
حين يخضر..
ينبت فينا..
ننبت فيه..
العشق حين يهاجر
يحمل في حقيبته

جذورا
هي آخر ما نملك
من وطن
ودَّعنا..!

****

أفيقي..
أيتها السفن
المبحرة قبل حلول
الموج.....
أيتها السفن المقبلة
بوجه الريح
دونما قلوع..
أفيقي....
ما زلت هنا..
كجذور النخل!
أجهل البحار والأشرعة
ووداع رائحة التراب....!

****

ودعتني
وحسبتُها مزحة
خطوةً لها عودة

ككل الطرقات الدائرية
التي فيها أغوص
بلا جدوى
أبحث...
بين أحجارها
عن بحر يموج....!
حسبتُ أن الأشجار
هذا الشتاء
لن تعرى
وأنّ الورد على شباكي
سيزهر
حسبتُ هذا الليل
سهرا طويلا
يُجهَض بإغفاءة
....
....
آه............
ما أكثر..........
ما حسبت...........
وخطوتي..........
بلا عودة...............

مكتبة الحيــاة الثقافية

تقديم عبد الرحمن مجيد الربيعي

«الرواية التونسية المعاصرة... شعرية السرد وفتنة المتخيل» للدكتور بوشوشة بن جمعة (تونس)

تتواصل إصدارات الباحث الجامعي التونسي د. بوشوشة بن جمعة التي يشتغل فيها على السرد التونسي خاصة والمغاربي عامة. وأحدث إصداراته كتاب بعنوان «الرواية التونسية المعاصرة... شعرية السرد وفتنة المتخيل».

يأتي مفتتح الكتاب تحت عنوان «مدخل إلى أسئلة الرواية التونسية المعاصرة». أما الأسئلة التي يطرحها فهي: 1 ـ سؤال النشأة والتباس تخوم البداية. 2 ـ سؤال التصنيف وهوية النص الروائي. 3 ـ سؤال التحول ورهانات الواقع والكتابة. 4 ـ سؤال التجريب والحداثة.

وهي أسئلة أساسية يحاول من خلالها البحث عن الأجوبة الموثقة علما بأنه يرى بأن (مستقبل الرواية التونسية مرتهن بمستقبل الكتابة عامة، والأدبية منها خاصة والتي يبقى مستقبلها مرتهنا بمستقبل القراءة، في ضوء انحسار فعل القراءة في زمن تعدد وسائل الاتصال والمعرفة، فأسئلة هذه الرواية من أسئلة الكتابة، كما رهاناتها من رهانات الكتابة: سؤال تخييل قادر على انتاج معرفة بالذات: كينونة وصيرورة، وبالواقع: مسارات وخيارات، وبالتاريخ: سيرورة تحولات وبالوجود).

وقد وزع المؤلف كتابه على مجموعة فصول ربما كان استعراضها هنا يقدم لنا صورة عن طبيعة بحثه هذا عن شعرية السرد وفتنة المتخيل في الرواية التونسية من خلال النماذج التي درسها علما وأن بوشوشة شأنه شأن كثير من الباحثين الأكاديميين يهمه توثيق أكبر عدد من النصوص بمستوياتها المختلفة.

ومن هذه الفصول : محكي البحر، محكي الذات والحياة في الرواية النسائية التونسية/ تصنيف الرواية التونسية المعاصرة/ رواية «دنيا» بداية تساؤلات ،نهاية منفتحة/ «المعجزة» العذراء للولادة الروائية: الفقدان، الأحياء، المساءلة/رواية «برومسبور» وجمالية المفارقة في الكتابة والقراءة والوجود/ رواية «ليلة الغياب» شروخ الأنوثة مرايا الحلم والذاكرة والكتابة / التجريب وجماليات المفارقة السردية في رواية «الدراويش يعودون إلى المنفى»/ تهافت الوجود المعاصر وفتنة اللامعقول في

رواية «وقائع المدينة الغريبة/ الذات... الكتابة والوجود أو الوعي بديمومة الأنا في رواية «أنا وهي والأرض»/ الفصل الأخير عنوانه (عتابات الكتابة ورهانات الواقع والتاريخ في رواية «عتبة الحوش»).

وعندما نستعرض أسماء كتّاب الروايات المدروسة سنجدها من بين الأسماء التي عملت على إثراء المدونة الروائية التونسية.

والباحث ميّال إلى تثبيت الاحصاءات مثل عدد الروايات لكاتبات تونسيات منذ رواية «آمنة» لزكية عبد القادر الصادرة عام 1983 وحتى نهاية عام 2007 وقد وجد أن عدد هذه الروايات 42 رواية.

أما الروايات التي درسها مستقلة وخصّ كل واحدة منها بفصل كامل فهي «دنيا» لمحمود طرشونة/ ويعود لرواية أخرى لطرشونة في فصل مستقل لاحق هي «المعجزة» أما رواية «برومسبور» فهي للروائي والقاص حسن بن عثمان، ورواية «ليلة الغياب» لمسعودة بوبكر، ورواية «الدراويش يعودون إلى المنفى» لإبراهيم الدرغوثي، ثم يتحول إلى رواية «وقائع المدينة الغريبة» لعبد الجبار العش.

أما رواية «أنا وهي والأرض» فللكاتب محمد الحبيب براهم.

وآخر فصول الكتاب كرسه لرواية «عتبة الحوش» للروائي عبد القادر بن الحاج نصر.

وإذا كانت الفصول الأولى للكتاب هي فصول تنظيرية كما رأينا فإن الفصول اللاحقة التي كرّس كل واحد منها لعمل روائي محدد فهي فصول تطبيقية أرادها دراسة واحتفاء بهذه الأعمال.

ومن المؤكد أن الباحث يواصل مشروعه الجامع بين الدراسة والبحث والبيبلوغرافيا بدأب ومثابرة ولذا أصبح في رصيده كمّ مهم لاغنى لكل دارس للرواية التونسية خاصة أو المغاربية عامة عنه.

يقع الكتاب في 208 صفحة من القطع الكبير، منشوات المغاربية للطباعة والاشهار (تونس) 2010.

«تسابيح الغياب»

لخالد الوغلاني (تونس)

صدر للشاعر والباحث الجامعي خالد الوغلاني ديوان شعري بعنوان «تسابيح الغياب».

وكان الشاعر قد أصدر قبله كتابا نقديا بعنوان «صورة الرحيل ورحيل الصورة دراسة في شعر المتنبي». والوغلاني شاعر فاعل من خلال أكثر من ممارسة فنية وخاصة في الشعر المغنّى الذي يكتبه بالفصحى والدارجة وله مشاركات مع سنية مبارك ومراد الصقلي وجمال الصليعي.

كما كانت له مشاركات في الامارات العربية المتحدة حيث أحرز على جائزة النقاد في البرنامج التلفزي «أمير الشعراء» الذي تقدمه قناة أبوظبي».

ويضم ديوانه هذا (45) قصيدة كلها من الشعر الموزون.

يدعو الشاعر لما يسميها «شعرية عربية أخرى» ويخصّ هذه الدعوة بمقدمة طويلة يبيّن فيها حيثيات دعوته هذه ويوضحها.

هذه المقدمة تحتاج إلى من يدرسها بعناية ويحاورها فالرجل يجمع بين الشاعر والباحث الأكاديمي فهو يرى مثلا شأن (الشعرية والمعرفة) مايلي: (أننا نؤمن بأن النص الشعري هو ملتقى المعارف اللغوية والانسانية والتجريبية بل وحتى التكنولوجية والمعلوماتية إذا الشاعر هو ذلك الحائك الذي ينسج بصبر وأناة بردة لمشاعره من خيوط معارفه المتشابكة) وهذا أمر مفروغ منه فالنص الابداعي رواية كان أم قصة قصيرة أم قصيدة هو خلاصة ثقافة مبدعه. والنص يقول لنا

هذا ولكن بشكل غير مباشر. ومن هنا اختلفت قصيدة البياتي عن قصيدة درويش ورواية نجيب محفوظ عن رواية عبد الكريم غلاب وعن رواية حنا مينة وهكذا.

على أية حال هذه المقدمة مطروحة للقراءة والنقاش، ولكن متى يحصل هذا؟

وكأننا بالشاعر غير مكتف بمقدمته اذ يتبعها بأخرى تحت عنوان «لمن نكتب»؟.

ولكن اختار هذه المرة صياغة شعرية يرى فيها أن سؤاله هذا هو : (سؤال الليل يغتاب القصيدة كلما مرت بنا الأقلام من بيت إلى بيت.

سؤال العاكفين على المدى

يهوون صوت الريح بين شقوق أفئدة تلظّت من فراغ القول

أتعبها نعيب البوم

بعثر حلمها الأتون من هذا الصدى الهامي على أضوائها ماذا لو اختلط الصدى بالصوت.

أزهق روحه، أفنى شدى الكلمات فيه فلم تقل؟ هذا الديوان كبير الحجم إذ يقع في 190 صفحة من القطع المتوسط، ومن المؤكد أنه يقدم لنا تجربة شاعر جاد ينطلق من مفهوم للشعر يعيه وينظّر له ثم يجسده في قصائده.

طبع الكتاب كما يبدو على نفقة المؤلف، سنة النشر 2009.

ديـوان البزّاز

الملاحسن أفندي البزاز الموصلي الخزرجي

أعده وقدم له د.فاتح عبد السلام (العراق)

تضم بعض المكتبات الخاصة العريقة في هذا البلد العربي أو ذاك عددا من المخطوطات النادرة التي يتركها الأجداد في مكتباتهم حتى يأتي من أحفادهم من ينتبه لأهمية المخطوطات فيقوم بإعدادها للنشر مدبّجا لها مقدمة تضيء طبيعة هذا العمل وتعرف بصاحبه.

وينطبق هذا القول على الباحث الأكاديمي والروائي العراقي د.فاتح عبد السلام ابن مدينة الموصل الحدباء الذي قدم للمكتبة العربية أخيرا كتابا بعنوان «ديوان البزاز الملاحسن أفندي البزاز الموصلي الخزرجي الذي عاش بين عامي 1261 - 1305 للهجرة وبين عامي 1845 - 1887 للميلاد أي أنه لم يكمل من العمر إلاّ حوالي 44 عاما ومع هذا فأن شهرته كما يقول د.فاتح عبد السلام (كانت كشهرة شيوخ ذلك الزمان الذي عاش فيه ولعلها فاقتهم بما عرف عنه من كرامات تداولها الناس في مابعد بالتواتر وأكدوا وجودها في شخصيته لتقواها التي لمسوها بأنفسهم قبل أن تنقل لهم من الثقاة إذ تؤكد المصادر الأسرية المتواترة القريبة منه أنه ما كان يخطط لنظم قصيدة في مديح نبويّ أو حب صوفي وإنما كانت ثمة مطابقة بين قلبه وإيمانه وبين لسانه ومعتقده. وعندما تدور الفكرة المركزية المولدة لكلامه -التي جمعت أفكاره على شكل شعري- وهي فكرة الوصول بأخلاص الولاء وأن المديح عنده هو وسيلة التعبير عن الولاء. وهذا الولاء روحي لله الخالق الباري بوصفه البداية والنهاية).

وعن بيئة الشاعر ونشأته يذكر د.فاتح بأن مدينته الموصل العربية كانت (مركزا حيويا من مراكز نشاط المدارس الدينيّة الراقية المعنية بعلوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والعلوم الفقهية المتصلة في وقت كان فيه للزهد والتصوف وجدل علوم الكلام والأدب واللغة والفقه ميادين ومجالات ومدارس خاصة ارتبطت بعلماء الموصل ومشايخها كما في مدن أخرى أبرزها مدرسة محمد أفندي الرضواني. وكان كبار الشيوخ يتخرجون من تلك المدارس ويجتمع حولهم تـلاميـذ مـا يلبثـوا أن يصبحـوا شيوخـا لهم مريدوهم وطلابهم وحلفاؤهم وبعد أن تعلم البزاز القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم واتصل اتصالا أوليا بالعلوم الدينية

في الكتاتيب تأهل للدراسة على أيدي الشيوخ الكبار المعروفين في عصره بالموصل).

أما عن (ثقافة عصره) أي الملاحسن البزاز فيقول د. فاتح ان جميع الأدباء في القرن التاسع عشر كانو من (طلاب المساجد والمعاهد الدينية وقد تأثروا بتيارات تكاد تكون واحدة) مع تأكيده على الخلافات الفردية بينهم. كما يرى أنهم هنا مختلفون عن أدباء مصر من مجايليهم (الذين تفاوتت ثقافتهم تفاوتا واضحا لتنوع دراساتهم في باريس واستانبول والأزهر).

ويؤكد على أن شعر القرن التاسع عشر في العراق كان من سماته (طغيان الصفة الدينية رئيس كبير عبر موضوع هو مديح النبي محمد-ص- ورثاء حفيده الحسين عليه السلام لاسيما عبر قصة استشهاده المؤثرة).

أما عن شعر الملاحسن البزاز فيذكر د. فاتح أن (الروايات الشفاهية المتداولة تجمع على أن ديوان البزاز الذي بين أيدينا الآن والمطبوع للمرة الأولى في مطبعة حجرية بالقاهرة سنة 1305 للهجرة لا يمثل إلا النزر اليسير من شعره فالبزاز كان من الشعراء المعروفين بقوة الارتجال وسرعته وغزارته حتى ان بعض الأسر الموصلية ذات الصلة المتينة به كانت تعرفه بألقاب أخرى).

ويذكر المقدم بأن البزاز ومن علامات زهده أنه (لم يكن راغبا بطبع اشعاره وانتشارها لأنه يعتقد بأن ما يقوله ليس شعرا بقدر كونه وصالا مع الذات الألهية يسعى إليه ومرتبته روحية عليا يبغيها).

أما أغراض شعر البزاز فهي (تتوزع بين مديح الرسول الكريم محمد وآل بيته الطيبين والأولياء والأئمة ورثائهم والوقوف على مآثرهم الخالدة وبين التضرع إلى الله سبحانه وتعالى والفناء في ذاته) ولكن د. فاتح يذكر أيضا بأنه (توجد في أشعاره تزرات تتعرض لهجاء وال أو مديحه) ولكنه يصف هذه الشذارات بأنها تبدو (مقحمة على الديوان وطبيعته).

ونعود للغة تلك الأيام حيث نقرأ الديباجة التالية عن (ديوان البزاز) :

(الديوان المحيي رفات الأدب. المذكر ببلاغته فصاحة العرب، نتيجة فكر اللاوذعي والألمعي الأريب الراقي بفضائله إلى مقام فخيم معتلى العلامة الملاحسن أفندي البزاز الموصلي حفظه الله ورعاه وأدام بفضله علاه.

ويليه ديوان الأستاذ الأفخم والملاذ الأكرم العلامة الحاج محمد شيت الجومرد الموصلي نظر الله بعين عنايته إليه ورقّاه إلى المقام العلي).

ويحار قارئ هذا الديوان الراقي ماذا يختار منه ليقدمه نموذجا، ومع هذا أثبت هذه الأبيات التي لاتغني عنه كاملا :

(إلهي بمن أرسلته رحمة لنا
ومن هو في العاصين عندك يشفع
أبي القاسم المختار أكرم من دعا
إليك ومن نور الهدى منه يسطع
أجل جميع المرسلين كرامة
عليك وأعلاهم مقاما وأرفع
أجرني من الكرب العظيم فأنني
لبابك ربي جئت بالذل أضرع
أنلني أنلني من نوالك بغيتي
فأنك تعطي من تشاء وتمنع
دعوتك مضطرا وأنت ملاذ من
دعاك وما في الكون غيرك مفزع
أتيتك أستجدي غناك لفاقتي
فجدلي فمالي غير بابك مرجع)

وكما نرى فهو شعر صاف، سلس، صاف.

عمل جميل أقدم عليه الحفيد د. فاتح السلام البزاز بجمع هذا الإرث الثمين. وقد جاء الديوان في 308

صفحة من القطع الكبير. منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت عمان 2010).

«أزرق سمـــاوي»

لريم نجمي (المغرب)

هذه شاعرة شابة قادمة من بيت شعري فهي الأبنة الكبرى للشاعرين المغربيين المعروفين حسن نجمي وعائشة البصري.

وقد سكنها الشعر طفلة وهي تعايش تجربة هذين الشاعرين سواء في قصائدهما المنشورة في دواوين أو مشاركتهما في الملتقيات الشعرية حيث كانت تصغي وتتأمل وتخزن، ورغم أنها اختارت دراسة الأعلام في احدى الجامعات الألمانية بمدينة بون ودراستها له باللغة الألمانية إلا أن الشعر وباللغة العربية لغتها الأم لم يغادرها، فكانت تكتبه، وهذه المجموعة «أزرق سماوي» هي باكورتها التي أرادت بها أن تسجل اسمها بين قافلة الشعراء القادمين بحيوية أخرى وتجربة أخرى ورؤية أخرى أيضا.

تهدي ريم ديوانها (إلى حسن نجمي، أبي). ولا غرابة فهذا الوالد هو من شجعها على ذلك وقدمها إلى الوسط الأدبي وعرّفها على الأسماء الفاعلة فيه سواء كانوا من الشعراء والأدباء المغاربة أو أولئك الذين يزورون المغرب بهذه المناسبة الأدبية أو تلك.

وقصائد ريم نجمي قصيرة جدا ومكثفة إلى أبعد حد ربما كانت بهذا تعكس طبيعة تعامل جيلها مع الكلمة، هذا الجيل القادم من الحاسوب والمتعامل مع الاعلاميات المتقدمة.

تحمل القصيدة الأولى عنوان «مرايا» وتتوزع كما هو عنوانها على عدد من المرايا، وهذا مثلا النص الكامل لقصيدة «مرآة ثانية» :

(سمعتُ صوتي

يناديني

أدخلت يدي في المرآة

لأخرسه

لامست أطراف صوتي

فدغدغتني الكلمات).

هي قصيدة «اللقطة» إن جازلنا أن نصفها، وهذه اللقطة قد تقصر جدا مثل «مرآة الشعر» حيث يكون نصها الكامل كالتالي :

(من المرآة بدأتْ القصيدة

لذلك كان الشعر شفيفا)

وكما في «مرايا» تتعامل مع قصيدة أخرى في مجموعة لقطات عنونتها بـ«فصول» فهذه لقطة جميلة عنوانها «فصل خامس» تمثل بلاغة الاختصار :

(إقترب أكثر

امنحني خريفك

وفي دفء الحياة

تنجب للسنة فصلا خامسا)

وفي تحية أخرى لأبيها تخصّه بهذه القصيدة القصيرة جدا والدالة المعنونة «أبي مرة أخرى» وهذا نصها الكامل :

(لم ينحن للريح

فتناثرت أوراقه اليابسة فقط

وظلّ يانعا

مثمرا

كما عهدته).

وهذا نموذج آخر للتكثيف المثمر بقصيدة عنوانها «شمس» من مجموعة «قصائد حب» :

(تعلّم كيف تمسك بالشمس
لن أُضيء العمر كله
لأدفئك).

وهذه قصيدة عنوانها «نشرة جوية» :

(في الطريق إلى سريره
علقتْ رجل الليل
بين السماء السادسة
والسماء السابعة
لذا لن تشرق الشمس غدا)

وهي من مجموعة قصائد عنونتها بـ«قصائد مشاغبة». هذه الشاعرة ذكية، تريد تقديم قصيدة متميزة نكهة وتقنية وقد وفقت إلى حد كبير. جاء ديوانها في 102 صفحة من القطع الصغير، نشر على الحساب الخاص سنة 2009.

«عمياء أحمل مصباحي»

لبهيجة مصري إدلبي (سوريا)

آخر اصدارات الشاعرة والروائية السورية بهيجة مصري إدلبي ديوان بعنوان «عمياء أحمل مصباحي»، وقد جاء هذا الديوان بعد عدد من الدواوين صدرت لها من قبل نذكر منها: في ساعة متأخرة من الحلم/ أبحث عنك فأجدني/ على عتبات الحلم أصلي/ خدعة المرايا/ لنهر الكلام يعبر من دمي/ امرأة من خزف الروح/ تقاسيم حلبيّة ودواوين أخرى.

كما صدرت لها في الرواية: رحلة في الزمن العمودي/ ألواح من ذاكرة النسيان/ الغاوي.

ولها عدد من المؤلفات في أدب الأطفال منها: الضاد تغني/ مغامرات صائل (قصة) مملكة اللغة (مسرحية) الضاد تحكي (قصص) حجر بيد ودم بيد (شعر) ولها عدد من المؤلفات النقدية نذكر منها : القصيدة الحديثة بين الغنائية والغموض/ وأنجزت جنوني/ قراءات في الشعر العالمي : نيرودا - ألبرتي - لوركا/ النص وما أخفى.

تكتب بهيجة أدلبي القصيدة الموزونة وفي شعرها شفافية أنيقة وغنائية دافقة.

مفتتح الديوان قصيدة في مقاطع بعنوان «عمياء» منها:

(في البحر الأبيض
أغسل أشعاري
يسألني البحر الأسود
ـ من أي بلاد؟
ـ لا أعرف
ـ من أي دماء ؟
ـ لا أعرف
العالم دمع ودماء
أشلاء تسكن في أشلاء)

ومنها أيضا :

(أفترش الموجة لأصلي
فأرى
أسماك البحر
تنازع فوق الرمل
والموجة
كبساط الليل تصلي
فوق البحر الميت).

ومن ذرى غنائيتها نذكر قصيدة «سرّ ذاتي» ومطلعها يقول :

(يد النهر
استعادت أغنياتي
وألقت لي مرايا من فرات

لتغسلني بصمت من شرودي

وتحملني إلى سري وذاتي

تجلت

حين صار الماء وصلا

فأتممت التواجد

في صلاتي).

ديوان يقرأ بتعاطف مادام يقدم لنا الشعر في احدى صياغاته الجميلة.

جاء الديوان في 88 صفحة من القطع المتوسط ـ منشورات دار كلمة (القاهرة) 2010.

جديد الإصدارات التونسية

«مروان في بلاد الجان»

لعمر بن سالم

صدر للقاص والروائي عمر بن سالم رواية جديدة بعنوان «مروان في بلاد الجان» ليعزز بها رصيده في مجال السرد منذ صدور روايته البكر «واحة بلاظل» عام 1979 وتبعها بأعمال أخرى مثل: يوم الأحد (مسرحية) 1979، دائرة الاختناق (رواية) 1982، عشتاروت (مسرحية) 1984، أبو جهل الدهاس (رواية) 1984، الأسد والتمثال (رواية) 1989، برج بابل (مسرحية) 1991، ليلى والسلطان (مسرحية) 1991، المليار (قصص) 1995، أشعار العهد الغابر (مسرحية) 1995، صحري بحري (رواية) 1995، قصاصات الليل والنهار من الجبل الأحمر إلى المنار (قصص) 1997.

وهذا الكم من الاصدارات يؤكد أن عمر بن سالم من الكتاب التونسيين القلائل الذين حققوا تراكما في مجال السرد قصة ورواية ومسرحية.

وتأتي روايته هذه لتعزز رصيده الشعر في عمل روائي يجوب به مناخات جديدة معتمدا السردية العربية المتينة المضاءة بالحكاية والخرافة والفانتازيا.

تقع الرواية في 232 صفحة من القطع المتوسط ـ منشورات دار سحر (تونس) 2010.

«هبوط إيكاروس»

لنصر سامي

جديد الكاتب نصر ساسي كتاب بعنوان «هبوط ايكاروس» جنّسه بـ«متواليات سردية». يهديه إلى إذاعة المنستير التي يصفها بـ(الشرفة القمرية التي أطل منها على العالم... أهدي هذه المعجزة الصغيرة).

وهذا وصف ثان لكتابه بعد «متواليات سردية» هو «المعجزة الصغيرة» والكتاب نص مفتوح ذكي يجمع بين الشعر والسرد في توليفة تشكل فعلا «متواليات سردية».

وقد وزع المؤلف كتابه على أربعة أقسام هي: النبي/ هبوط إيكاروس/ وردة الضوء/ وسلمى كعادتها تغني.

نقرأ من (النبي)

(هو هكذا

نصف لطقس زائل

ونصف لطقس لا يزول

تأتي إلى يده الخيول بنورها وظلامها

وتعود من يده الخيول

أزل من الآباء في خطوانه

صوت نهاري يقول

ولا يقول).

في رصيد نصر سامي عدد من المؤلفات منها: ذاكرة باتساع اللغات (1996). أنهار لأعالي الضوء (1997).

غربة لخيل الأساطير المعروف بكتاب السيرة (2001).
كتاب الحب 2006.

يقع كتاب «هبوط ايكاروس» في 118 صفحة في القطع المتوسط ـ منشورات الأطلسية (تونس) 2008.

دوريات عربية

مجلة «شؤون أدبية» ـ الإمارات

وصلنا العدد 58 من مجلة «شؤون أدبية» وهي مجلة أدبية فصلية يصدرها اتحاد كتاب وأدباء الامارات، رئيس تحريرها الشاعر حبيب الصايغ ومدير تحريرها القاص عبد الاله عبد القادر. وتتكون هيئة تحريرها من الأدباء يوسف أبو لوز، ناصر جبران و د. لطيفة النجار.

يضم هذا العدد ملفا عن (ملتقى شاهنده للابداع الروائي ـ سرديات الماء).

ويلاحظ أن المجلة تحتفي بالنصوص الأدبية وتخصص لها الصفحات الأولى منها إذ يكون الافتتاح بست قصائد للشعراء: ابراهيم محمد ابراهيم/ أحمد بخيت/ عصام ترشحاني/ سالم الزمر/ محمد زين جابر/ حبيب الصايغ.

كما يضم العدد قصائد تركية مترجمة قام بها علي أقباش.

وبعد الشعر تأتي ست قصص قصيرة لكل من: رشاد أبو شاور/ الحسن بنمونة/ محمد أبو معتوق/ مهدي عبد الله/ عدنان كزارة وعاتي بركات. وضم العدد قصة مترجمة لكاترين مانسفيلد ترجمتها لانا غازي زين الدين.

وفي العدد أربع دراسات هي: المحلي والعالمي في الأدب الإماراتي للدكتور محسن الموسوي/ اشارات نقدية- سؤال المفردة والدلالة لعبد الله محمد السيب/ ظبية خميس تكتب سيرتها لابراهيم اليوسف/ قراءة في مجموعة أحمد منصور الشعرية للدكتور صالح هويدي.

لكن الملف الذي ضمته المجلة مهم لأنه يقرأ (سرديات الماء) وفيه: الماء في السرديات الخليجية للدكتور الرشيد أبو شكير/ قراءة للصراع بين الشراع والعاصفة لحنّامينه لأسلام أبوشكير/ سردية الماء في القرآن الكريم للدكتور عبد الواحد لؤلؤة/ الماء والتشكيل الاماراتي لطلال معلا/ ذاكرة الماء ولاوعي السرد للدكتور سعيد بنكراد.

ويكتب القاص عبد الاله عبد القادر في زاوية (حضور الغائب) موضوعا تحت عنوان (سلطان العويس طوّاش اللؤلؤ والقصيدة).

وآخر مواد العدد (ثقافتنا المعاصرة تعاني الغربة) بجميلة الروبني.

هذا عدد ممتاز جدير بالقراءة، وقد فتحت المجلة أبوابها لكل أدباء العربية لذا حملت التنوع الثري من أدباء الخليج إلى سوريا والعراق ومصر والمغرب، وقد جاءت في 286 صفحة.

مجلة «مجرّة» (المغرب)

وصلنا العدد الجديد من المجلة الفصلية «المجرّة» التي تصدر في مدينة القنيطرة عن دار البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع. المدير المسؤول محمد البوكيلي وهيئة التحرير تتكون من د. مصطفى يعلى/ محمد سعيد سومان/ مصطفى الضو/ وهشام حراك. والاشراف لريم البوكيلي.

ونجد المجلة أمينة حتى لمؤسسيها الراحلين فتثبت أسماءهم وهم: مبارك الدريبي/ محمد زفزاف/ محمد الكغاط ومحمد الطوبي.

يضم العدد ملفا «تكريميا» للدكتور مصطفى يعلى المبدع والباحث الذي وضعت صورته على غلاف العدد

الأول. وتبدأ تحية المحتفى به من «كلمة العدد» التي تشيد بمآثره العلمية والانسانية، ومنها قولها : (وبالنسبة لملف اليوم نستشعر هذا الحس الانساني الذي نضحت به معظم الشهادات المدلى بها في حق المحتفى به الدكتور مصطفى يعلى. هذا الحس المترتب عن معايشة طويلة من طرف معظم المتدخلين امتدت لدى بعضهم من مرحلة الشباب إلى مرحلة الكهولة، مما شحن تلك الشهادات بمنسوب مرتفع من الصدق والوفاء) مشيرة إلى أن الصدق والوفاء قد جاءا حتى في شهادات الأدباء الشباب.

أما الملف فبدأ بالسيرة العلمية للمحتفى به المولود عام 1945 ثم كلمة المؤسسة الناشرة للمجلة (البوكيلي) أما الذين شاركوا في دراستهم وشهادتهم فهم: د.زهور كرام (شرخ كالعنكبوت وبلاغة حكي الحالة)، د.أحمد حافظ (المعنى والنص الموازي في لحظة الصفر)، د.عبد الله بن عتو (في حفل تكريم الدكتور مصطفى يعلى : الروح الطاهرة)، د.أحمد أنقار (أديب ليس أيقونة). د.محمد السولامي (مصطفى يعلى صداقة عمر) د.محمد اصميدة (واصطفاه فته فحكى) وتتواصل مشاركات التكريم بموضوعات أخرى لكل من د.مصطفى شرشار/ د.عبد المجيد العلوي/ د.أمينة السحاقي/ د.عادل قريب.

وقد ضم العدد مجموعة مواد أخرى خارج الملف منها (قصص قصيرة جدا) لعبد الله المتقي وقراءة لكتاب (السرد ذاكرة) للمحتفى به وهو موضوع نقل عن مجلتنا التونسية الحياة الثقافية) زاوية (مكتبة المجلة) اضافة إلى مواد أخرى.

نشير إلى أن هذه المجلة تصدر بدعم من وزارة الثقافة المغربية.

